الثورات الكبرى

بقلم
نهرو





ترجمة احمد بهاء الدين



العدد السابع

الثورات الكبرى

بقلم نهرو

ترجمة أحمد بهاء الدين

من هو نهرو ؟

من هو « نهرو » ؟ ..

الناس جميعا يعرفون أنه زعيم الهنـــد غير منازع . وانه رئيس أول وزارة وطنية فيها منذ أن استقلت الى الآن ..

ويعرفون أن له في الحركة الوطنية الهندية ، بل الاسيوية ، تاريخا حافلا . فقد انفق في السجون اثنى عشر عاما ، ولم يكن يدخل السجن وحده ، بل لقد دخله معه أبوه وزوجته وأخته وابنته .. وكثيرا ماكانت الشهور تمر وكل فرد من أفراد هذه الأسرة النادرة في سجن مختلف .

ويعرفون أنه يتزعم معسكر الحياد فيالعالم . او أنهبالأصح يتزعم « دعوة » الحياد . فهو لايؤمن بسياسة المعسكرات ، بل هو يكره أن يرى في العالم معسكرين ، ويكره بالتالى أن يضيف اليها معسكرا ثالثا ..

ويعرفون أنه يقف في آسيا كالمارد العملاق ينادى بأن آسيا للاسيويين . ويحافظ على اســـتقلال خطر دقيق بين الشرق والغرب . ويرفض الاستكانة ازاء أى خطر يهدد باشعال حرب عالمية ثالثة ، أو حرب محلية بالقرب من بلاده . وقد تبـدت آيات سياسته هذه في جهوده الجبارة التي ساهم بها مساهمة فعالة في عقد هدنة كوريا ، وهدنة الهندالصينية . وفياخراج هولندا من أندونيسيا وفى حملته على باكستان لاختيــارها

الانضمام الى حلف عسكرى ، وقبولها المساعدات العسكرية من أحد المعسكرين .

ولم يكن غريبا بعد هذا كله أن تشعر احدى الصحف الامريكية بنفوذه العالمي الجبار ، فتصف فريقا كبيرا من الكتاب والنواب الانجليز والفرنسيين بأنهم : أتباع نهرو وتلاميذه .. أي أن بين الحكام الانجليز الآن ، من أصبحوا « أتباعا » للرجل الذي كانوا يضعونه في السجن منذ سنوات ! ..

الناس جميعا يعرفون عنه هذا ..

ولكننا هاهنا نريد أن نعرف عنه شيئا آخر ..

نريد أن نعرف أى نوع من الثقافة والتفكير يكمن وراءتاريخ هذا الرجل ، وأى لون من المنطق يوجه مواقفه السياسية .

فالسياسة التى ينتهجها نهرو لاشك أنها نتيجة تفكير معين أو منطق معين تبلور في نفسه خلال مئات من التجاربوالاحداث والقراءات ، فما هو تفكيره ومنطقه ؟ ماهى حقيقة نظرته الى الحوادث والأشياء ؟ ..

ان معرفة منطق نهرو وتفكيره ليست بالمسألة الصعبة ... فآراؤه كلها مبسوطة مسجلة فى الكتب الكثيرة الضخمة التى ألفها ..

ذلك أن نهرو طراز آخر من الزعماء يختلف عن الطراز الذى عرفناه ـ من جيل نهرو ـ فى بلاد الشرق العربى خلال الثلاثين عاما الماضية ..

لقد عرفنا ـ من جيل نهرو ـ نوعا واحدا متكررا منالزعماء الأميين . الذين قد يتميزون بالوطنية والشجاعة والاقبال على التضحية ، ولكنهم لايتميزون بشىء آخر خطير وهو : الثقافة الواسعة . والنظرة العميقة الى الأمور !

عرفنا نوعا من الزعماء الذين لا يعرفون الا شيئا واحدا : هو ان في البلد غاصبا مستعمرا يجب طرده ، وكفى ! ولكنهم لايعرفون ـ معرفة محددة ـ مايكتنف ذلك من عشراتالمشاكل، وآلاف التيارات ، والدراسات فى الداخل والخارج علىالسواء .

كان هؤلاء الزعماء يعرفون أن الجهاد عملية اثارة وتضحية لنزع الراية الأجنبية المرفرفة علىأرضالبلاد فحسب . ولكنهم لم يعرفوا قطأن الجهاد ـبمافيه من اثارةوتضحية ـ ينطوىايضا

على عملية بناء متصلة باهرة لابد لها من الدراية الشاملة بتكوين البلد الاجتماعي ، والعناصر الفعالة وغير الفعالة في مقاومة الاستعمار ، والقوى التي يمكن محالفتها والتي لامفر من معاداتها والصورة الواضحة لنوع المجتمع الحر الذي يجب الوصول اليه خلال هذا الجهاد ..

لم تكن هذه الدراية . هذه الفلسفة . متوفرة بصورة واضحة في أذهان زعمائنا . بل كان جهادهم تلقائيا قبل كل شيء . الأمر الذي جعل الحركات الوطنية في الشرق العربي تبدو مضطربة متقطعة ، وليست حلقات في سلسلة واحدة يحكمها منهج واحد كما كان الحال في الهند .

ولماذا أسوق الأسباب ! ..

يكفي أن نذكر أنه لايوجد بين هؤلاء الزعماء زعيم واحد ألف كتابا واحدا في مسألة من مسائل التاريخ أو التوجيه أو الثقافة من أي نوع . ولا يوجد بينهم من كانت له خطب لها أكثر من قيمتها الوقتية العابرة ، حتى تستحق أن تجمع في كتاب ، يقرأه بدل الجيل أجيال !

أما نهرو ، فان عدد السنوات التي قضاها في السجن لايعادلها الا عدد الكتب التي ألفها .

والقارىء لهذه الكتب يلاحظ أن نهرو لم يحبس نفسه في ثقافة الهند وحضارتها ، وفي دراسة تكوينها الاجتماعي وتطورها الوطني فحسب ، بل أنه قد درس العالم كله ، وتاريخه كله . فعرف العوامل التي توجه السياسة العالمية ، وأحاط بأدق مشاكل المجتمعات الحديثة الأكثر تقدما من مجتمع الهند ، فاستطاع أن يعرف ماذا تحتاجه الهند بالضبط . ولما استقلت الهند ، وأصبح هو رئيس أول وزارة فيها ، لم يكن جاهلا ولا ساذجا ، بل كان يعرف مقدما كيف يحتفظ في هذا العالم برأسه ، وأين يضع قدميه .

وقد وصفه الذين رأوه بأنه هادىء جدا ، وديع جدا ، يتكلم في صوت خافت ، ويمشي وكأنه يسير على أطراف قدميه .. فلا يصدق من يراه أنه أشعل الثورات ، وقاد الملايين .

وأسلوب نهرو في الكتابة يتفق مع مظهره الهادىء الوادع . فكتابته خالية تماما من الانفعالات والكلمات الرنانة ذات الوقع

المثير • وهى لاتشبه فى شىء البحر الصاخب العـــالى الموج ، ولكنها كالماء الهادىء الرقراق ، تستطيع أن تسبح مع أفكاره ، وانت محتفظ بهدوء أعصابك وصفاء ذهنك بحيث تســـتطيع أن تستوعب الحقائق الموضـــوعية التى يعرض لها •• كاملة ! حتى الصفحات التى كتبها فى أعنف ساعات الصراع ، وعندما كانت فى انجلترا تصب عليه وعلى مواطنيه الثائرين أشدأنواع الارهاب ، نجد أسلوبه على نفس الهدوء الواثق والصفاء • فلا يوجه الى الدولة التى ترتكب أبشع الجرائم كلمة عنيفة واحدة • ولا يصفها بالاجرام أو الكذب أو التزوير ، بل يستعمل عبارات أدبية عالية فى وصف هذه المعانى • •

فى كتابه عن تاريخ حياته ، الذى أخرجه سنة ١٩٣٦ ، نراه يتحدث عن ايمان انجلترا بالديمقراطيـة فى بلادها دون بلاد المستعمرات فيقول ساخرا : « انها ترى ان الديمقراطيـة نوع من الفراء الفاخر لايلبسه سكان المناطق الحارة ! »

وفى موضع آخر من نفس الكتاب يريد أن يقول أن وعود انجلترا التى بذلتها للهند كاذبة ، فيـكتب : « ان الـكلمات الانجليزية يتغير معناها بمجرد عبورها قناة السويس ! »

بهذا الاسلوب الهادىء الرفيع ، الموضـوعى تماما ، يكتب نهرو عن مستعمرى بلاده ، فى سنة ١٩٣٦ ، احدى السنوات الدامية فى تاريخ الهند ••

والغريب أن نهرو يخطب فى الملايين بنفس الأســلوب • ويقتحم مناقشات مجلس النواب الهندى ويرد على الحملاتالتى توجه اليه فيه أيضا بنفس الأسلوب ، وليس أمتع من أن يقرأ المرء بعض المناقشات الهامة فى مجلس النواب الهندى • ويرى كيف يستقبل نهرو النقد ويناقشه ويعترف به أو يرد عليه • وكيف يحيل المعانى الصعبةالمعقدة الى كلام واضحبسيط يفهمه ـ لا النائب وحده ـ بل الناخب العادى أيضا ••

كنت أقرأ جلسة ناقش فيها البرلمان الهندى سياسة وزارة الخارجية ، وشن كثير من النواب حملات عنيفة على نهرو بوصفه وزيرا للخارجية ، هاجموا فيهاسياسةالحياد ، ورفضالمساعدات العسكرية الأجنبية ، ورفض الاشتراك فى الأحلاف أيا كانت ووقف نهرو يرد على هذه الحملات فبدأ كلمته قائلا :

« سيدى الرئيس . لقـــد استمعت باهتمـــام الى مختلف الاقتراحات والانتقادات التى وجهت . وانى لاأعتقد أننى لو لم أكن أتكلم من مكانى هذا كرئيس للحكومة ، لكانت قائمة الانتقادات التى أوجهها أطول وأعنف . ولهذا فأننى أشـــكر حضرات الأعضاء المحترمين على الطريقة المهذبة التى تحدثوا بها عن أعمال وزارة الخارجية » ..

وبعد أن كسر بهذه الكلمات القليلة حدة الحملة ، بدأ يشرح سياسته الخارجية فى أسلوب يشعر من يقرؤه أنه لايقرأ خطبة برلمانية عامة ، بل يطالع صورة من التفكير الموضوعى الهادىء المرتب ..

وهذا السلوك ينم عن ديمقراطية متأصلة فى نفس نهرو .

والواقع أن الديمقراطية السياسية والاقتصادية هما حجر الزاوية فى تفكيره كله . وهما فى الوقت نفسه حجر الزاوية فى بناء قوته ونفوذه العالمى أيضا . ذلك أن جميـــع الدول بلا استثناء ، تعرف أنه الزعيم الفعلى للهند بغير منازع ، وأن كلمته تمثل ـ حقا وصدقا ـ كلمة ٣٥٠ مليون فرد ، وان هذا التأييد المطلق من الشعب لا يتهـــدده أى خطر ، يمـــكن التنبؤ به على الأقل ..

وقد تحدثت احدى شقيقات نهرو منذ بضعة أسابيع فقالت انها تخشى أن يصبح أخوها دكتاتورا من حيث لا يشعر ومن حيث لا يريد « ذلك أن الرجال الذين يتميزون بالـــكفاءة الضخمة مثـــل نهرو ، كثـــيرا مايـــكونون خطرا على النـــظام الديمقراطى ». فهذه الكفاءة الضخمة تغرى صاحبها أحيـــانا بالانفراد فى اتخاذ القرارات وعدم تقدير النقد ، والثقة المطلقة بالنفس .. خصوصا اذا أضيف اليها ثقة مطلقة من الناس ، كالتى يتمتع بها نهرو » ..

على أن كل الظواهر تؤكد أن مخاوف هذه الأخت الذكيـــة لامبرر لها ..

فنحن هنا ، اذ نرى نهرو عن بعد ، نظن أنه فى بلاده فوق مستوى النقد . وهو امر غير صحيح . فالمطلع على الصحف الهندية والسياسة الهندية ، يعرف أن هناك جمـــاعات كثيرة توجه اليه والى أسرته أعنف الاتهـــامات ، وتدمغه أحيـــانا

حتى بالخيانة ..

وبالرغم من ذلك ، فان هذه الحملات كلها لم تدفعه الى التفكير فى الحجر على حرية الرأى بأى صورة من الصور .

ونهرو يقول كلما بالغ أحـــد فى تقريظه .. « لسنا نريد قياصرة ! »

وبعد ...

فان هذا الكتاب الذى أترجمه عن نهرو عنوانه الأصـلى « لمحات من تاريخ العالم » . وهو يصل - فى حجمه الأصلى أيضا - الى ما يقرب من ألف صفحة من القطع الكبير ، كتبه نهرو وهو فى السجن فى صورة رسائل كان يبعث بها الى ابنته الصغيرة انديرا ..

وقد تحدث نهرو فى الكتاب عن تاريخ العالم كله ، منـــذ فجر المجتمع الانسانى . ولم يتحدث عن تاريخ حضارة معينة أو بلد معين ، بل نراه يتحدث فى دقة ودراية عن تاريـخ كل الحركات الهامة التى وقعت فوق هذه الكرة . فهو فى الواقع تاريخ للعالم كله ، وليس مجرد لمحات ..

وقد اخترت من فصوله ، التى تبلغ ١٩٦ فصلا ، هـــذه الفصول التى لا تزيد على العشرين الا قليـلا ، مراعيـا فى اختيارها أن تكون متصلة بالأحداث الكبرى التى ساهمت فى تكوين هذا المجتمع العالمى الذى نعيش فيه ، قريبة من الظروف التى نعاصرها ، وأن تتكون منها سلسلة متصلة بقدر الامكان .

ولا أعتقد أنى فى حاجة الى أن أشرح فى هـــذه المقدمة فلسفة نهرو ، ذلك أن هـذا الـكتاب ينطوى فى الواقع على دراسة مزدوجة :

فهو دراسة للمراحل الهامة التى يتعرض لها ..

وهو دراسة لتفكير نهرو وفلسفته فى النظر الى الحوادث والأشياء ..

ولست أرجو الا أن تتيـــح الظروف لغيرى من المتفرغـين للترجمة أن ينقلوا هذا الكتاب الضخم كاملا الى اللغة العربية فانه خير من كثير مما يطالع قراء العربية من كتب التاريخ !! .

« احمد بهاء الدين »



هدية عيد الميلاد

الى أنديرا .. من السجن المركزى فى نايني ..
٢٦ أكتوبر ١٩٣٠ ..

فى عيد ميلادك ، تعودت أن تتلقى منى الهدايا والتمنيات الطيبة .. أما التمنيات الطيبة فهى لك كالعادة ، ولكن أى هدية أستطيع أن أرسلها اليك من سجن نايني ؟ .. أن التى أستطيع أن أبعث بها اليك من هنا لا يمكن أن تكون أشياء لا تستطيع حتى جدران السجن أن تمنعها ..

وأنت تعرفين ياحبيبتى كيف أكره التكلف والادلاء بالنصائح فانى كلما هممت أن أصنع شيئا من ذلك ذكرت قصة «رجل حكيم جدا» .. قرأتها مرة ..

فمنذ الف وثلاثمائة سنة وصل الى الهند رحالة عظيم ـ آت من الصين ، باحثا عن المعرفة والحكمة ، كان اسمه « هيون تسانج » وقد عبر صحارى الشمال وجباله مقتحما فى بسالة أخطارا كثيرة ، مواجها ومتغلبا على عقبات كثيرة ، بقدر ماكان تعطشه الى المعرفة كان هائلا ..

وقد انفق في الهند سنوات كثيرة مثقفا نفسه ومعلما غيره ، خصوصا في جامعة نالاندا العظيمة التي كانت موجودة حينئذ بجوار المدينة التي كانت تسمى باتا ليبوترا وتعرف الآن باسم « باتنا » ونال هيون تسانج من الثقافة حظا عظيما وأصبح يسمى « أستاذ القانون » قانون بوذا ، وقد جاب الهند كلها ورأى ودرس الناس الذين كانوا يسكنون في هذه البلد العظيمة ، ثم ألف كتابا عن مشاهداته روى فيه هذه القصة التي تقفز الى خاطرى كثيرا .. انها تدور حول رجل من جنوب الهند جاء الى « كارنا سوفارنا » التي كانت مدينة تقع بالقرب من بيهار ، وكان هذا رجل كما تقول القصة يلبس حول وسطه حزاما من النحاس ، ويحمل على رأسه مشعلا مضيئا .. وبعكاز في يده ، ورأس مرفوع وخطوات فخورة ، كان يتجول في هذه الهيئة الغريبة ، فاذا سأله أحد عن سبب ظهوره في هذا المنظر الغريب ،قال أن عقله عظيم لدرجة أنه يخشى أن تنفجر بطنه لو لم يلبس هذا الحزام النحاس حولها ، ولأنه يمضي مدفوعا بحبه للقوم الجاهلين الذين يعيشون في الظلام . فقد حمل على رأسه مشعلا مضيئا .

على أنني متأكد تماما من أنه لاخطر مطلقا من أن تنفجر بطني من فرط المعرفة ، وعلى ذلك فلا داعي لأن ألبس حزاما من النحاس ، كما أنني أرجو أن لاتكون حكمتي مهما كان شأنها في بطني وأيا كان مكانها فان هناك دائما مكانا واسعا للمزيد منها، ولايوجد أي احتمال لأن استغنى عن هذا المزيد ، وان كنت محدود الحكمة الى هذا الحد فكيف أقف كالرجل الحكيم وأوزع مواعظي على الآخرين ؟ ..

وقد كنت أعتقد دائما أن خير سبيل لمعرفة الخطأ من الصواب لتتبين مايجب أن نصنع مما لايجب ، ليس في التكلف والتظاهر ولكنه في الحديث والمناقشة فمن خلال المناقشة نصل أحيانا الى جانب صغير من الحقيقة . لقد كنت أحب أحاديثي معك . وكم ناقشنا سويا مسائل كثيرة ، ولكن العالم واسع ، وخارج عالمنا توجد عوالم أخرى غريبة ورائعة ،ومن أجل ذلك فاننا لانتوهم كما توهم ذلك الرجل الأحمق المعجب بنفسه ..

اننا قد عرفنا كل ما يستحق المعرفة وأصبحنا حكماء ..

ذلك أن الحكيم اذا وجد حقيق بأن يحزن أحيانا . لأنه لم يعد هناك مزيد يمكن أن يتعلمه ... أنه خليق بأن يفتقد فرحة الاكتشاف وادراك أشياء جديدة - وهي مغامرة - يجب أن نبحث كلنا عنها .

على اذا أن لا أتكلف .. ولكن ماذا أصنع اذا ؟ ان الخطاب يمكن أن يغني ولو قليلا عن الحديث . انه على الأقل عمل من جانب واحد وعلى ذلك فاذا حدث وقلت شيئا يشبه الموعظة الحسنة فلا تأخذيها على أنها جرعة كريهة يجب ابتلاعها ، بل خذيها على أنني أقترح عليك شيئا لتفكرى فيه .

كثيرا ماقرأنا فى التاريخ عن فترات عظيمة فى حياة الأمم ، عن رجال عظماء ونساء عظيمات وأعمال عظيمة وكثيراماتصورنا فى أحلامنا وأمانينا أننا قد عدنا الى تلك الأيام ، وأننا نصنع أعمالا باسلة كالأبطال والبطلات القديمات .. هل تذكرين كم كنت مفتونة وانت تقرئين لأول مرة قصة جان دارك ، وكيف كان أملك أن تصبحى مثلها ؟ .. ان الرجال والنساء العاديين ليسوا فى الغالب أبطالا .. انهم يفكرون فى خبزهم اليومى فحسب ، فى أطفالهم ومشاكل بيوتهم وما الى ذلك . ولكن هناك فترات يؤمن الشعب كله فيها بهدف عظيم وحينذاك يصبح حتى الرجال والنساء العاديون أبطالا . ويصبح التاريخ حافلا لامعا .. والزعماء العظام عادة ينطوون على شيء يلهم الناس ويجعلهم يقدمون على الأفعال المجيدة ..

وقد كانت السنة التي ولدت فيها أنت سنة ١٩١٧ من سنوات التاريخ المشهودة ، وفيها حظيت الهند بزعيم عظيم ملىء بالحب لكل الذين يقاسون ، وبالرغبة فى مساعدتهم .. زعيم ألهم شعبنا الاقدام على مغامرات عظيمة وتضحيات نبيلة ، حتى يعود كما كان حرا ، وحتى يلقى الجوعى والفقراء والمظلومون ماتنوء به ظهورهم من أثقال .

ان غاندى الآن فى السجن ولكن سحر رسالته يسرى فى قلوب ملايين الهنود الرجال والنساء ، بل الأطفال يخرجون من أكواخهم ويجعلون من أنفسهم جنود الحرية فى الهند ، اننا فى الهند اليوم نصنع التاريخ ، وانت وأنا سعداء اذ نرى هذا يحدث أمامنا ، واذ نشارك فى هذه الدراما المجيدة ..

ترى أي عبء سنحمل في هذه الحركة المجيدة؟ أي دور سنلعبه؟ انني لا أستطيع أن أقرر دورا سيقع من نصيبنا ، ولكن أيا كان هذا الدور ، فلنذكر اننا لن نصنع شيئا يبعث الشك في هدفنا أو يجلب العار على مواطنينا ، فاذا كنا جنود الهند حقا فان شرف الهند في حراستنا ، وهو شرف مقدس ٠٠ ومع ذلك فسوف نشك كثيرا فيما يجب علينا أن نصنعه ، فانه ليس من السهل أن نقرر أين الخطأ من الصواب · ولكني سأقترح عليك طريقة تلجئين اليها كلما خامرك الشك · طريقة قد تساعدك لاتصنعي أي شيء في الخفاء ، أو أي شيء تتمنين لو ظل خافيا· فرغبتك في اخفاء أي شيء معناها انك خائفة ، والخوف شيء ردىء وغير جدير بك ، كوني شجاعة ، وليكن بعد ذلك مايكون· فاذا كنت شجاعة فانك لن تخافي قط ولن تصنعي أي شيء يمكن أن تخجلي منه وأنت تعرفين أنه في حركتنا التحريرية ، تحت زعامة غاندى ، لامحل هناك للسرية والاختفاء ·

انه ليس لدينا مانخفيه · اننا لانخاف مما نصنع أو مما نقول اننا نعمل في النور تحت الشمس وحتى في حياتنا الخاصة لنكن أصدقاء للشمس ولنعمل في النور ، لنبتعد دائما عن الظلام ·

لقد كتبت لك خطابا طويلا · ومع ذلك فمازال لدى الكثير لأقوله لك ، ولكن كيف يمكن أن يضمه خطاب واحد ؟ ٠٠

أنت محظوظة ، كما قلت ، لأنك تشهدين هذا الصراع المجيد من أجل الحرية الذى يجرى في بلدنا · وانت محظوظة أيضا لأن لك هذه الأم الباسلة الصغيرة ، فلو داهمك الشك مرة أو الاضطراب فلن تجدى خيرا منها صديقا ·

وداعا ياصغيرتى ، ولتصبحى مع الأيام جندية باسلة في خدمة الهند ·

مع كل حبى ، وتمنياتى الطيبة ·

●●●



عبرة التاريخ

٥ يناير ١٩٣١ ..

ماذا أكتب لك ياعزيزتي ؟ .. ومن أين أبدأ ؟ انني لا أكاد أفكر في الماضي حتى يتزاحم في رأسي عديد هائل من الصور ، ولا أملك نفسي من المقارنة بين هذه الأحداث الغابرة ، وبين مايحدث اليوم ، محاولا أن أجد فيها عبرة ترشدني ..

وأظن أنني كتبت اليك مرة أقول أن دراسة التاريخ يجب أن تعلمنا كيف أن العالم تطور ببطء ، ولكن بلا توقف . كيف ان الحيوانات الأولى البسيطة أخلت مكانها لحيوانات أخرى أكثر تعقيدا وتقدما . وكيف جاء أخيرا الحيوان السيد ـ الانسان ـ فانتصر بقوة ذكائه على الآخرين . ان تطور الانســـان من الهمجية الى الحضارة هو موضوع التاريخ .

وقد حاولت في بعض خطاباتي أن أوضح لك كيف ان فكرة التعاون والعمل المشترك قد تقدمت وكيف ان مثلنا الأعلى يجب أن يكون : العمل المشترك للخير العام ..

ومع ذلك .. فانه يحدث أحيانا أن ننظر الى فترات معينة

من التاريخ ، فلا نكاد نصدق أن هذا المثل الأعلى قد تقدم فيها كثيرا ، أو اننا قد قطعنا شوطا فى الحضارة بعيدا . فنحن اليوم مثلا فى أشد الحاجة الى التعاون .. ومع ذلك فقد نرى دولة تهاجم دولة أخرى وتضطهدها فى أنانية ، أو انسانا يستغل انسانا آخر ، فنسأل أنفسنا : اذا كنا بعد ملايين السنين من التطور ما نزال متخلفين ، ضالين الى هذا الحد، فكم ترى يلزمنا من الزمن حتى نتعلم كيف نتصرف كأناس عاقلين ، ذوى ضمائر ؟ اننا كثيرا مانقرأ عن فترات غابرة من التاريخ فتبدو لنا خيرا من زمننا هذا ، وأكثر ثقافة وتحضرا ، مما يجعلنا نشك فى أن عالمنا ماض حقا الى الأمام ، لا الى الوراء ..

نعم لقد مرت ببعض البلاد عصور لامعة . مصر . الهند ، الصين ، اليونان ، وغيرها ، وأغلب هذه البلاد قد انتكست وعادت الى الوراء .. ولكن حتى هذا لا يجب أن يفقدنا الأمل . فالعالم كبير . وارتفاع أمة ما أو انهيارها لفترة محدودة من الزمن لاينفى تطور العالم كمجموع ..

وكثير من المعاصرين يتباهون بحضارة هذا العصر وبماحققه العلم الحديث من معجزات .. والعلم الحديث قد صنع المعجزات حقا .. ورجال العلم خليقون فعلا بكل تقدير .. ولكن هؤلاء المتفاخرين قلما يكونون عظماء .. وانه يجدر بنا أن نذكر أن الانسان من بعض النواحى لم يتقدم كثيرا عن الحيوانات .. بل من المؤكد أن من الحيوانات ماتتفوق على الانسان من بعض الوجوه .

وقد يبدو هذا القول سخيفا والذين لم تتسع معلوماتهم قد يسخرون منه .. ولكن يكفى أن تقرئى ما كتبه « ميترلنك » عن حياة النمل ، والنمل الأبيض وسوف تعجبين للنظام الاجتماعى الدقيق لهذه الحشرات .. اننا نعتبر الحشرات أدنى أنواع الكائنات الحية .. ومع ذلك فان هذه الاحياء التافهة قد تعلمت من التعاون والتضحية فى سبيل الخير العام ، أكثر مما فعل الانسان . اننى منذ قرأت عن حياة النمل الأبيض وتضحية النملة فى سبيل رفاقها وأنا احتفظ له فى قلبى بمكان عزيز ، فاذا كان التعاون وايثار مصلحة المجموع هما معيار الحضارة فيجب أن نعترف بأن النمل الأبيض من هذه الناحية أرقى من

البشر ..

فى بعض كتبنا السنسكريتية القديمة ، نجد شعرا يمكن ترجمته كالآتى : ـ

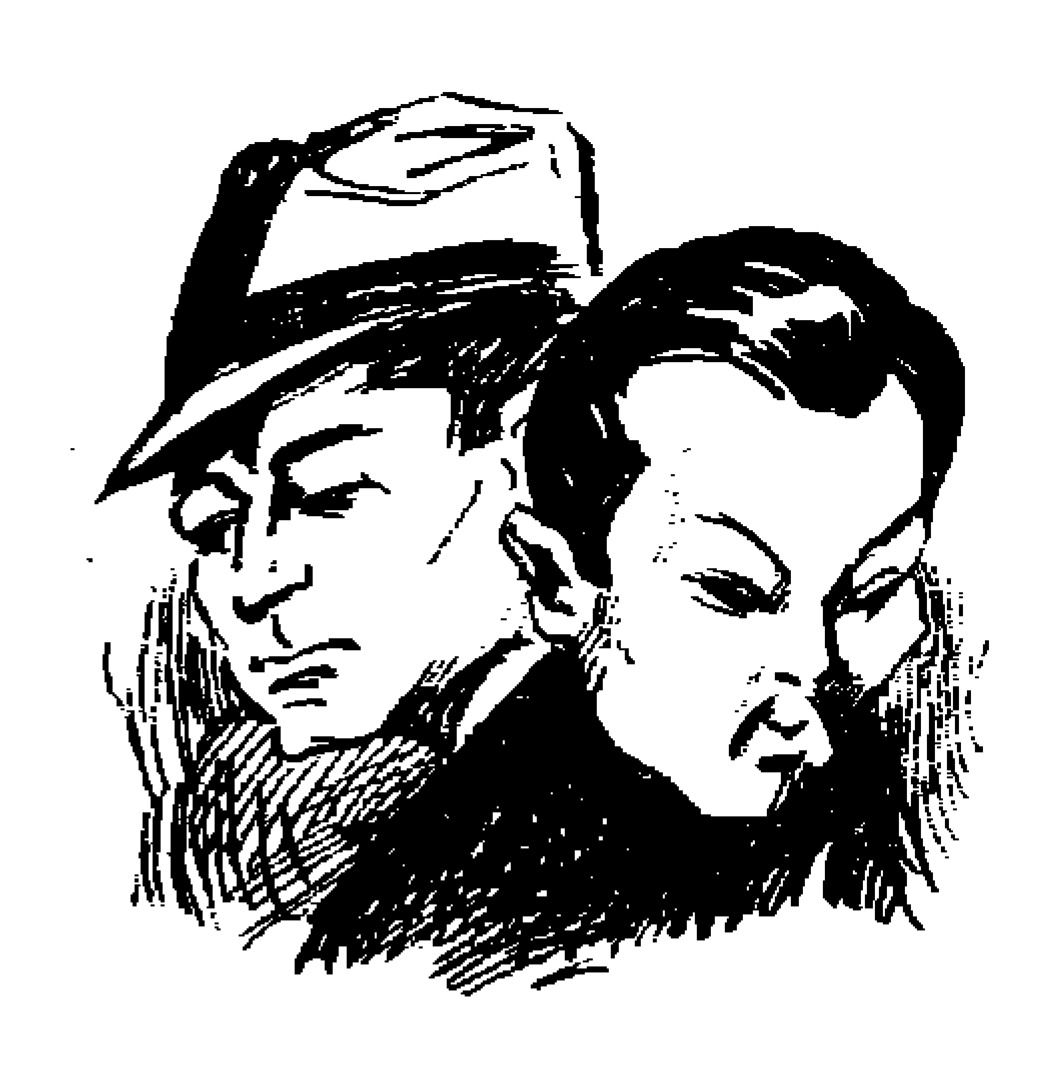
« من أجل الأسرة يضحى بالفرد .. ومن أجل الجماعة يضحى بالأسرة، ومن أجل الوطن يضحى بالجماعة ، ومن أجل الروح يضحى بالعالم كله .. » وقليل من يستطيع أن يفسر ماهى الروح ، وربما فسرها كل واحد على نحو مختلف ، ولكن هذا الشعر السنسكريتى يلقننا نفس الدرس فى التعاون والتضحية من أجل الخير العام .

ولقد نسينا فى وطننا هذا الدرس زمنا طويلا . ونسينا أن هذا هو طريق العظمة الحقيقية . ومن أجل ذلك سقطنا ، ولكننا بدأنا نعود بالتدريج الى هذا السبيل .. ما أروع أن نرى الرجال والنساء ، والأولاد والبنات يضحون باسمين من أجل الوطن . غير عابئين بأى شدة أو عذاب ..

اننا نحاول اليوم أن نحرر وطننا ، وهذا عمل عظيم .. ولكن أعظم من ذلك أن نعمل لتحرير الانسانية كلها . ولأن صراعنا جزء من الصراع الانسانى العظيم لانهاء التعاسة والشقاء فاننا نستطيع أن نقول أننا بصراعنا الوطنى نقوم بدورنا فى العمل على تقدم العالم ..

انت الآن تجلسين فى أناند بادان .. وأمك فى سجن ملكا ، وأنا هنا فى سجن ناينى .. وكثيرا مايفتقد كل منا صاحبه ، وبشدة ، أليس كذلك ؟ .. ولكن فكرى فى اليوم الذى سوف نلتقى فيه من جديد ، انني أترقب هذا اليوم ، وان تفكيرى فيه ليضىء قلبى وينعشه ..

●●●



آسيا وأوروبا

٨ يناير ١٩٣١ ..

قلت لك في خطاب سابق أن كل شيء يتغير ، وباستمرار ، وأن التاريخ ليس الا سجلا للتعبير ..

والتاريخ الذي نتعلمه في المدارس والكليات لايعد شيئا ، أنا شخصيا لم أتعلم من المدرسة الا القليل . لقد تعلمت شيئا قليلا ، قليلا جدا عن تاريخ الهند ، وعن تاريخ انجلترا ، حتى تاريخ الهند الذي نتعلمه كان بعيدا عن الحقيقة ، كتبه قوم ينظرون الى بلدنا من أعلى . أما عن تاريخ سائر الشعوب فلم أتعلم شيئا ، ولم أقرأ التاريخ الحقيقي الا بعد أن تركت الكلية . ومن حسن الحظ ، ان زياراتي للسجن أتاحت لي فرصة استكمال ثقافتي ..

لقد كتبت لك في بعض خطاباتي السابقة عن الحضارة القديمة في الهند ، وعن قدوم الآريين ، ولم أكتب لك شيئا عما قبل ذلك لأنني لا أعرف كثيرا عنه . ولكنه قد يسرك أن تعرفي أنه في السنوات القليلة الأخيرة ، تم اكتشاف بعض آثار

الحضارة القديمة في الهند هناك في الشمال الغربي بالقرب من مكان اسمه «موهن جوردارو » . لقدحفر بعض الناس هناك وعثروا على آثار ربما رجعت الى خمسة آلاف سنة مضت ، واكتشفوا موميات تشبه موميات المصريين القدماء تصورى كان ذلك منذ آلاف السنين حين كانت أوربا ماتزال أرضا بدائية موحشة . وأوربا اليوم قوية وشعوبها تعتبر نفسها أرقى شعوب الأرض ثقافة وتحضرا ، وهمينظرون الى آسياوشعوبها من عل ويحضرون ويأخذون منها كل ما يمكنهم الحصول عليه .

حقا ، لكم تغير الزمن .. تعالى نلقى نظرة على أوروبا وآسيا .. افتحى أى أطلس وتأملى أوروبا الصغيرة ملتصقة بالقارة الآسيوية الهائلة .. انها تبدو كما لو كانت امتدادا ضئيلا لها .. وحين تقرئين التاريخ ستجدين أن آسيا كانت المسيطرة مدى عصور طويلة من التاريخ ، وكان أهلها يذهبون أفواجا لغزو أوروبا ، ينهبونها أو ينشرون الحضارة فيها ... الآريون والمهول والعرب والمغول والأتراك ، كل هؤلاء جاءوا من أماكن متفرقة في آسيا وانتشروا في أوروبا ، كانت آسيا تنتجهم في اعداد هائلة كالجراد ، وظلت أوروبا زمنا طويلا وكأنها مستعمرة لآسيا ، وكثيرون جدا من أبناء أوروبا الآن انحدروا من سلالات الغزاه الآسيويين .

آسيا تستلقى على الخريطة كالعملاق الضخم ، في حين تبدو أوروبا صغيرة .. ولكن هذا لا يعنى أن آسيا أعظم الآن من أوروبا ، أوأنأوروبا غير جديرةبالاهتمام فالحجم هوأحقرمقياس لعظمة الرجال ، أو البلاد . فنحن نعرف جيدا أن أوروبا على أنها أصغر القارات الا أنها أقواها كما نعرف أن كثيرا من بلادها مرت بعصور باهرة من التاريخ وانها أخرجت العلماء العظام الذين استطاعوا باستكشافاتهم ومخترعاتهم أن يدفعوا الحضارة الى الأمام ، وأن يجعلوا الحياة أسعد لملايين من الرجال والنساء وأنها أخرجت العظماء من الكتاب والمفكرين والفنانين والموسيقيين .. أنه من الحماقة أن لانعترف بعظمة أوروبا ..

ولكنه من الحماقة أيضا أن تنسى عظمة آسيا .. فمن الخطأ أن يبهرنا بريق أوروبا وينسينا الماضي . فلنذكر انها آسيا

التى أخرجت قادة الفكر الذين أثروا فى العالم أكثر من أى شىء آخر ، ألا وهم أنبياء الأديان الكبرى .. فالهندوسية أقدم دين على وجه الأرض ، خرجت من الهند .. وكذلك البوذية التى تنتشر فى الصين واليابان وبورما والتبت وسيلان ـ واليهودية والمسيحية خرجتا من فلسطين على ساحل آسيا الغربى .. كما أن الدين الاسلامى ولد فى مكة فى بلاد العرب

حقا لقد تغير الزمن ولكنه يتغير الآن مرة أخرى أمام أعيننا . فالتاريخ يتحرك بطيئا خلال القرون ولكنه فى بعض السنين يسرع ويلهث . واليوم نرى التاريخ يتحرك بسرعة فى آسيا . فالقارة القديمة تستيقظ من سباتها الطويل . وعيون العالم كله مفتوحة عليها الآن، ذلك أن الناس جميعا يعرفون أن آسيا سوف تلعب فى المستقبل دورا خطيرا .

●●●



أين يذهب الثراء؟

١٨ يناير ١٩٣١ ..

أوضحت لك مرة كيف تنمو طبقات من الناس ، كلما تقدم الانسان . فالانسان البدائى كان يعيش عيشة صعبة ، حتى فى مجرد العثور على الطعام . كان يصطاد ويجمع البندق والفواكه يوما بيوم ، وينتقل من مكان الى مكان بحثا وراء الطعام وشيئا فشيئا تكونت القبائل وكانت فى الوقائع عبارة عن عائلات كبيرة تعيش سويا وتصطاد سويا .. ثم حدث تغير خطير .. ذلك هو اكتشاف الزراعة ..

فقد وجد الناس أن استنبات الطعام من الأرض عن طريق الزراعة أسهل من الصيد طول الوقت . ثم أن الحرث والبذر والحصد تستدعى المكوث فى الأرض ، فهم لا يستطيعون بعد أن يتنقلوا كما تعودوا من قبل ، بل أصبح عليهم أن يبقوا بالقرب من حقولهم . وهكذا نمت القرى والمدن .

كذلك أدت الزراعة الى تغييرات أخرى ، فالطعام الذى تنتجه الأرض أصبح أكثر من حاجة الاستهلاك . وبدأ هذا الفائض

يخزن . فاصبحت الحياة أكثر تعقيدا مما كانت أيام الصيد الخالية .. وبدأت طبقات معينة من الناس تقوم بالعمل اليدوى فى الحقول وطبقات أخرى تقوم بالتنظيم والاشراف . وشيئافشيئا أصبح المنظمون والمشرفون أكثر قوة ، ثم أصبح منهم الحكام والملوك والنبلاء .. ثم بدأ هؤلاء يستغلون قوتهم ليحتفظوا لأنفسهم بجانب كبير من فائض الطعام الذى كانت تنتجه الأرض .

وهكذا أخذوا يزدادون ثراء ، بينما ظل الذين يعملون فى الأرض بأيديهم يتحصلون بالكد على الطعام الذى يسد رمقهم ..

ثم جاء الوقت الذى أصبح فيه هؤلاء المنظمون أكسل وأجهل عن أن يقوموا حتى بعملية التنظيم . صاروا لايصنعون شيئا ، ولكنهم يحصلون على نصيب الأسد من الطعام الذى ينتجه الفلاحون وبدأوا يعتقدون أن لهم الحق فى أن يعيشوا بهذه الطريقة ، من عمل الآخرين دون أن يصنعوا شيئا بأنفسهم .

أنت ترين اذا أن ظهور الزراعة قد غير الحياة كثيرا . كذلك فان تحسن وسائل الزراعة وسهولة الحصول على الطعام غيرت أساس المجتمع كله .. لقد منحت الناس الفراغ وصاروا طبقات مختلفة . ولم يعد كل فرد مشغولا بانتاج الطعام ، فاستطاع بعض الناس أن ينصرفوا الى أعمال أخرى .. فنمت أنواع مختلفة من الحرف . وان ظلت القوة فى طبقة المنظمين .

وسوف تعرفين فيما بعد مدى التغييرات التى خلقتها الطرق المستحدثة فى انتاج الأغذية وسائر الضروريات . لقد بدأ الانسان يطلب أشياء أخرى كما يطلب الطعام ، وكان كل تغيير فى وسائل الانتاج يؤدى الى تغير فى شكل المجتمع . ولأضرب لك مثلا باستخدام البخار فى ادارة المصانع وتسيير السكك الحديدية والسفن . لقد أصبحت المصانع التي تدار بالبخار تنتج السلع بأسرع جدا مما يفعل الصناع وأصحاب الحرف بأيديهم ، أو بأدواتهم البسيطة . لقد كانت الآلة الكبيرة أداة هائلة حقا ثم ان السكك الحديدية والبواخر ساعدت على نقل الطعام ومنتجات المصانع بسرعة الى بلاد بعيدة .. ولك أن تتصورى أن تغيرا عظيما شمل العالم ..

ان التاريخ حافل باكتشاف الوسائل الجديدة والسريعة لانتاج الطعام وسائر الحاجات ·ولعلك ستقولين : ان استخدام الوسائل الحديثة كان كفيلا بأن يضاعف الانتاج وان يجعل العالم أكثر ثراء وان يتيح لكل فرد الحصول على مايريد ، وهذا صحيح من ناحية وخطأ من ناحية أخرى · فتحسين وسائل الانتاج قد زاد بغير شك في ثروة العالم · ولكن أى جزء من هذا العالم ؟ اننا نرى بوضوح أن الفقر والبؤس مازالا منتشرين في بلادنا ، بل في بلاد غنيــــة قوية كانجلترا نفســها فلماذا ؟ وأين تذهب الثروة ؟

أنه لغريب حقا تتضاعف الثروة المنتجة ثم يبقى الفقراء فقراء · لقد حقق الانسان تقدما هائلا في بلاد معينة · ولكنه تقدم ضئيل جدا اذا قورن بازدياد الثروة ·· ومن السهل أن نرى لمن تذهب هذه الثروات المتزايدة ·· انها تذهب الى هؤلاء الذين تعودوا بوصفهم المنظمين ـ أن يحصلوا على نصيب الأسد من كل شيء · وأنه لمن الغريب حقا أن نرى طبقات كاملة من المجتمع تتكون من قوم لا يحاولون القيام بأى عمل ، وهم يحصلون على نصيب الأسد من عمل الآخرين · بل ان هــذه الطبقات بالذات ـ وصدقيني! ـ تظفر بالتكريم! ومن الحمقى من يعتقدون أنه من الخطة للانسان أن يكسب رزقه من عمل يده ·

تلك هي حال عالمنا العجيب · أليس غريبا أن يكون الفلاح في حقله والعامل في مصنعه فقراء ، مع أنهم هم الذين ينتجون للعالم الطعام والثراء ؟ اننا نطلب الحرية لبلادنا ، ولكن ماذا تساوى هذه الحرية اذا لم نضع حدا لهذا الوضع المقلوب ونعطي الرجل الذى يعمل ثمار عمله ؟ لقد ظهرت كتب كثيرة ضخمة عن السياسة وفن الحكم ، عن الاقتصاد وكيف يجب أن توزع الثروة القومية ، والأساتذة والعلماء يحاضرون كثيرا في هــذه الموضوعات ، ولكن بينما الناس يتحدثون ويتناقشون ، يقاسي أولئك الذين يعملون ·

وبعد ·· فقد مضى الانسان القديم يتقدم ويتغلب تدريجيا على الطبيعة ، فلح الأرض وأزال الغابات وأقام البيوت والمفروض أن الانسان قد قهر الطبيعة الى حد ما ـ والناس يتحدثون عن انتصارهم على الطبيعة ، ولكن هذا قول مرسل وليس صحيحا

بحذافيره . والأصح أن نقول أن الانسان قد بدأ يفهم الطبيعة وكلما زاد فهمه لها كلما زادت قدرته على أن يتعاون معها وأن يفيد منها ..

فقديما كان الانسان يخاف الطبيعة وظواهرها ، وبدل أن يحاول فهمها كان يقدسها ويقدم لها القرابين . كما لو كانت الطبيعة وحشا كاسرا يجب تهدئته وتملقه . كان الرعد والبرق والأمراض الوبائية تخيفهم . وكانوا يحسبون أنه يمكن اتقاء غضبها بالعطايا ، كانوا يعتقدون أن كسوف الشمس أو خسوف القمر مثلا مصيبة رهيبة ، وبدلا من أن يحاولوا فهم الظواهر الطبيعية نراهم ينحرون الذبائح ويقيمون الولائم ويتطهرون لحماية الشمس والقمر . مع أن الشمس والقمر كفيلان بالعناية بنفسيهما . وليس لنا أن نقلق أبدا من ناحيتهما ..

لقد حدثتك عن تقدم الحضارة والثقافة . وقد رأيت كيف أن هذا التقدم بدأ حين استقر الناس في المدن والقرى . وحين زادت كميات الطعام الناتجة بحيث منحتهم مزيدا من الفراغ أتاح لهم أن يفكروا في أشياء أخرى غير الصيد والأكل .

وهكذا ظهرت الحرف . والفنون . والثقافة بوجه عام . وكلما زاد عدد السكان احتاج الناس الى أن يتقاربوا .. وأن يتعاونوا .. وأن يعقدوا الصفقات ، ولما كانوا محتاجين الى أن يعيشوا سويا ، فقد وجب عليهم أن يتجنبوا اتيان ما من شأنه أن يؤذي الزملاء أو الجيران . والا أصبحت الحياة الاجتماعية مستحيلة . فالأسرة وهي مجتمع صغير – لايمكن أن تعيش سعيدة الا اذا احترم كل فرد فيها الآخرين . ومع ذلك فكثيرا ما ننسى هذه الروابط وننسى كيف نكون عقلاء مهذبين ، ونتصرف كما لو لم نكن مثقفين ولا متحضرين .. وهذا يحدث سواء في الأسرة ، أو بين أبناء الوطن الواحد ، أو بين الأوطان المتجاورة .

ان تزايد السكان قد أدى الى تنمية الحياة الاجتماعية . مما احتاج الى مزيد من القيود ، ومزيد من مراعاة الواحد منا للآخر .. ان الحضارة أو الثقافة يصعب تعريفها ولن أحاول تعريفها ، ولكن ، لا شك أن من أهم ما تعنيه كلمة حضارة .. تلك القيود التي يفرضها الانسان على نفسه مراعاة للآخرين .

فالانسان الذى لايتحكم في نفسه ولايراعي الآخرين .. انسان غير متحضر ..



إنجلترا تقطع رأس ملكها

٢٩ أغسطس ١٩٣٢

سوف نتفق قليلا من الوقت في تاريخ انجلترا .. فقد أهملناها تماما طيلة العصور الوسطى ، اذ لم يكن لها في ذلك الوقت شأن يذكر .. كانت أكثر تأخرا من فرنسا .. ثم لم تلبث جامعة أوكسفورد أن أصبحت مركزا شهيرا للعلم ، وبعد قليل ظهرت جامعة كامبريدج ..

وأهم الأحداث في تاريخ انجلترا القديم ، يدور حول نشأة البرلمان . فمنذ عهد بعيد وجهود النبلاء تتجه الى الحد من قوة الملك ، حتى أعلنت « الماجنا كارتا » ـ أو العهد الأعظم ـ سنة ١٢١٥ وبعد ذلك بقليل نرى مقـــدمات ظهور البرلمان ، وهي كالعادة مقدمات غير ناضجة .. فمن النبلاء الكبار والأساقفة تكون مجلس اللوردات .. ولكن الأهم من ذلك ظهور مجلس منتخب يتكون من الفرسان والملاك الصغار وبعض ممثلي المدن وهذا المجلس المنتخب هو الذى أصبح مجلس العموم .. وكان كلا

المجلسين يتكون من الملاك والأغنياء .. حتى أعضاء مجلس العموم كانوا لا يمثلون الا عددا قليلا من الملاك والتجار والأغنياء فقط ..

وكان مجلس العموم ضعيفا . ثم بدأ أعضاؤه يوجهون نظر الملك الى أخطائه ، وبالتدريج بدأوا يتدخلون فى شئون الضرائب ، ولما أصبح من المتعذر على الملك أن يفرض ضريبة جديدة أو أن يجمعها بغير موافقتهم ، بدأ الملك يسعى وراء موافقتهم على كل ضريبة قبل فرضها .. والسلطة المالية سلطة خطيرة دائما . فلما أصبحت لمجلس العموم هذه السلطة زادت قوته وارتفع مستواه الى حد كبير .. وكثيرا ما كان الخلاف يثور بين الملك والبرلمان .. ولكن البرلمان كان ضعيفا الى حد ما . فظل الملوك الانجليز ملوكا مستبدين ، وأن تجنبوا لوقت طويل – أى صدام عنيف مع البرلمان ..

وقد استطاعت انجلترا أن تتجنب المنازعات الدينية الرهيبة التى عرفتها أوروبا ، حقا كان هناك كثير من الخلافات الدينيه والاضطرابات والارهاب ، وأحرق كثير من النساء وهن أحياء بدعوى أنهن ساحرات .. ولكنا لو قارنا هذا كله بما كان يحدث فى أوروبا ، وجدنا أن انجلترا كانت تعيش فى سلام ومع تولى الملك هنرى الثامن العرش كان المفروض أن تتحول انجلترا الى البروتستنتية ، وكان هناك فى انجلترا بالطبع كاثوليك ، كما كان فيها بروتستنت متطرفين ، ولكن الكنيسة الانجليزية الجديدة جاءت شيئا بين الاثنين، وقالت أنها بروتستنتية ولربما كانت أقرب الى الكاثوليك منها الى البروتستنت ، وقد كانت فى واقع الأمر « وزارة الخارجية » يرأسها الملك نفسه ، وتم الانفصال النهائى عن البابا فى روما ، وانتشر احساس عام ضد البابوية ، وفى عهد الملكة اليزابيث (ابنة هنرى الثامن) تم اكتشاف طرق جديدة للمواصلات البحرية الى الشرق والى امريكا وأغرت فرص التجارة الجديدة كثيرا من الناس . وتحت تأثير النجاح الذى حققه رجال البحر الاسبان والبرتغاليون . وأحلام الثراء الذى يمكن تحقيقه ، اتجه الانجليز الى البحر بدأ ذلك بأن ظهر السير فرانسيس دريك وغيره من القراصنة وأخذوا يسطون على سفن الاسبان الآتية من أمريكا .. ثم

غامر دريك برحلة بارعة حول العالم ٠٠ وعبر سير والتر رالى المحيط الأطلنطي ، وأنشأ هناك مقاطعة على الشاطىء الشرقى أصبحت الآن الولايات المتحدة الأمريكية ٠٠ وقد أطلق على هذه الولاية الأولى اسم فيرجينا تكريما للملكة العذراء ( ) اليزابيث ٠٠ وكان رالى أول من نقل عادة تدخين الطباق من أمريكا الى أوروبا ثم ظهرت الأرمادا الاسباني وانتصر الانجليز على هذا الأسطول الفخور ، مما شجعهم كثيرا ٠٠ ولم يكن لكل هذه الأحداث من أثر على الصراع بين الملك والبرلمان الا فى أنها صرفت اهتمام الناس هناك الى الشئون الخارجية ٠٠ وان ظل الخلاف بين الملك والبرلمان يضطرم من وراء ستار ٠٠٠

والعصر الاليزابيثى من أزهى عصــور انجلترا ٠٠ كانت اليزابيث ملكة عظيمة ، كما أن انجلترا انجبت فى ذلك العصر رجالا عظماء عملوا فى ظل ملكها ولكن أعظم من الملكة ومن فرسانها المغامرين ، كان الشعراء والمؤلفون الدراميون الذين بزغوا فى عصرها وعلى رأسهم جميعا شكسبير ، فمسرحياته الآن معروفة فى جميع أنحاء العالم بالرغم من قلة معلوماتنا عن شخصيته ٠٠ وقد صدق الناقد الانجليزى ليتون ستراتشى حين قال عن ذلك العصر أن « فرقة هذا العصر الرائعة التى استطاعت روحها القوية أن تعطى انجلترا فى جيل واحد نادر أعظم تراث من الدراما عرفه العالم » ٠٠

وماتت اليزابيث سنة ١٦٠٣ ثم خلفها ملك اسكتلندا بوصفه أول واحد فى سلسلة الوراثة ٠٠ وأصبح الملك جيمس الأول أول ملك لانجلترا وأسكتلندا بعد اتحادها ، وهكذا تم لانجلترا ببساطة ما عجزت عن تحقيقه بالقوة ٠٠ وكان جيمس الأول يؤمن بحق الملك الآلهى ويكره البرلمان ، ولم يكن فى مهــارة اليزابيث ، فلم يلبث أن ثارت المشاكل بينه وبين البرلمان ٠٠

وقد حدث فى عصره أن ترك كثيرون من البروتستنت المتشددين بلادهم على الباخرة « ماى فلاور » فى سنة ١٦٢٠ ليستوطنوا أمريكا ، معترضين بذلك على الطريقــة الأوتوقراطيــة التى سلكها جيمس الأول فى الحكم ، وعلى الكنيسة الجديدة التى رأوا أنها لم تكن بروتستنتية كما يجب ٠٠ ولذلك تركوا بلادهم ، وأبحروا الى العالم الجديد الواسع عبر الأطلنطى ٠٠

وألقوا مراسيهم على الشاطىء الشمالى فى مكان أطلقوا عليه اسم « نيوبلا يموث » ثم تبعهم مستعمرون آخرون وبالتدريج اتسعت المقاطعات حتى أصبحت ثلاث عشرة مستعمرة على طول الشاطىء ·· كانت بذرة الولايات المتحدة بعد عصور طويلة ··

ثم جاء ابن جيمس الأول ، شارل الأول ، فازدادت الأمور فى عهده توترا ، ووصل الوتر الى غايته سنة ١٦٢٥ ، قدم اليه البرلمان سنة ١٦٢٨ ·· « طلب الحقوق » وهى وثيقة بارزة فى التاريخ الانجليزى ·· وفى هذا الميثاق سجل البرلمان على الملك أنه ليس حاكما مطلقا ، وأن هناك أمورا كثيرة محرمة عليه ·· فليس من حقه أن يفرض ضريبة أو يسجن أحدا من الناس بغير حق ·· أى أنه ببساطة ليس له أن يصنع فى انجلترا ، فى القرن السابع عشر ما يصنعه الحاكم العام الانجليزى فى الهند ·· فى القرن العشرين ، اذ يصدر الأوامر ويسجن الناس بمقتضاها ··

وثار شارل غضبا من مواجهته بما له وبما ليس له ، فأمر بحل البرلمان ، وبدأ يحكم بدونه ·· وبعد سنوات اضطرته الحاجة الماسة للنقود الى أن يدعو برلمانا آخر للانعقاد · وكان السخط يتزايد على كل ما صنعه شارل بغير برلمان ، وبدأ البرلمان يستعد لقتاله ! ·· وبعد سنتين ، أى فى سنة ١٦٤٢ بدأت الحرب الأهلية ·· الملك فى جانب مؤيدا بالنبلاء ، وبجانب كبير من الجيش ، والبرلمان فى جانب مؤيدا بالتجار الأغنياء وأهالى مدينة لندن ·· واتصلت الحرب بضع سنوات ، حتى ظهر فى جانب البرلمان قائد عظيم ، أوليفر كروموِيل ، كان منظما عظيما ، ورجلا يؤمن برسالته ايمانا مقدسا ·· كتب كارليل عنه قائلا « فى ساعات الخطر الحالكة ، وعلى هضبات الميدان ، أشرق الأمل فيه كعمود من النار ، ساعة انطفائه فى كل الآخرين » ونظم كروموِيل جيشا جديدا ، بث فيه من روحه ونظامه وواجه البيوريتان « المتطهرون » من جيش البرلمان ، فرسان شارل ، وانتصر كروموِيل فى النهاية ، وسقط الملك سجينا فى أيدى البرلمان ··

وكان كثير من نواب البرلمان مايزالون يريدون التفاهم

مع الملك ، ولكن كروموبل لم يستمع اليهم ، وذهب ضابط من جيشه ، كولونيل برايد ، واقتحم مبنى البرلمان وطرد كل هؤلاء النواب ، وأطلق على هـــذه الحركة اسم حركة « تطهير برايدى » . كان علاجا عنيفا وغير مشجع للبرلمان . فاذا كان البرلمان قد عارض الملك من أجل استبداده فهذه قوة أخرى ، لاتلقى بالا الى حقوقه الشرعية ، وتلك طبيعة الثورات .

وقرر النواب الباقون أن يحاكموا شارل ، بالرغم من معارضة مجلس اللوردات ، ثم حكموا عليـه بالموت حيث أنه ثبت أنه « طاغية ، خائن ، قاتل ، وعدو للوطن » وفى ســـنة ١٦٧٩ فى هوايتهول بلندن ، قطعت رأس هذا الملك الذى كان يتحدث عن حقه الآلهى فى الحكم ..

والملوك يموتون كغيرهم من الناس . ولكن كثيرين منهم كانت ميتتهم عنيفة .. وتاريخ الملكية والارستقراطية حافل بالقتل ، ولكن ، أن يجعل مجلس منتخب من نفسه محكمة ، وأن يحاكم الملك ويحكم عليه بالموت ، ثم يقطع رأسه ، كل ذلك كان يبدوا وكأنه رواية غريبة جدا ..

وأنه لغريب من الشعب الانجليزى الذى عرف بمحافظته ونفوره من التغير السريع أن يضرب لنا هذا المثل فى كيف يجب أن يحاسب الملوك الطغاة . ولكن هذا المثل فى الواقع لم يضربه الشعب الانجليزى فى مجموعه ، بقدر ما ضربه كروموبل ..

صدم الملوك والقياصرة والأمراء فى أوروبا صدمة هائلة ، فماذا يحدث لو أصاب الغرور شعوبهم أيضا وصنعت كمـــا صنع الانجليز ؟

لقد كان ممكنا أن يفكر هؤلاء الملوك فى غزو انجلترا ، لولا أنه لم يكن هناك من السلالة الملكية الانجـــليزية من يطالب بالعرش .

وأصبحت انجلترا ، لأول مرة فى تاريخهـــا جمهورية ، وكان هناك كروموبل وجيشه يدافعان عنها . وكان كروموبل قد غدا فى واقع الأمر دكتاتورا . وأطلق عليه اسم « اللورد الحامى » وتحت سياسته الحازمة المنتجة زادت قوة انجـــلترا وتفوق أسطولها على أساطيل فرنسا وهولندا واسبانيا . ولأول مرة أيضا أصبحت انجلترا سيدة البحار ..

ولكن الجمهورية الانجليزية لم تعش طويلا ـ لم تعش أكثر من أحد عشر عاما بعد قتل الملك شارل . فقد مات كرومويل سنة ١٦٥٨ ، وبعد سنتين من وفاته سقطت الجمهورية ، وعاد الى انجلترا ابن شارل الذى كان قد هاجر الى الخارج ، وتوج ملكا باسم شارل الثاني . وكان شارل الثاني هذا رجلا تافها سيء السمعة ، لا هم له من الملك الا أن يقضي وقتا جميلا .. ولكنه كان من الذكاء بحيث حرص على أن لايصطدم بالبرلمان ، وكان في واقع الأمر تابعا فى السر لملك فرنسا . وفقدت انجلترا مكانتها التى اكتسبها كرومويل ، وجاء أسطول هولندا وأغرق الاسطول الانجليزى كله عند مدخل نهرالتيمز . وخلف شارل الثانى أخوه جيمس الثاني ، فلم يلبث أن دخل فى متاعب مع البرلمان .. كان جيمس كاثوليكيا متطرفا ،فأراد أن يعيد سلطة البابا فى انجلترا وبالرغم من ضعف فكرة الانجليز عن الاديان الا أنهم كانوا يكرهون البابا وكل مايصدر عنه أو يتصل به . ولم يستطع جيمس الثانى شيئا ازاء ذلك وخاف من عاقبة خلافه مع البرلمان ففر من بلاده ولجأ الى فرنسا مرة أخرى وانتصر البرلمان على الملك ، انتصارا سلميا هذه المرة .

لم يعد هناك ملك فى البلاد ..ولكن انجلترا لم تشأ أن تعود جمهورية . فالانجليزى يحب أن يكون له رئيس ويحب مظاهر الملكية وفخفختها .

وهكذا أخذ البرلمان يبحث عن ملك مناسب حتى وجد واحدا من أسرة أورانج التى أنجبت قبل ذلك بمائة سنة ، وليم الصامت الذى قاد الهولنديين ضد اسبانيا . وجد البرلمان « وليما » آخر من أسرة أورانج متزوج من « مارى » احدى بنات البيت المالك الانجليزى . وهكذا توج وليم ومارى ملكين سنة ١٦٨٨ وأصبح البرلمان الآن هو صاحب السلطة العليا ، وتمت الثورة الانجليزية ، باعطاء السلطة للشعب ممثلا فى البرلمان ..

ومنذ ذلك الوقت لم يجسر ملك انجليزى واحد على معارضة سلطة البرلمان .. الا أنه هناك وسائل أخرى للتآمر والتأثير دون معارضة أو تحد ، وقد لجأ كثير من ملوك الانجليز الى هذه الوسائل .

أصبح البرلمان اذا هو صاحب السلطة العليا ، ولكن ماهو هذا البرلمان ؟ لاتظنى أنه يمثل الشعب الانجليزى ، ولكنه كان يمثل جانبا صغيرا منه فقط . فمجلس اللوردات كما هو واضح من اسمه كان يمثل اللوردات والاساقفة وكبار ملاك الأراضى . حتى مجلس العموم كان يضم الاغنياء فقط من الملاك أو التجار . كان عدد الذين لهم حق الانتخاب من الناس قليلا جدا . وكان هؤلاء النواب يسمون حتى مائة سنة خلت باسم « أصحاب الجيوب » اذ كانت مقاعد النيابة فى جيوبهم دائما كانت الدائرة الانتخابية كلها قد لاتضم من أصحاب حق الانتخاب أكثر من واحد أو اثنين ، وقد قيل أنه فى سنة ١٧٩٣ كان مجلس العموم يضم ٣٠٣ نائبا انتخبهم ١٦٠ ناخبا فقط .. وكان هناك ناخب اسمه « ساروم » انتخب نائبين ، مرتين متتاليتين للبرلمان .. فالأغلبية الساحقة من الناس اذا كانوا لا يملكون حق الانتخاب ، أى كانوا غير ممثلين فى البرلمان .. كان مجلس العموم أبعد مايكون عن الصفة الشعبية .. لم يكن يمثل حتى ولا الطبقة المتوسطة التى بدأت تنمو فى المدن ، كان يمثل فقط كبار ملاك الأراضى وقليلا من التجار الأغنياء وكانت مقاعد البرلمان تباع وتشترى وتدفع فيها الرشاوى ، وظل هذا الوضع قائما حتى سنة ١٨٣٢ . حين أقر البرلمان قانونا جديدا غير هذه الأوضاع . بعد اضطرابات جسيمة ، وحصل مزيد من الناس على حق الانتخاب .

هكذا ترين أن انتصار البرلمان آنئذ على الملك كان معناه انتصار حفنة من الاغنياء . وقد ظلت انجلترا محكومة فعلا بهذه الحفنة من أصحاب الاراضى والتجار الاثرياء ، أما سائر الطبقات التى تتكون منها الأمة فلم يكن من حقها أن تبدى الرأى .

وعلى نفس الطراز كما لابد تذكرين ، كانت الجمهورية الهولندية التى انبعثت عن حرب الاستقلال الهولندية ضد اسبانيا ..

وبعد وفاة وليم وماري آن . أصبحت ماري ملكة على انجلترا فلما ماتت سنة ١٧١٤ ثارت مشكلة البحث عن ملك مرة أخرى ، وعثر البرلمان على ملك فى المانيا ، وكان حاكم مقاطعة هانوفر ، وجعله الملك جورج الأول . ولعل البرلمان اختاره ملكا لأنه

كان غبيا تماما ، اذ وجد أن اختيار ملك ذكى قد ينافسه فى سلطته ، وكان جورج الأول ملك انجلترا لايعرف كلمة واحدة من اللغة الانجليزية · وكذلك كان ابنه جورج الثانى ، وهكذا أصبحت هذه الأسرة الالمانية هى البيت المالك الانجليزى الذى مازال يحكم حتى الآن ، وأقول يحكم تجاوزا ، لأن سلطةالحكم الآن كلها فى يد البرلمان ·

وبعد ·· لعله قد يهمك أن تعرفى أن « جونا ثان سويفت » مؤلف « رحلات جاليفر » قد عاش فى تلك الفترة من ١٦٦٧ الى ١٧٤٥ ، وكتاب « رحلات جاليفر » معروف جـدا كـكتاب للاطفال ولكنه فى الواقع نقد لاذع جدا لانجلترا فى ذلك العصر، وفى نفس العصر أيضا عاش « دانييل ديفو » مؤلف « روبنسون كروزو » ·

●●●



الثورة الصناعية تبدأ فى انجلترا

٢٧ سبتمبر ١٩٣٢ :

يجب أن أحدثك الآن عن بعض المخترعات الآلية التى أحدثت هذا التغيير الهائل فى وسائل الانتاج · ان هذه المخترعات تبدو لنا الآن عادية بسيطة حين نراها فى المصانع · ولكن التفكير فيها واختراعها لأول مرة كان أمرا بالغ الصعوبة ، وقد جاء أول هذه المخترعات سنة ١٧٣٨ عندما ابتكر رجل اسمه «كاى» البكرة الطائرة أو المكوك الطائر الذى يستخدم فى نسج القماش · فقبل هذا الاختراع كان على النساج أن يضع الخيوط متشابكة ومتقاطعة فى الجهاز الذى اسمه « النول » ولكن المكوك الطائر أسرع بهذه العملية ، وضاعف انتاج النساج ، ومعنى هذا ان النساج أصبح قادرا على انتاج كمية أكبر من القماش ، وكان صعبا على الغزالين أن يزودوا هذا الانتاج الكبير من النسيج بمزيد من الغزل فأخذوا يبحثون عن طريقة لزيادة انتاجهم أيضا ·

وقد أمكن حل هذه الأزمة فى سنة ١٧٩٤ عندما اخترع

« هارجرينز » آلة جديدة للغزل وتلت ذلك اختراعات أخرى اخترعها ريتشارد آن كرايت وآخرون ، ثم أمكن استخدام قوة الماء وقوة البخار •

وقد استخدمت كل هذه الاختراعات أولا فى صناعة القطن فازدهرت مصانع القطن • وكانت الصناعة التالية التى استخدمت هذه المخترعات الجديدة هى صناعة الصوف •

وفى سنة ١٧٦٥ اخترع جيمس وات الآلة البخارية ، وقد كان هذا الاختراع حدثا عظيما ، أعقبه استخدام قوة البخار فى جميع المصانع ، وأدى ذلك الى تزايد الحاجة الى الفحم الذى يستخدم فى توليد البخار ، فنشأت صناعة التعدين واستخراج الفحم • وأدى استخدام الفحم الى اكتشاف طرق جديدة لتنقية الحديد بصهر الحديد الخام لفصل الصلب النقى ، وهكذا نمت صناعة الحديد بسرعة • وأقيمت المصانع الجديدة بجوار مناجم الفحم حيث يتوفر الفحم بسعر رخيص •

هكذا نشأت ثلاث صناعات هائلة فى انجلترا • القماش والحديد والفحم ، وقامت المصانع بالقرب من مناجم الفحم ، وفى غيرها من المناطق •

لقد تغير وجه انجلترا ، فحيث كانت المروج الخضراء الفاتنة ، ظهرت تلك المصانع الجديدة بمداخنها العالية ، التى تنفث الدخان الاسود وتلقى ظلا قاتما على كل شىء • ولم يكن منظر هذه المصانع جميلا ، بما حولها من تلال الفحم وأكوام الخردة والنفايات ، كما ان المدن الصناعية الجديدة التى نشأت حول المصانع لم تكن تمت للجمال بصلة فقد كانت تقام كيفما اتفق ، ولا هم لأصحابها ، الا جمع النقود ، كانت مدنا قبيحة قذرة ، وكان على العمال الذين يكادون يموتون جوعا أن يعيشوا فيها • كما كان عليهم أن يتحملوا جو المصانع البشع وكما يحدث عقب ظهور كل اختراع يؤدى الى استخدام الآلات بدلا من العمل اليدوى ، انتشرت البطالة بين العمال الذين أصبحت الآلات تغنى عن الكثيرين منهم ، ومن أجل ذلك كره العمال هذه الآلات الجديدة كرها شديدا ، بل وحاولوا تحطيمها • وأطلق عليهم اسم مخربوا الآلات •

وتخريب الآلات له تاريخ طويل فى أوروبا ، يرجع الى القرن

السادس عشر عندما اخترع فى المانيا « نول » آلى بسيط .

وفى مخطوط قديم كتبه كاهن ايطالى سنة ١٥٧٩ ، ذكر عن هذا النول ان مجلس مدينة « واتيزيج » خشى أن يؤدى هذا الاختراع الى القاء عدد كبير من العمال فى قارعة الطريق ، فأمر بتحطيم هذه الآلة ، وقتل المخترع واغراقه سرا !

وبالرغم من المعاملة التى لقيها هذا المخترع ، فقد ظهرت هذه الآلة مرة أخرى فى القرن السابع عشر ، واضطرمت الاضطرابات فى أوروبا كلها من جراء هذه الآلة ، فصدرت قوانين كثيرة تحرم استخدامها ، وكان الناس يحرقونها علنا فى الشوارع والأسواق ، ولولا أن هذه الآلة استخدمت بعد اختراعها لأول مرة لأعقبتها اختراعات أخرى ، ولربما تقدم العصر الآلى كله عن الموعد الذى جاء فيه . ولكن عدم استخدام هذه الآلة فى ذاته يدل على أن الظروف لم تكن قد تهيأت لظهورها بعد ، فلما تهيأت هذه الظروف ظهرت الآلة وفرضت نفسها فرضا فى انجلترا رغم الاضطرابات العنيفة التى قامت فى وجهها هناك .

وقد كان طبيعيا أن يشعر العمال أول الأمر بالكراهية نحو هذه الآلة . ولكنهم أخذوا يدركون شيئا فشيئا ان الغلطة ليست فى الآلة ذاتها ، ولكن فى طريقة استخدامها بحيث تعود أرباحها على عدد قليل جدا من الناس .. ولنعد بعد هذا الاستطراد الى نمو المصانع والآلات فى انجلترا .

لقد قضت المصانع الجديدة على كثير من صناعات الاكواخ ، وأصحاب الحرف ، فقد كان مستحيلا على الصناع اليدويين أن ينافسوا هذه الآلات .. وأصبح عليهم أن يتركوا أدواتهم القديمة ويبحثوا عن عمل بالأجر فى هذه المصانع الجديدة التى يكرهونها أو ان ينضموا الى جيش العاطلين . ولكن انهيار صناعات الاكواخ لم يتم دفعة واحدة ولكنه مع ذلك كان سريعا الى حد كبير ، فلم تأت نهاية هذا القرن سنة ١٨٠٠ ، الا وكانت المصانع الكبيرة قد قبضت على ناصية الموقف . وبعد ثلاثين سنة ظهرت خطوط السكك الحديدية بعد أن اخترع « ستيفنسون » أول قاطرة . وهكذا امتد تأثير الآلة الى جميع أنحاء البلاد ، بل الى كل ناحية من نواحى الحياة فيها .

ومن الطريف أن نلاحظ أن كل هؤلاء المخترعين ، ولم أذكر الا القليل منهم ، كانوا من طبقة العمال اليدويين · ومن هذه الطبقة أيضا خرج كثير من زعماء الصناعة · ولكن الآلات التي اخترعوها وما أعقبها من ظهور نظام المصانع الكبيرة أدى الى اتساع الهوة بين رب العمل والعامل · وأصبح العامل في المصنع الكبير مجرد « ترس » صغير في آلة ضخمة ، عاجزا ازاء عوامل اقتصادية هائلة لايستطيع فهمها فضلا عن التحكم فيها ·

وقد كان الصناع اليدويون وأصحاب الصناعات الصغيرة هم أول من أدركوا أن ثمة خللا ما ، عندما وجدوا أن المصانع الجديدة تنافسهم وتبيع السلع بأسعار أرخص بكثير مما يبيعون به السلع التي يصنعونها بأيديهم أو بأدواتهم البسيطة في منازلهم · كان عليهم أن يغلقوا دكاكينهم الصغيرة دون أي ذنب جنوه ، وانضموا الى جيش العاطلين الجرار . ثم ساقهم الجوع الى المصانع الجديدة يبحثون عن عمل · كان أصحاب العمل يتصرفون بغير شفقة ، وكان العمال من الرجال والنساء ، بل والأطفال يعملون ساعات طويلة في أماكن كريهة غير صحية حتى يسقطون اعياء على الأرض ، وكان عمال مناجم الفحم يقضون نهارهم كله تحت سطح الأرض ولربما تمضي عليهم شهور كاملة لايبصرون فيها ضوء النهار ·

ولكن اياك أن تحسبي هذه الأشياء كلها كان سببها قسوة أصحاب العمل · لقد كانوا في الواقع قساة من حيث لايشعرون اذ كان العيب الأساسي في النظام نفسه · كانوا يعملون على مضاعفة أعمالهم ، وغزو الأسواق العالمية البعيدة وانتزاعها من بلاد أخرى ، وفي سبيل تحقيق هذا الغرض كانوا مستعدين لعمل أي شيء ، ثم أن شراء الآلات واقامة المصانع الجديدة يحتاج الى أموال طائلة ، لايمكن استردادها الا بعد أن يتم انشاء المصنع ، ويبدأ في الانتاج ويباع هذا الانتاج ، وهكذا كان أصحاب هذه المصانع يضغطون النفقات ويكرسون الارباح لبناء مزيد من المصانع ·

لقد سبقوا جميع بلاد العالم في التصنيع وهم يريدون أن يستغلوا هذه الفرصة الفريدة في كسب الارباح ، ومضوا في غمرة هذا السباق الجنوني لمضاعفة أعمالهم يدوسون العمال

التعساء الذين جلبوا بسواعدهم هذا الثراء .

اذا فقدقامت الصناعة الحديثة على أساس استغلال القوي للضعيف . وقد رأينا الاقوياء يستغلون الضعفاء في كثير من مراحل التاريخ . ولكن النظام الصناعي جعل هذا الاستغلال أكثر سهولة . فلم يكن هناك رق من ناحية القانون . أما من ناحية الواقع ، فان عمال المصانع . عبيد الأجور ، كانوا في حالة لاتختلف كثيرا عن حالة الرقيق في العصر القديم ، كانت القوانين كلها في مصلحة رب العمل . حتى الدين كان يؤيد رب العمل ويقول للعمال التعساء : أنهم سوف يجنون ثمرة شقائهم في نعيم العـــالم الآخر ، وابتكرت الطبقات الحاكمة فلسفة تتلخص في أن وجود الفقراء أمر ضروري في كل مجتمع وأنه من اللازم بناء عـلى ذلك ان يدفع رب العمل أجورا ضئيلة لعماله . لأن العامل اذا أخذ أجرا كبيرا فسوف يحاول أن يستمتع بهذا المال وينصرف عن العمل لزيادة الانتاج ! وهي كما ترين فلسفة مريحة، ملائمة لصالح أصحاب المصانع وسائر الأغنياء .

ان قراءة تاريخ تلك الأيام حافلة بالمتعة والفائدة . اننا نتعلم منها ، أشياء كثيرة حقا . ونرى من خلالها الى أي حـــد أثر التقدم الآلي على المجتمع .

لقد انقلب نظام الانتاج كله رأسا على عقب ، وظهرت طبقات جديدة قفزت الى المقدمة وقبضت على ناصية القوة واختفت طبقة الصناع اليدويين وتحولت الى طبقة من الاجراء الذين يعملون في المصانع بل وأثرت الظروف الاقتصادية الجديدة على أفكار الناس ومعتقداتهم في الدين والاخلاق . فان معتقدات الناس تسير جنبا الى جنب مع مصالحهم الاقتصادية وأوضاعهم الطبقية، وهم يهتمون اذا أصبحت لهم القوة بوضع القوانين التي تحمي مصالحهم . وهم يضعون هذا كله بالطبع في ثوب من الفضيلة ، مؤكدين أن خير الانسانية هو الدافع الوحيد لهم على سن تلك القوانين . ونحن في الهند نسمع الكثير عن عواطف الانجليز الذين يقولون لنا دائما انهم يعملون من أجل مصلحة الهنـــد في نفس الوقت الذين يحكموننا فيــه بالارهاب . كذلك فان الرأسمالية وكبار أصحاب المصانع يؤكدون لنا دائما نواياهم الطيبة نحو عمالهم . ولكنهم لايترجمون هذه النوايا الطيبة أبدا

الى أجور أحسن وكل أرباح المصانع تتفق في اقامة قصور أحدث لا لتحسين أكواخ الطين التى يعيش فيها العمال .

أنه لغريب حقا .. كيف يخدع الناس أنفسهم ويخدعون غيرهم عندما تحتاج مصالحهم الى هذا الخداع . لقد كان أصحاب العمل الانجليز فى القرن الثامن عشر ومابعده يقاومون كل محاولة تبذل لتحسين أحوال أعمالهم .

كانوا يقاومون أى تشريع يتصل بمصانعهم أو يحسن المساكن ويرفضون الاعتراف بحق المجتمع فى القضاء على أسباب الشقاء وكانوا يريحون ضمائرهم بدعوى ان الخاملين وحدهم هم الذين يشقون وقد اخترعوا فلسفة جديدة أطلق عليها اسم « دعهم يعملون » تتلخص فى أنه من حق صاحب العمل أن يتصرف فى أعماله كيفما شاء ، بغير أى تدخل من جانب الحكومة وكانت هذه الفلسفة ملائمة تماما لمصالحهم فهم وقد سبقوا بمصانعهم بلاد العالم جميعا ، ليسوا فى حاجة الا لميدان حر يجنون منه الارباح . وأصبح مبدأ « دعهم يعملون » أومبدأ الحرية الاقتصادية مبدأ مقدسا لأنه يبيح لكل فرد أن يصنع مايشاء . الا يعطى هذا المبدأ كل رجل أو امرأة الحق فى أن يصارع الدنيا كلها اذا شاء ؟ واذا كان هناك كثيرون يذهبون ضحايا هذا الصراع فماذا يهم ؟

لقد حدثتك فى خطابات كثيرة سابقة عن مبدأ التعاون بين البشر الذى كان أساس الحضارة الانسانية ، ولكن الرأسمالية الجديدة والحرية الاقتصادية عادت بالبشر الى قوانين الغاب . وقد سماها « كارليل » بحق فلسفة الخنازير .. فمن هم الذين وضعوا أساس هذا القانون الجديد للحياة والعمل .. انهم ليسوا العمال . فلم يكن لهؤلاء المساكين الحق فى أن يقولوا شيئا ما . انهم أصحاب الاعمال الناجحين الذين لايريدون أى تدخل فى نجاحهم ، باسم الحرية وحق الملكية عارضوا حتى التشريعات التى تضع شروطا صحية للمساكن أو تحارب غش البضائع ..

لقد استعملت منذ بضعة سطور كلمة « رأسمالية » ، وقد عرف كل بلد من البلاد هذه الرأسمالية بصورة أو بأخرى ـ فكل صناعة أقيمت ولا شك بـ « رأس مال » أى بأموال مدخرة من قبل

ولكن ظهور الآلة الكبيرة وانتشار الصناعة أدى الى تراكم كميات هائلة من الارباح المدخرة وأصبح اسم الرأسمالية يطلق على النظام الاقتصادى الذى ظهر بعد الثورة الصناعية • وهو النظام الذى بمقتضاه يسيطر الرأسماليون أى أصحاب رأس المال على المصانع ويأخذون الارباح • والرأسمالية منذ أيامها الأولى تحمل معنى التفرقة بين الغني والفقير ، فالآلات الحديثة تنتج كميات أوفر فتأتى بأرباح أكثر • ولكن هذه الارباح الكثيرة تذهب الى عدد قليل من الافراد أولئك هم أصحاب هذه المصانع • أما العمال فقد ظلوا فقراء • وبشيء من التدرج البطيء تحسنت أحوال العمال فى انجلترا بالذات تحسنا طفيفا ، نتيجة استغلال انجلترا للهند ولغيرها من البلاد • ولكن نصيب العمال من هذه الارباح ظل تافها بوجه عام • فالثورة الصناعية والرأسمالية قد حلت اذا مشكلة الانتاج ، ولكنها لم تحل مشكلة توزيع الثورة الجديدة توزيعا عادلا • وهكذا ظلت الفجوة القديمة بين الذين يملكون والذين لا يملكون، موجودة بل زادت اتساعا •

وقعت هذه الثورة الصناعية فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر ، وهو نفس العصر الذى كانت انجلترا فيه تحارب فى الهند وكندا •

وقد تأثرت هذه الاحداث ببعضها الى حد كبير • فالأموال الطائلة التى انتزعتها شركة الهند الشرقية وغيرها من الهند ساعدت على اقامة صناعات جديدة فى انجلترا •

وقد ذكرت لك منذ قليل أن التصنيع يحتاج الى نفقات طائلة وأنه يلتهم النقود ولا يعيدها الا بعد وقت • وقد كان حظ انجلترا رائعا اذ وجدت هذه الكميات الطائلة من النقود فى الهند لتقيم بها الصناعات الضخمة •

وقد أدى بناء هذه المصانع الكبيرة الى ظهور حاجات جديدة • فهذه المصانع فى حاجة الى الخامات التى تحولها الى سلع فمصانع الغزل والنسيج فى حاجة الى القطن لتحوله الى قماش • كذلك فان هذه المصانع فى حاجة الى أسواق لتصرف فيها السلع التى تنتجها • ومرة أخرى جاءت الهند لانقاذ الصناعة الانجليزية• لجأ الانجليز فى الهند الى كل وسيلة وكل أسلوب لتدمير

الصناعات الهندية ولفرض الاقمشة الانجليزية على السوق ، وسوف أحدثك عن هذه العملية بالتفصيل في مكان آخر .

انتشرت الصناعة فى جميع أنحاء العالم خلال القرن التاسع عشر وقامت الصناعات الرأسمالية فى كل مكان على نفس الخطوط الأولى التى وضعتها انجلترا وأدت هذه الرأسمالية الى ازدياد موجة الاستعمار مرة أخرى فكل مصنع فى حاجة الى مواد خام ليصنعها والى الاسواق الواسعة ليبيع فيها منتجاته، وأسهل طريقة للحصول على الخامات والاسواق فى وقت واحد هى احتلال البلاد التى تتوفر فيها الخامات .

وهكذا دخلت الدول الكبرى فى صراع جديد للاستيلاء على أراض جديدة . وكانت انجلترا بفضل سيطرتها على الهند وامتلاكها لأكبر قوة بحرية متفوقة على غيرها من الدول .

أما انجلترا نفسها فقد أصبحت بعد الثورة الصناعية ، يحكمها أصحاب مصانع النسيج فى لانكشير وأصحاب مناجم الفحم ومصانع الحديد .



حرب الاستقلال فى أمريكا

٢ أكتوبر ١٩٣٢ ..

ننتقل الآن الى ثورة ثانية عظيمة وقعت فى القرن الثامن عشر الا وهى ثورة المستعمرات الأمريكية على انجلترا .. وهى ثورة سياسية فقط ، ليس لها الأثر البعيد الذى للثورة الصناعية التى حدثتك عنها فى الخطابين السابقين ، أو للثورة الفرنسية التى سوف أحدثك عنها بعد قليل ، والتى هزت القوائم الاجتماعية لأوروبا كلها .. ومع ذلك فقد كان مقدرا لهذه الثورة السياسية التى وقعت فى أمريكا أن تؤدى الى نتائج هائلة .. فهذه المستعمرات التى ثارت لم تكد تصبح حرة حتى أصبحت مع الأيام أقوى وأغنى صناعيا من جميع البلاد الاخرى ..

هل تذكرين « ماى فلاور » ؟ .. السفينة التى حملت عددا من البروتستانت الانجليز الى أمريكا سنة ١٦٢٠ ؟ .. لقد ضاق هؤلاء البروتستانت ذرعا باوتوقراطية الملك جيمس الأول وبآرائه الدينية ، فنفضوا عن أقدامهم تراب انجلترا

وذهبوا الى الأرض الجديدة الغريبة عبر المحيط الأطلنطى ، حيث يجدون حرية أرحب ! ‥ وقد رست بهم السفينة فى الشمال ، فى مكان أطلقوا عليه اسم « نيو بلايموث » أى بلايموث الجديدة ، وكان المستعمرون قد سبقوهم الى أماكن أخرى من الشاطىء الشمالى لأمريكا ، وفى أعقابهم جاءت أفواج جديدة من المهاجرين حتى امتلأ الشاطىء الشرقى كله بالمستعمرات المتراصة من الشمال الى الجنوب ‥ كانت هناك مستعمرات كاثوليكية ، وأخرى أقامها الفرسان النبلاء الانجليز ، وغيرها أقامها الكويكرز ، وكان هناك أيضا هولنديون وألمان وفرنسيون ، وان ظل أغلبهم من المستعمرين الانجليز ‥ وقد اختار الهولنديون بقعة أقاموا عليها مدينة سموها « نيو امستر دام » فلما استولى عليها الانجليز أطلقوا عليها اسم « نيويورك » ‥

وقد ظل المستعمرون الانجليز على ولائهم لملك انجلترا والبرلمان الانجليزى ‥ حقا لقد هاجروا لأنهم غير راضين عن كثير مما يفعله الملك والبرلمان ، ولكنهم كانوا لا يريدون قطع صلتهم نهائيا بالوطن ، خصوصا من كان منهم من النبلاء أى من فرسان الملك ‥ وكانت كل مستعمرة من هذه المستعمرات تعيش حياتها المستقلة لا يربطها بغيرها الا قليل من الروابط فلما جاء القرن الثامن عشر كانت قد تكونت على الساحل ثلاث عشرة مستعمرة كلها تحت سيطرة انجلترا ‥ والى الشمال منها كانت توجد كندا ، والى الغرب توجد أراض تابعة لاسبانيا ‥

وتذكرت مرة أخرى أن هذه المستعمرات كانت كلها على الشاطىء ، أما الأراضى الشاسعة الى الغرب فقد كانت مسكونة وواقعة تحت سيطرةالهنود الحمر ، بزعامة قبيلة «ايروكيوس»

وفى منتصف القرن الثامن عشر ، نشب صراع عالمى بين انجلترا وفرنسا تبلور فى الحرب التى عرفت باسم حرب السنين السبع (١٧٥٦ ـ ١٧٦٣) استعر أوارها فى أوروبا وأمريكا فى وقت واحد ، وقد انتصرت انجلترا فى هذه الحرب وانسحبت فرنسا من كندا ‥

وقد حدثتك من قبل عن تجارة الرقيق التى كانت تقوم بها بعض

الدول الأوروبية عن طريق نقل العمال الزنوج من أفريقيا الى أمريكا .. وقد كانت هذه التجارة الرهيبة الشائنة في أيدي الاسبان والبرتغال والانجليز ، وكانت أمريكا في حاجة الى الأيدي العاملة ، خصوصا في الولايات الجنوبية ، حيث نشأت مزارع التبغ الشاسعة .. والسكان الأصليون لهذه البلاد هم الهنود الحمر ، وهم بدو رحل ، رفضوا الاستقرار والزراعة ، كما أنهم رفضوا العمل في ظروف الرق ، وفضلوا المقاومة والفناء ، وقد تمت عملية افنائهم بالفعل مع مرور الأيام .. ولا نجد أحدا يذكر ممن يرجعون الى سلالة ذلك الشعب الذي سكن تلك القارة زمنا طويلا ..

ولما كان الهنود الحمر يرفضون العمل في الزراعة ، والحاجة الى الأيدي العاملة شديدة ، أخذ تجار الرقيق يأسرون أبناء أفريقيا التعساء ويضعونهم في أقفاص كما يصنعونهم بالحيوانات المتوحشة ، ثم يرسلونهم عبر البحار في قسوة ووحشية لا يمكن تصديقهما .. وهناك يرسل هؤلاء الزنوج الى ولايات الجنوب ـ فرجينيا وكارولينا وجيورجيا ـ حيث يعملون جماعات جماعات ، في حقول التبغ الشاسعة ..

أما في ولايات الشمال فالأمر مختلف .. فهناك كان المتدينون الذين حملتهم « ماي فلاور » يحافظون على تقاليدهم النبيلة ، لا يزرعون الاقطاعات الهائلة بل يزرع كل واحد المساحة التي يحتاجها والتي يستطيع أن يباشرها بنفسه فلم تكن هناك حاجة الى العبيد ولا الى الأيدي العاملة الكثيرة ونشأ جو من المساواة بين أصحاب هذه الاقطاعات الصغيرة ..

هكذا نشأ في تلك المستعمرات نظامان اقتصاديان مختلفان نظام يقوم على المساواة والمزارع الصغيرة في الشمال .. ونظام يقوم على الرق والاقطاعات الكبيرة في الجنوب .. ولم يشارك الهنود الحمر في هذا النظام أو ذلك بل اضطروا الى الانسحاب نحو الغرب شيئا فشيئا أمام ضغط الوافدين الجدد ، وسهل انقراضهم لما كان بين قبائلهم وزعمائهم من خلافات ..

وكان لملك انجلترا نفسه وكثير من الملاك الانجليز مصالح كبيرة في هذه المستعمرات ، فحرصوا على استغلالها الى أقصى

الحدود .. ولما انتهت حرب السنوات السبع زاد ضغط الانجليز لاستخراج أكبر قدر من النقود من المستعمرات الأمريكية .. ولما كان البرلمان الانجليزى مكونا من كبار الملاك ، فقد تحالف مع الملك فى فرض الضرائب الباهظة والقيود الثقيلة .. تماما كما كانوا يصنعون فى الهند ... واعترض المستعمرون فى أمريكا على هذه القيود وعلى الضرائب الجديدة ، ولكن الحكومة الانجليزية كانت تشعر بالزهو والقوة عقب انتصارها فى حرب السنين السبع بحيث لم تبال بهذه الاعتراضات .. ولكن حرب السنين السبع كانت قد علمت أبناء المستعمرات شيئا جديدا ! ..

لقد التقى أبناء الولايات المختلفة وتعارفوا .. وقد حاربوا فى جيوش نظامية تحت الراية الانجليزية فاعتادوا على الحرب وعرفوا فنونها فهم أيضا قد خرجوا من الحرب فى حالة تسمح لهم برفض مالا يرونه عادلا ! ..

ووصلت الأمور الى ذروتها فى سنة ١٧٧٣ . عندما أرادت انجلترا أن تفرض عليهم شراء الشاى الذى تبيعه شركة الهند الشرقية ، وكان كثيرون من أصحاب النفوذ فى انجلترا يحملون أسهم شركة الهند الشرقية ، فهم مهتمون بمصالحها ــ ولكن بيع الشاى الذى تنتجه شركة الهند الشرقية فى أمريكا يسىء الى الانتاج المحلى من الشاى ، فقرر أبناء المستعمرات مقاطعة هذا الشاى الأجنبى ..

وفى ديسمبر ١٧٧٣ ، عندما حاولت انجلترا تفريغ الشاى بالقوة فى ميناء بوسطن ــ قاومها الأهالى ، وتنكر عدد من أبناء الولايات فى ثياب الهنود الحمر ، وصعدوا الى السفن المحملة بالشاى الأجنبى ، وألقوا به الى البحر ، وتم هذا العمل علنا أمام الجموع المحتشدة الهاتفة فكان تحديا صريحا أدى الى نشوب الحرب بين ــ المستعمرات الثائرة وبين انجلترا ..

ان التاريخ لا يكرر نفسه بدقة ، ولكنه يلتزم هذه الدقة فى بعض الأحيان بشكل غريب .. ان حادث القاء الشاى فى ميناء بوسطن سنة ١٧٧٣ أصبح حادثا شهيرا يطلق عليه اسم « حفلة شاى بوسطن » . وفى الهند ، منذ سنتين ونصف قاد

غاندى حملة الملح الشهيرة ، وسار على رأس الزحف العظيم الى داندى .. وفى أمريكا يقارن الكثيرون بين حفلة شاى بوسطن وحملة الملح فى الهند ، وان كان هناك بالطبع فرق كبير بين الاثنين ..

وبعد عام ونصف من حفلة شاى بوسطن . فى سنة ١٧٧٥ نشبت الحرب بين انجلترا ومستعمراتها الأمريكية .. ومن أجل أى شىء كانت المستعمرات تحارب ؟ .. ليس من أجل الاستقلال ، وليس بقصد الانفصال عن انجلترا ، فحتى بعد أن نشبت الحرب وأريق الدم بين الجانبين ، ظل زعماء المستعمرات يقولون عن جورج الثالث ملك انجلترا «ملكنا المعظم» ويعتبرون أنفسهم رعاياه المخلصين .. وقد تكرر هذا الوضع فى حالات كثيرة فى هولندا ظلوا يعتبرون فيلب الثانى ملك اسبانيا ملكا عليهم بالرغم من اشتباكهم فى حرب عنيفة ضد جيوشه وقد مضت سنوات كثيرة قبل أن تضطره هولندا الى اعلان استقلالها .. وفى الهند ما زال البعض يشكون فى امكان الاستقلال ، ويطالبون بالبقاء ضمن نطاق الدومنيون ، ولكن التاريخ يعلمنا أن مثل هذا المسرح لايمكن أن ينحسر الا عن الاستقلال التام ..

ففى ١٧٧٤ ، قبل أن تنشب الحرب فى أمريكا بقليل ، ألقى جورج واشنجطن خطبة قال فيها أنه لا يوجد عاقل واحد فى أمريكا يريد الاستقلال .. ولكن واشنجطن نفسه أصبح بعد ذلك أول رئيس للجمهورية الأمريكية المستقلة ! ..

وفى سنة ١٧٧٤ ، وبعد أن نشبت الحرب فعلا ، توجه ٤٦ عضوا بارزا فى الكونجرس بالخطاب الى ملك انجلترا بوصفهم رعايا مخلصين ، طالبين منه حقن الدماء .. كانوا يريدون باخلاص اعادة الصفاء بين انجلترا الأم وابنائها الامريكان .. كان كل مايريدونه نوعا من الاستقلال الذاتى ، وقد أطلق على هذا النداء اسم « عريضة غصن الزيتون » ..

ولكن ، بعد أقل من سنتين ، وقع أكثر من ٢٥ عضوا من الذين وقعوا عريضة غصن الزيتون وثيقة أخرى هى اعلان الاستقلال ! ..

فالمستعمرات لم تبدأ القتال من أجل الاستقلال .. كانت

كل شكوى المواطنين فيها من الضرائب وقيود التجارة ·· كانوا ينكرون فقط حق البرلمان البريطاني فى فرض الضرائب عليهم ما داموا غير ممثلين فيه ، فأرسلوا صيحتهم المشهورة « لا ضريبة بغير تمثيل » ·· ولم يكن لأبناء المستعمرات جيش ، ولكن كان لديهم وطن غنى يستطيع أن يسعفهم عندما يريدون فأنشأوا جيشهم على عجل ، وغدا واشنجطن القائد العام لهذا الجيش ، وانتهزت فرنسا الفرصة لتكيد لانجلترا فأعلنت عليها الحرب وكذلك صنعت اسبانيا ·

لقد تحول التيار اذا ضد انجلترا ، ولكن الحرب ظلت مستمرة بضع سنوات ، وفى سنة ١٧٧٦ أذيع اعلان الاستقلال المشهور ، وفى سنة ١٧٨٢ انتهت الحرب ووقعت معاهدة الصلح بين المتحاربين سنة ١٧٨٣ فى باريس ·

هكذا تحولت المستعمرات الثلاثة عشر الى جمهورية مستقلة أسمها الولايات المتحدة الأمريكية ، ولكن التنافس والغيرة بين هذه الولايات ظل يحتدم وقتا طويلا قبل أن يولد الشعور العام بالوطن الواحد ··

كانت الولايات المتحدة أول جمهورية عظيمة يعرفها العالم فلم يكن توجد فى ذلك الوقت جمهورية أخرى فى العالم كله غير سويسرا الصغيرة ·· فهولندا وان كانت جمهورية الا أنها كانت فى قبضة الارستقراطيين القليلين ، وانجلترا لم تكن ملكية فحسب بل كان برلمانها في يد طبقة الملاك الأغنياء فجاءت جمهورية الولايات المتحدة طرازا من الدول ليس لها ماض مثل دول آسيا وأوروبا ، وليس فيها اقطاع عريق ، فيما عدا نظام الرق فى الجنوب ليس فيها طبقة النبالة الموروثة ·· فالبورجوازية أو الطبقة المتوسطة حرة ليس أمامها عقبات تذكر تحول دون نموها ·· وبالفعل كان نموها سريعا ··· وكان تعداد الجمهورية عند استقلالها ٤ مليون ، ووصل سنة ١٩٣٠ الى ١٢٣ مليون ··

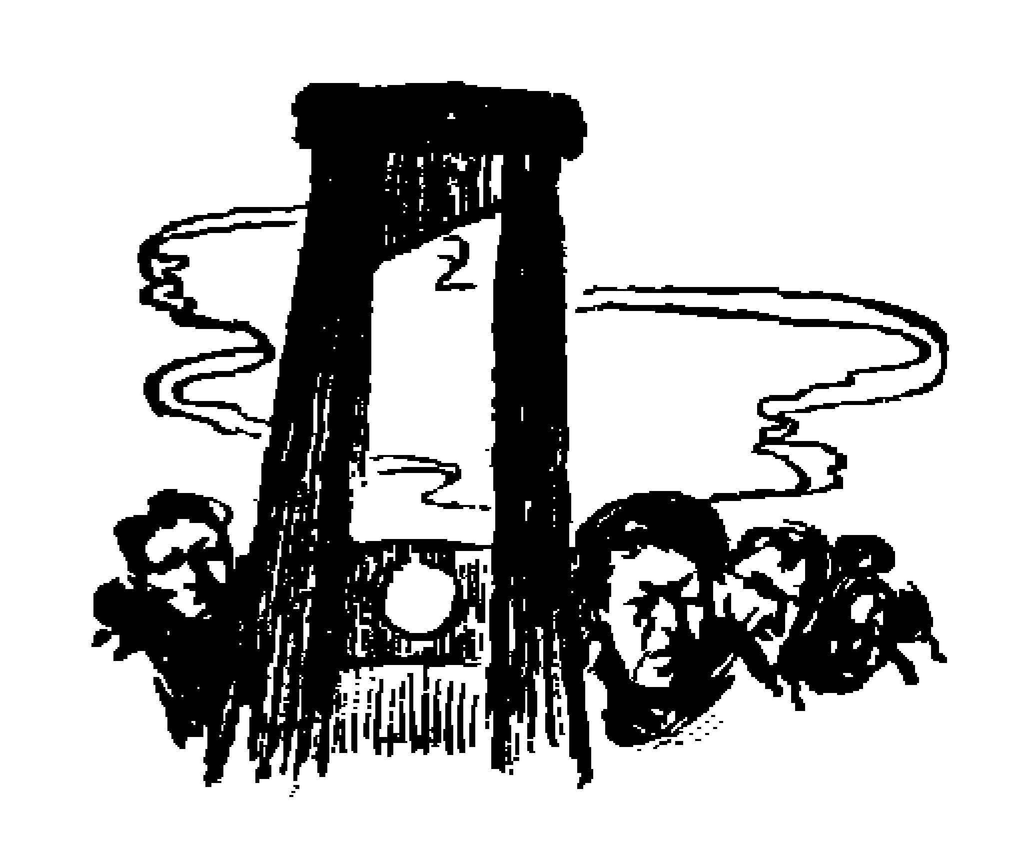
وأصبح جورج واشنجطن أول رئيس جمهورية للولايات المتحدة ·· وكان من كبار ملاك الأراضى فى ولاية فرجينيا ·· ومن بين عظماء ذلك العصر الذين يعتبرون بحق خالقى هذه الجمهورية ·· توماس بين وبنيامين فرانكلين ، وباتريك هنرى

وتوماس جيفرسون ، وآدمز وجيمس ماديسون ، وكان بنيامين فرانكلين عالما عظيما أثبت بواسطة استخدام ـ طائرات الورق التى يلعب بها الأطفال أن البرق الناشىء عن اصطدام السحب هو نوع من الكهرباء ..

أما اعلان الاستقلال ، فقد سجل أن كل الرجال يولدون متساوين .. وكانت الفكرة من وراء هذا النص هى القضاء على الفوارق الاقطاعية التى كانت تعرفها أوروبا ، وهذا فى حد ذاته تقدم عظيم .. ولا شك أن كثيرين من الذين صاغوا هذا الاعلان كانوا متأثرين بالفلاسفة والمفكرين الفرنسيين مثل فولتير وروسو ..

كل الرجال يولدون متساوين ! .. ومع ذلك فمازال هناك الزنوج التعساء ـ أرقاء بغير حقوق ، فماذا عنهم ؟ .. كيف يتلائمون مع الدستور الجديد ؟ ..

بعد سنوات كثيرة نشبت حرب أهلية عنيفة بين ولايات الشمال وولايات الجنوب انتهت بالغاء الرق ، ولكن مشكلة الزنوج ما زالت موجودة فى أمريكا الى اليوم ! ..



الثورة الفرنسية

١٠ اكتوبر ١٩٣٢ ..

ما أصعب الكتابة عن الثورة الفرنسيه ! انها صعوبة لاترجع الى قلة المعلومات عنها ، بل الى كثرتها ..

لقد كانت هذه الثورة دراما رائعة منوعة مليئة بالأحداث الخارقة التى ما تزال تبهرنا وترعبنا وتهزنا ..

أن سياسات الأمراء ورجال الدولة تدور فى المخادع والحجرات الخاصة ، يحيط بها جو من الغموض ، وعليها نقاب كثيف يغطى كثيرا من الخطايا ، ولغة مزخرفة زائفة ، تحجب صراع المطامع المتنافسة .. وحتى حين كان هذا الصراع يؤدى الى الحرب والى ارسال جيوش جرارة من الشباب الى حتفهم من أجل هذه المطامع والشهوات لا تسمع آذاننا أى اشارة الى هذه الدوافع الحقيرة .. بل تسمع كلاما عن الدوافع النبيلة والأغراض السامية التى تتطلب التضحية ! ..

ولكن الثورة شىء آخر تماما .. ميدانها ليس فى الحجرات المغلقة ولكنها فى الحقل والشارع والسوق ، ووسائلها غليظة

خشنة ، فالناس الذين يصنعونها ليست لهم ثقافة الأمراء ورجال الدولة ، لغتهم ليست موشاه أو مهذبة ولا هى تخفى شبكة من المؤمرات والخطط الشريرة لا غموض هناك ولا نقاب يغطى ما تتجه اليه أفكارهم ، حتى أجسادهم ليس عليها الا القليل تتغطى به ! ..

السياسة فى لحظات الثورة ليست مجرد رياضة للملوك والساسة المحترفين .. ولكنها تصبح تعاملا مع الحقائق ، صادرا عن الطبيعة الانسانية الخام ، والبطون الخاوية ..

وهكذا رأت فرنسا ، فى تلك السنوات الخمس الحاسمة من ١٧٨٩ الى ١٧٩٤ ، الجماهير الجائعة تعمل ، انهم الجائعون الذين أرغموا أيدى الساسة المرتعدة على الغاء الملكية والاقطاع وامتيازات الكنيسة ! .. انهم هم الذين قدموا القرابين الى المقصلة الرهيبة وانتقموا انتقاما قاسيا من أولئك الذين اضطهدوهم فى الماضى ، والذين اعتقدوا أنهم يتآمرون على حريتهم الجديدة ! .. ان هؤلاء الحفاة العراة هم الذين خفوا ليدافعوا عن ثورتهم فى أرض المعركة ، بأسلحة عتيقة ، قهروا بها الجيوش المدربة التى أرسلتها أوروبا المتحدة ضدهم ..

لقد صنع المعجزات هؤلاء الفرنسيون .. ولكنهم بعد سنوات رهيبة من التوتر والصراع ، كانت قوى الثورة قد انهكت فانقلبت على نفسها ، وأخذت تأكل بنيها ، ثم جاءت الثورة المضادة .. فابتلعت الثورة الأولى ، وأعادت الطبقات الممتازة لتتحكم فى أبناء الشعب الذين خاطروا وتحملوا كل هذا العناء ومن « الثورة المضادة » .. خرج نابليون وأصبح دكتاتورا وامبراطورا .. ولكن لا الثورة المضادة ولا نابليون استطاع أن يعيد الناس الى أماكنهم القديمة .. لا أحد استطاع أن يمحو الانتصارات الرئيسية للثورة ، ولا أحد استطاع أن ينتزع من الشعب الفرنسى ، بل ومن سائر الشعوب الأوروبية ، ذكرى تلك الأيام التى حكم فيها رجل الشارع حقا ، ولو لفترة قصيرة جدا ! ..

وفى أيام الثورة الأولى ، كانت هناك أحزاب وهيئات كثيرة تحارب من أجل السلطة .. كان هناك الملكيون يحاولون عبثا ابقاء الملك لويس السادس عشر بسلطاته الاستبدادية القديمة

وكان هناك الأحرار المعتدلون يريدون دستورا يبقى الملك بسلطات مقيدة ، ثم الجمهوريون المعتدلون ، وكان اسمهم « الجيروند » والجمهوريون المتطرفون ، وكان اسمهم « اليعاقبة » لأنهم اعتادوا أن يجتمعوا في قاعة دير يعقوب ..

تلك كانت المجموعات الرئيسية ، غير كثير من المغامرين .. وخلف كل هذه المجموعات الأفراد ، كانت جماهير الشعب الفرنسي وجماهير باريس بصفة خاصة ، تعمل تحت زعامة قادة مجهولين خرجوا من غمارها .. وفي البلاد المجاورة ، خصوصا انجلترا ، كان يوجد المهاجرون ، وهم النبلاء الفرنسيون الذين فروا من الثورة وأخذوا يتآمرون ضدها .. ووقفت كل القوى في أوروبا متحدة ضد فرنسا الثائرة .. انجلترا البرلمانية الارستقراطية ، مثلها مثل ملوك القارة وأباطرتها ، كانوا كلهم خائفين من غضبة الرجل البسيط في فرنسا ، ويحاولون كبتها ..

لقد تآمر الملك والملكيون ولكنهم لم ينجحوا الا في التعجيل بآجالهم ..

وكان أقوى حزب في الجمعية الوطنية في أول الأمر هو حزب الأحرار المعتدلين الذين كانوا يريدون دستورا على الطراز الانجليزي أو الأمريكي ، وعلى رأسه ميرابو .. وقد ظل هذا الحزب مسيطرا على الجمعية الوطنية ما يقرب من السنتين ، فاستطاع مدفوعا بانتصارات الأيام الأولى من الثورة — ان يسجل وثائق رائعة ويحقق تغييرات هامة .. وبعد عشرين يوما من سقوط الباستيل في ٤ أغسطس ١٧٨٩ ، شهدت الجمعية الوطنية دراما عنيفة .. كان الموضوع المطروح للبحث هو : الغاء الحقوق والامتيازات الاقطاعية .. وكان جو فرنسا في تلك الأيام مشحونا بعقلية جديدة تماما ، حتى أمراء الاقطاع كانوا يبدون وكأنهم قد ثملوا أيضا بخمر الحرية الجديدة !.. فوقف كبار رجال الاقطاع ورجال الكنيسة يتنافسون في التنازل عن حقوقهم الاقطاعية وامتيازاتهم الخاصة ! .. كانت بادرة شريفة كريمة منهم ، وبالرغم من أنها لم تنتج أثرها لبضعة سنين . فانه ليحدث في أحيان نادرة أن تبدى الطبقات الممتازة مثل هذه الدوافع النبيلة ! .. أو لعلهم أدركوا أن وقت

زوال امتيازاتهم قد حان فوجدوا أن سلوك هذا الطريق المتسم بالسخاء خير لهم وأبقى ..

وقد رأينا في الهند منذ أيام قليلة بادرة رائعة من هــذا النوع ، حين أعلن كهنة الهندوس الغاء التحريم الذى كان موضوعا على طائفة المنبوذين .. فكأن عصا سحرية مست تلك القيود التى وضعها الهندوس على أخوتهم فأسقطتها ، وانفتحت آلاف الأبواب التى ظلت موصدة في وجوه هؤلاء المنبوذين دهرا طويلا ..

وهكذا في جو من الحماسة ألغى برلمـان فرنسا الثـائرة حقوق الاقطاع ،ومحاكم الاقطاع والغى اعفاءالنبلاء من الضرائب بل وألغى حتى الألقاب .. وانصرفت الجمعيـة الوطنيـة الى وضع اعلان حقوق الانسان .. وربما كانت فكرة هذا الاعلان الشهير مأخوذة من اعلان الاستقلال الأمريكى .. ولكن الاعلان الأمريكى كان مختصرا بسيطا على عكس الاعلان الفرنسي الذى جاء طويلا .. وحقوق الانسان هذه هي الحقوق التى تكفل له الحرية والمساواة والسعادة ..

وقد كان هذا الاعلان بالنسبة لعصره عملا باسلا جريئا ، وقــد ظــل ما يقرب من مائة عام بعــد ذلك هــدفا للأحرار والديمقراطيين في أوروبا كلها .. ولكنه الآن يبدو عتيقا ، وعاجزا عن حل أى مشكلة من مشاكل عصرنا الراهن .. فقد احتاج الناس الى بعض الوقت كى يكتشفوا أن المساواة أمام القانون واباحة حق التوصيتللجميع لا يكفيان لتحقيق المساواة الحقيقية أو الحرية أو السعادة .. ذلك أن أولئك الذين يملكون القوة لديهم وسائل كثيرة لاستغلال الناس .. وقد تغير الفكر السياسى وتقدم منذ الثورة الفرنسية ، حتى أصبح أشـــد المحافظين مغالاة يتمسكون اليوم بالمبادىء الرنانة التى انطوى عليها اعلان حقوق الانسان .. ولكن ليس معنى ذلك كما يظن البعض أن هؤلاء المحـافظين يقبلون حقـا المسـاواة والحرية الحقيقيتين .. فهذا الاعلان في واقع الأمر يحمى الملكية الخاصة فالمقاطعات المملوكة للنبلاء الكبار والكنيسة التى صودرت كانت مصادرتها لأسباب أخرى تتصل بالحقوق والامتيازات الاقطاعية أما حق الامتلاك في ذاته فقد ظل حقا مقدسا لا يمس ..

وانت تعلمين أن المفكرين التقدميين الآن يعتقدون أن حق الملكية الخاصة شر يجب الحد منه ، بقدر الامكان !

قد يبدو اعلان حقوق الانسان لنا الآن وثيقة عادية ، ولكن كل الافكار الجريئة تصبح عادية بعد زمن . فحين أعلنت هذه الوثيقة اهتزت أوروبا كلها ، وبدت كأنها تحمل لكل المعذبين أملا في حياة أسعد . ولكن الملك لم يقبلها . كان يراها كفرا والحادا فرفض أن يصدق عليها . وكان مايزال يسكن فرساى . وهنا هب غوغاء باريس ، تقودهم النساء وزحفوا على فرساى حيث لم يكتفوا بارغام الملك على توقيع الميثاق فقط ، بل وعلى العودة الى قلب باريس أيضا .

ثم أقدمت الجمعية الوطنية على تغييرات أخرى نافعة . صادرت أملاك الكنيسة الواسعة ، وأعادت تقسيم فرنسا الى ٨٠ وحدة اقليمية ، وهو التقسيم الذى مايزال ساريا الى الآن فيما أظن ، ووضعت قوانين جديدة للمحاكم لتحل محل محاكم الاقطاع القديمة . ولكنها لم تذهب في ذلك كله الى الحد الكافي . فلم تصنع شيئا يذكر للفلاحين المتعطشين الى الأرض ولا لسكان المدن الباحثين عن الخبز ، وبدت الثورة كأنها قد القى القبض عليها أو ان قوة ما قد اعتقلتها !

ولم تكن الجماهير من الفلاحين ، أو سكان المدن ممثلة في الجمعية الوطنية قط . كانت الجمعية تحكمها الطبقة المتوسطة تحت زعامة ميرابو ، فلما شعرت هذه الطبقة بأنها حققت أهدافها ، بدأت تبذل كل جهدها لايقاف الثورة عند هذا الحد . وبدأ هؤلاء الزعماء يتحالفون مع الملك بل ويعدمون الفلاحين في الاقاليم . وأصبح زعيمهم ميرابو المستشار السرى الخاص للملك ..

وبدأ العامة الذين اقتحموا الباستيل وظنوا انهم حطموا أغلالهم ، يتساءلون ماذا يحدث هناك ؟ ان حرياتهم ماتزال بعيدة عنهم ، والجمعية الوطنية تحكمهم بنفس الطريقة التى كان يحكمهم بها الاقطاعيون القدماء ؟ .

واذ خاب أمل أهل باريس ، قلب الثورة النابض فى الجمعية الوطنية ، وجدوا لأنفسهم متنفسا فى بلدية باريس ، فكل قسم من أقسام المدينة التى تنتخب مندوبا عنها في المجلس

البلدى ، كان فيه تنظيم نشيط وثيق الاتصال بالجماهير . وأصبح المجلس البلدى منبرا للثائرين ، يضم خصوم جمعية الطبقة المتوسطة والمعتدلين .

وجاء يوم الذكرى الأولى لسقوط الباستيل ، واحتفل أهل باريس احتفالا هائلا فى ١٤ يوليو . وانطلق أهل باريس يقيمون الزينات فى المدينة على حسابهم لأن العيد عيدهم .

هكذا وقفت الثورة فى سنتى ١٧٩٠ و ١٧٩١ : الجمعية الوطنية فقدت ثورتها تماما واكتفت بما صنعت من تغيرات وشعب باريس مازال معبأ بالطاقة الثورية ، الفلاحون ينظرون نظرة جائعة الى الأرض . ولم يكن ممكنا أن يستمر الموقف على هذ النحو . فالثورة اما أن تمضى الى الامام أو تموت .

ومات ميرابو الزعيم المعتدل فى أوائل سنة ١٧٩١ . وكان بالرغم من عمله مستشارا للملك محبوبا من الناس وعلى صلة وثيقة بهم . وفى ٢١ يونيو سنة ١٧٩١ وقع حادث حدد مصير الثورة وحظها . ذلك هو فرار الملك لويس السادس عشر وزوجته مارى انطوانيت متخفيين .

وقد كاد الملكان الهاربان يصلان الى الحدود فعلا ، لولا أن بعض الفلاحين عرفوهما فى « فارنجان » بالقرب من فردان ، فأوقفوهما وأعادوهما الى باريس .

لقد خط الملك والملكة حظهما بهذا العمل . فقد انتشرت الدعوة الى الجمهورية بسرعة هائلة ، وان ظلت الجمعية الوطنية بمنأى عن هذا الاتجاه ، بل انها أطلقت النار على الجماهير التى طالبت بخلع لويس . وانطلقت السلطات فى طلب « مارا » ، أحد أبطال الثورة الكبار ، لانه هاجم الملك بعد فراره واتهمه بالخيانة ، فاضطر « مارا » الى الاختفاء من مطارديه فى بعض مجارى باريس ، حيث أصيب بمرض جلدى بشع .

ومع ذلك فقد ظل لويس ملكا ، ولو بالاسم ، سنة أخرى .. وفى سبتمبر سنة ١٧٩١ انتهت مدة الجمعية الوطنية وأخلت مكانها للجمعية التشريعية . وكانت معتدلة كسابقتها ولا تضم الا ممثلين للطبقات العليا . فلم تمثل قط الحمى المتزايدة فى فرنسا .

وانتشرت حمى الثورة بين الناس على نطاق واسع ، وبدأ

الجمهوريون المتطرفون اليعاقبة الذين خرجوا من غمار الناس يزدادون قوة ..

وفي نفس الوقت كانت القوى الاوروبية تراقب هذه الاحداث الغريبة بأعصاب متنبهة .

وقد ظلت بروسيا والنمسا وروسيا مشغولة بأمور أخرى لبعض الوقت ، مثل انهاء مملكة بولندا القديمة واقتسامها ، ولكن احداث فرنسا كانت تسير الى غايتها وتجتذب كل يوم المزيد من الانتباه ، وكانت النمسا تحتل بلجيكا ، وكانت لها تبعا لذلك حدود ملاصقة لفرنسا . وزحفت الجيوش الاوروبية الى أرض فرنسا وهزمت الجيش الفرنسى . وكان المفهوم أن الملك متحالف مع الاعداء الزاحفين ، وان الملكيين كلهم خونة . وكان الفرنسيون كلما تزايدت الاخطار أصبحوا أكثر حساسية وذعرا ، حتى أخذوا يرون الخونة والخيـــانة فى كل شىء . وتصدى مجلس بلدى باريس الثائر للقيادة فى هذه الأزمة ، ورفع الراية الحمراء ايذانا بأن الشعب قد أعلن الاحكام العرفية ضد خيانة القصر .

وفى ١٠ أغسطس سنة ١٧٩٢ أصدر أمر الهجوم على قصر الملك . وأمر الملك حرسه السويسرى باطلاق النار على المهاجمين ، ولكن الشعب انتصر وأرغم المجلس البلدى الجمعية التشريعية على اعتقال الملك ووضعه فى السجن .

والراية الحمراء كما يعرف الجميع هى الآن راية الشيوعية . ولكنها فى ذلك الوقت كانت تستعمل فى اذاعة نبأ اعـــلان الاحكام العرفية .

على أن وضع الملك فى السجن لم يكن كافيا . فانطلق شعب باريس فى سورة غضبه من اطلاق نار الحرس السويسرى عليه وقتل الـكثيرين منه ، كمـا انطلق مدفوعا بخوفه من الخونة والجواسيس ، يعتقل كل من يشتبه فيه حتى امتلأت السجون . ولا شك أن الكثيرين جدا من هؤلاء المعتقلين كانوا مذنبـين ، ولكن المؤكد أن كثيرين أيضا من الابرياء قد دخلوا السجون ، وبعد بضعة أيام هبت عاصفة أخرى من السخط ، فأخذت الجماهير تخرج المسجونين من سجونهم ، وبعد محاكمات صورية ، تحكم عليهم بالاعدام . وقد قتل أكثر من الف شـــخص فى

« مذابح سبتمبر » كما سميت .

كانت هذه أول مرة يذوق فيها غوغاء باريس طعم الدم على نطاق واسع . وقد سال بعد ذلك دم كثير ، قبل أن يهدأ الظمأ!

وفي سبتمبر هذا أيضا أحرز الفرنسيون أول نصر لهم على النمسويين والبروسيين الغزاة . وكان ذلك في معركة صغيرة في « فالمنا » .. صغيرة في نطاقها ، ولكنها كانت كبيرة جـدا في نتائجها .. فقد انقذت الثورة . .

وفي ٢١ سبتمبر سنة ١٧٩٢ اجتمع « المجلس الوطني » وهو جهاز جديد حل محل الجمعية التشريعية . كان أكثر تقدما من الجمعيتين ، ولكنه ظل سائرا خلف المجلس البلدي . وكان أول عمل للمجلس الجديد هو اعلان الجمهورية . وبعـد ذلك مباشرة تمت محاكمة لويس السـادس عشر ، وحكم عليـه بالاعدام ، وفي ٢١ يناير سنة ١٧٩٣ دفع رأسه ثمنا لاخطاء الملكية كلها !

وبذلك أحرق الفرنسيون كل المراكب خلفهم ! لقد أقدموا على هذه الخطوة الاخيرة ، معادين بذلك ملوك أوروبا وأباطرتها الى الابد . لارجعة الآن الى الوراء .. وعلى سلم المقصلة ،وقبل أن يغسل من دم لويس ، وقف دانتون ، قائد الثورة العظيم ، يخطب في الجماهير المحتشدة موجها تحديه الى كل الملوك .

ـ لقد تحدانا ملوك أوروبا ، فألقينا اليهم برأس واحـد منهم !!



ثورات سنة ١٨٤٨

٢٨ يناير سنة ١٩٣٣ :

أريد أن نلقى نظرة أخرى على الصورة التى لاتكف عن التغير لأوروبا خلال القرن التاسع عشر · وأظن انى حدثتك منذ شهرين فى بعض هذه الخطابات عن الملامح البارزة لهذا القرن· ولعلك مازلت تذكرين بعض تلك الاسماء التى ذكرتها مثل : الرأسمالية الامبريالية والوطنية والاشتراكية والدولية ·· الى آخره · وأظن أنى حدثتك أيضا عن الديمقراطية وعن العلم وعن التطور الخطير فى وسائل النقل وعن انتشار التعليم العام، وعن الصحافة الحديثة · ان هذه الاشياء ـ وغيرها ـ هى التى صنعت حضارة أوروبا فى ذلك القرن ـ الحضارة البورجوازية التى سيطرت فيها الطبقة المتوسطة على الصناعة الآلية ، فى ظل النظام الراسمالى · وقد تنقلت هذه الحضارة البورجوازية الأوروبية من نجاح الى نجاح·وصعدت قمة بعد قمة · فلم يكد القرن التاسع عشر يصل الى النهاية حتى كانت قد سجلت تفوقها وسيادتها فى العالم أجمع ·· ثم لم يلبث ان ظهر الخلل!

وقد رأينا اطرافا من آثار هذه الحضارة في آسيا أيضا .. عندما ذهبت أوروبا ــ مدفوعة بصناعتها النامية ــ تمد أيديها الى أراض بعيدة لكي تسيطر عليها وتستغلها لمصلحتها . وأنا أقصد بكلمة « أوروبا » هنا أوروبا الغربية بالذات ، التي كانت متفوقة على غيرها في حركة التصنيع وفي أوروبا الغربية كانت انجلترا الزعيمة التي لاتبارى ، متفوقة على الآخرين ، مستفيدة من هذه الزعامة الى أقصى الحدود ..

على أن كل هذه التغييرات الهائلة التي كانت تتوالى في غرب أوروبا ، لم تكن واضحة أو مفهومة لدى الملوك والاباطرة في مطلع القرن . فلم يدركوا أهمية القوى الجديدة الآخذة في النمو . ومنذ القضاء على نابليون نهائيا كانت الفكرة الوحيدة المسيطرة على أولئك الملوك هي أن يحافظوا على عروشهم وسلالتهم وان يجعلوا العالم ملائما لبقاء الاوتوقراطية . وكانوا في الوقت نفسه لم يبرؤوا بعد من الذعر الذي أصابتهم به الثورة الفرنسية ، فهم حريصون على أن لايتيحوا الفرصة لنشوب ثورة أخرى .

وكما قلت لك من قبل ، عقدوا بينهم ما اسموه بـ«المحالفة المقدسة » للمحافظة على « الحق الآلهي للملوك » ، ولمنع الناس من أن يرفعوا رؤوسهم ! وتحالفت الاتوقراطية والدين ، كالعادة
من أن يرفعوا رؤوسهم ! وتحالفت الاتوقراطية مع رجال الدين كالعادة المهمة وراء هذا الحلف .. ذلك ان بلاده ظلت حتى ذلك الوقت تعيش في ظلال القرون الوسطى ، لم تهب عليها نسمة واحدة من ريح الصناعة كانت المدن الكبيرة هناك نادرة ، والتجارة تافهة ، وحتى الصناعات اليدوية كانت في مستوى خفيض ، مما جعل الارستقراطية قوة وحيدة لاينازعها أحد . وعلى العكس من ذلك كانت الاحوال في سائر بلاد أوروبا . فكلما ذهب المرء الى الغرب كلما وجد الطبقة المتوسطة أكثر نموا ، حتى يصل الى انجلترا نفسها فلا يجد فيها أوتوقراطية على الإطلاق . فالملك مقيد بسلطة البرلمان ، والبرلمان نفسه في يد حفنة من الاغنياء . وكان الفارق كبيرا بين الاتوقراطية في روسيا والاغنياء الحاكمين في انجلترا ، ولكنهما كانا يشتركان في شيء واحد : الخوف من سواد الناس .. ومن الثورة .

هكذا كانت الرجعية مسيطرة منتصرة فى أوروبا . وكان كل مظهر له أقل حظ من الحرية يحارب بأشد قسوة ، بل أنه بمقتضى قرارات مؤتمر فيينا ١٨١٥ ، ألغيت بعض الجنسيات ، مثل ايطاليا ، وأدخلت ضمن الحكم الاجنبى ، وكان لابد للاحتفاظ بهذا الوضع من استعمال العنف . ولكن مثل هذا الوضع لايمكن أن يدوم ، فلابد من الاضطراب . وأصبحت أوروبا معبأة بالبخار ، الذى يعثر من حين الى آخر على منفذ له . وقد رويت لك من قبل قصة الاضطرابات التى وقعت سنة ١٨٣٠ ، والتى أدت الى بعض التغيرات ، مثل سقوط أسرة البوربون نهائيا فى فرنسا . ولكن هذه الاضـــطرابات أفزعت الملوك والاباطرة وأفزعت وزراءهم ، فاندفعوا يخمدون سخط الجماهير فى وحشية بالغة .

وقد رأيت خلال هذه الخطابات التغييرات الكبيرة التى كانت تحدث نتيجة للحروب أو الثورات . .

أما الحروب فقد كانت فى الزمن الماضى اما دينية أو عائلية أو وطنية ، وان كانت تخفى وراءها عادة بعض الأسباب الاقتصادية أيضـا .

وبوصولنا الى العصور الحديثة نجد أن الحروب الدينيـــة والعائلية قد اختفت . لم تنته الحروب طبعا ، بل لعلها زادت فى نطاقها ، ولكن أسبابها أصبحت سياسية واقتصـادية .ـ الاسباب السياسية مرتبطة عادة بالوطنية . كغزو دولة لدولة أخرى ، أو كصراع بين وطنيتين . ولكن حتى هذه الخلافات نجد لها أسبابا اقتصادية ، كاحتياج الدول الصناعية الى أســواق وخامات تستأثر بها .

وهكذا نجد أن العوامل الاقتصادية أصبحت ـ ومازالت الى الآن ـ هى الاسباب الأولى فى اشعال الحروب .

وقد حدث نفس التطور بالنسبة للثورات . كانت الثورات قديما تحدث فى بلاط القصور : أفراد أسرة حاكمة يتآمرون ضد بعضهم البعض ويتبادلون المكائد والاغتيالات .. أو انفجار يائس يقوم به الناس لانهاء حياة طاغية ، أو استيلاء جندى طموح على العرش بواسطة القوة المسلحة . مثل هـذه الثورات كان ينهض بها أفراد قلائل ، أما عامة الناس فكانوا لايشاركون فيها ، بل ولا يهتمون بها . فالحكام يتغيرون ولكن النظام يبقى

وحياة الناس لاتتغير . نعم ، هناك الحاكم الطاغية الذي لايحتمل والحاكم الذي يستطيع الناس احتماله ولكن سواء كان الحاكم طيبا أو رديئا فان الظروف الاجتماعية والاقتصادية كانت تبقى على حالها . أي أن الثورات ، لم تكن اجتماعية .

والثورات الوطنية تنطوي على تغير أكبر من ذلك : فحين تحكم احدى الدول دولة أخرى ، فمعنى ذلك ان طبقة حاكمة أجنبية هي التي تسيطر . وهذا الوضع يلحق بالدولة المحتلة اضرارا بالغة ، اذ معنى ذلك أن تكون الدولة المحكومة مكرسة لصالح الدولة الحاكمة والطبقة الاجنبية الحاكمة

هذا الوضع يؤدي الى الثورة الوطنية ، لأنه من ناحية يؤذي كرامة أبناء الدولة المحكومة . ويحرم الطبقات البارزة فيها من الوصول الى مراكز السلطة والنفوذ ، التي لولا الحكم الاجنبي لشغلها أبناء هذه الطبقات ، والثورة الوطنية الناجحة هي التي تطرد العنصر الاجنبي وتضع العناصر الوطنية القوية بدلا منها. ومعنى ذلك ان مثل هذه الثورة الوطنية تعود بالنفع أولا وقبل كل شيء على أبناء الطبقات العليا لأنهم هم الذين يستفيدون مباشرة من خروج العنصر الأجنبي .

أما الطبقات الفقيرة فلاشك أنها تستفيد أيضا اذ لاتعود بلادهم محكومة لحساب دولة أجنبية . ولكن فائدتهم تبقى ضئيلة ، مالم تكن الثورة الوطنية مصحوبة بثورة اجتماعية أيضا ..

والثورة الاجتماعية شيء يختلف تماما عن الثورات الاخرى التي لاتغير شيئا سوى السطح ، هي ثورة سياسية بغير شك، ولكنها تنطوي على شيء أكثر من ذلك ، اذ تغير تكوين المجتمع ذاته . فالثورة الانجليزية مثلا ، التي جعلت سلطة البرلمان هي العليا ، لم تكن ثورة سياسية فحسب ، بل كانت اجتماعية في بعض نواحيها ، اذ أدت الى مشاركة الطبقة الغنية للملك في سلطة الحكم . وبذلك ارتفعت تلك البورجوازية سياسيا واجتماعيا ، بينما لم ينل أبناء البورجوازية الصغيرة ولا عامة الناس شيئا . والثورة الفرنسية كانت ثورة اجتماعية ، بل وربما أكثر من ذلك قليلا ، فقد قلبت نظام المجتمع كله رأسا على عقب ، ولعبت الجماهير فيها دورا هاما .

وقد انتصرت البورجوازية هنا أيضا ، فقد أعادت الجماهير - بعد أن لعبت دورها - الى مكانها القديم ، وأخرجت في الوقت نفسه النبلاء أصحاب الامتيازات ..

فالثورات الاجتماعية اذا أبعد أثرا من التطورات السياسية، اذ أنها وثيقة الصلة بظروف المجتمع . والثورة الاجتماعية لايمكن أن يخلقها فرد طموح أو جماعة معينة ، مالم تكن الجماهير مهيأة ومستعدة لهذه الثورة بحكم الظروف .

ولست أقصد باستعداد الجماهير أن تكون متيقظة لماستفعله بعد اخبارها به . ولكنني أقصد أن تكون الظروف الاقتصادية والاجتماعية قد وصلت الى حالة أصبحت حياتهم معها عبئا لايجدون خلاصا منه الا فى تفكير كبير . حقا ، لقد كانت الحياة خلال قرون طويلة عبئا رهيبا بالنسبة لجماهير ضخمة من الناس، احتملت هذا العبء احتمالا غريبا . كانت هذه الجماهير تثور أحيانا ، ثورات فلاحين في الغالب ، ولكنها كانت تفقد رشدها من الغضب فتنطلق مدمرة ماكانت تستطيع أن تضع يدها عليه . ولكن هذه الجماهير كانت تثور خالية من أى رغبة فى تغيير النظام الاجتماعي . وان كان هذا الجهل لم يمنع انهيار تلك الاوضاع الاجتماعية مرة أخرى ، كما حدث فى روما القديمة ، وفى أوروبا فى العصور الوسطى وفى الهند والصين وغيرهامن الامبراطوريات التى اندثرت .

وفى الماضى . كانت التغييرات الاجتماعية الاقتصادية تتم فى بطء نظرا لأن وسائل الانتاج والتوزيع والنقل ظلت دهورا طويلة دون أن تتغير تغيرا يذكر . وعلى ذلك كان الناس لايلحظون هذا التغيير البطىء ويبقون على اعتقادهم بأن النظام الاجتماعى القديم أبدى لابديل له . كذلك ساهم الدين فى وضع هالة من القداسة حول هذه النظم ، وما يصاحبها من عقائد وتقاليد . وأصبح الناس على درجة من الاقتناع بدوام هذه الأوضاع حتى انهم لم يفكروا قط فى أى تغيير للنظام الاجتماعى بالرغم من تغيير الظروف تغيرا كبيرا . ولكن بظهور الثورة الصناعية وتغير وسائل النقل هذا التغيير الرهيب ، أصبحت التغييرات الاجتماعية أسرع من ذى قبل . لقد قفزت طبقات جديدة الى المقدمة وأصبحت واسعة الثراء . وظهرت

طبقة من العمال الصناعيين تختلف تماما عن طبقة العمال اليدويين أو الزراعيين . كل ذلك أصبح يقتضي تغييرا اقتصاديا وسياسيا عاجلا . وأصبحت أوروبا الغربية في حالة غريبة من القلق . والمجتمع الحكيم هو المجتمع الذي يقدم على التغييرات الضرورية اذا دعت اليها الحاجة وبذلك تفيد من التطور . ولكن المجتمعات ليست في العادة عاقلة ، ولا هي تفكر تفكيرا جماعيا بل ان أفرادها يفكر كل واحد لنفسه ومن أجل مصلحته ، كما ان الطبقات التي تضم أفرادا تتشابه مصالحهم تعمل لحساب نفسها . فاذا كانت هناك طبقة تحكم مجتمعا من المجتمعات ، فأنها تريد أن تبقى حاكمة مسيطرة تستغل الطبقات الادنى منها . والعقل والنظر البعيد يؤكد أن الخير في المدى الطويل لايصيب فردا الا اذا كان خيرا للمجتمع الذي يعيش فيه هذا الفرد ، ولكن الفرد صاحب السلطة أو الطبقة صاحبة السلطة لاتريد الا أن تبقى على سلطتها . وأسهل طريقة لذلك هي محاولة اقناع سائر الطبقات والافراد بأن النظام الاجتماعي القائم هو خير نظام يمكن قيامه . وفي ذلك يساهم رجال الدين ،ويساهم التعليم ، حتى يصل الى اقناع الناس بعدم جدوى أي تغيير على الاطلاق . وما أكثر ماينجح رجال الدين ورجال التعليم في ذلك . حتى الذين يقاسون أكثر من غيرهم يصلون الى الاقتناع بحق النظام الاجتماعي القائم في الاستمرار .. ببقائهم جائعين خانعين بينما يستمتع الآخرون بالحياة المترفة .

هكذا نجد أناسا يعتقدون أن النظم الاجتماعية شيء لايتغير وأن فقر الأغلبية لا ذنب فيه لأحد . انها في رأيهم «القسمة» أو « الحظ » أو « جزاء ماقدمت أيديهم فيما مضى » . فالمجتمع دائما محافظ يكره التغيير ، يحب أن يبقى حيث هو ويؤمن بأنه خلق ليبقى حيث هو . ومن أجل ذلك نرى المجتمع كثيرا مايعاقب أولئك الذين يريدون أن يخرجوه من الوحل الذي يعيش فيه .

ولكن الظروف الاقتصادية والاجتماعية لاتنتظر لحسن الحظ ، انها تمضي وتتغير ولو بقيت آراء الناس جامدة . وبالتدريج تتسع مسافة الخلف بين الحقيقة الواقعة وبين المعتقدات القديمة بحيث لايبقى هناك مفر من عمل شيء لتقليل مسافة الخلف بين

الاثنين والا تعرض النظام للكارثة والانهيار ٠

تلك هي الظروف التى تخلق الثورة الاجتماعية الحقيقية ٠ فاذا وصلت الأمور الى هذا الحد فلا مفر من نشوب الثورة ، مهما تأخرت بفعل انتشار المعتقدات القديمة ٠

أما اذا لم تتوفر هذه الظروف ، فان أى عدد من الأفراد لايمكن أن يخلقها مهما بذلوا من جهود ٠

أما اذا انفجرت الثورة فعلا فسرعان مايسقط القناع الذى كان يخفى الأوضاع الحقيقية عن العيـــون وسرعان مايدخل الفهم الى عقول الناس ٠ والناس اذا خرجوا من الجحر لايلبثون أن يزحفوا الى الامام ٠ وهذا هو السبب فى أن الناس فى أيام الثورات يتقدمون بنشاط عجيب ٠

هكذا تأتى الثورة نتيجة حتمية للرجعية المتحجرة ٠ أما اذا تجنب المجتمع غلطة الاقتناع بدوام النظم الاجتماعية واحتفظ بمرونته وقدرته على التطور مع تغير الظروف ، فأنه لايتعرض للثورة الاجتماعيـــة أبدا ٠ اذ يحل محـــل الثورة : التطور المضطرد ٠٠

لقد استطردت فى الحديث معك عن الثورات دون أن أقصد والواقع أن هذا الموضوع يثيرنى ويعجبنى ، فالعالم الآن يغمره القلق فى كل مكان ، والنظام الاجتماعى يقف فى كثير من البلاد على وشك الانهيار ، مما يدعو المرء الى الاعتقاد بأن العالم يقبل على تطورات خطيرة ٠

ففى الهند ، كما فى غيرها من البلادالمستعمرة ، نجدالشعور الوطنى دافقا قويا ٠ ولكن هذا الشعور القومى الدافق يتركز أساسا بين الطبقات الميسورة الحال ٠ أما الفلاحون والعمال ، وغيرهم ممن يعيشون فى عوز دائم ، فانهم بالطبع مهتمون بملء بطونهم أكثر مما يهتمون بالاحلام الوطنية المجردة ٠ الوطنية بالنسبة لهم لاتعنى شيئا مالم تحمل اليهم مزيدا من الطعام ٠ وعلى ذلك فالمشكلة فى الهند اليوم ليست سياسية فقط ، بل واجتماعية أيضا ٠

لقد اندفعت فى هذا الحديث الطويل عن الثورات بمناسـبة شروعى فى الحديث عن تلك الثورات التى غمرت أوروبافى القرن التاسع عشر ٠

وكثير من هذه الثورات كان من نوع الثورات الوطنية ضد الغاصب الأجنبي . الا أن الافكار الثورية في البلاد الصناعية بالذات أدت الى مزيد من الخلاف بين طبقة العمال الجديدة والرأسماليين أصحاب الصناعات . وبدأ الناس يفكرون ويعملون في انتباه من أجل الثورة الاجتماعية .

وجاء عام ١٨٤٨ الذى يسمى فى أوروبا عام الثورات . فقد نشبت الثورات فى كثير من البلاد ، ونجح بعضها وان كان أغلبها قد انتهى الى الفشل . كانت الوطنية المقهورة وراء الثورة فى بولندا وايطاليا وبوهيميا وهنجاريا .

كانت ثورة بولندا ضد بروسيا وكانت ثورة بوهيميا وشمال ايطاليا ضد النمسا . وقد أخمدت جميعا . أما الثورة الهنغارية ضد النمسا فقد كانت أكبرها جميعا . وقد تزعمها « لوجوس كوساث » الذى يذكره تاريخ المجر كأحد الوطنيين وأبطال الحرية الخالدين . وبالرغم من سنتين كاملتين من المقاومة ، فقد أخمدت هذه الثورة أيضا .

وبعد فترة أخرى من الزمن نجحت المجر فى نيل استقلالها بواسطة ثورة أخرى من نوع جديد قادها زعيم اسمه « دياك ». وقد أصبحت حركة المقاومة السلبية التى تزعمها دياك ، بعد نصف قرن ، نموذجا للحركة الايرلندية ضد انجلترا .

وفى سنة ١٩٢٠ عندما بدأت حركة عدم التعاون فى الهند ، ذكر كثيرون كفاح « دياك » .. وان كان ثمة فروق كثيرة بين الطريقتين ..

وقد نشبت ثورة أخرى فى المانيا أيضا سنة ١٩٤٨ ولكنها لم تكن ذات خطر ، فتم اخمادها مع وعد باجراء بعد التعديلات لتهدئة الخواطر .

أما فى فرنسا فقد تم تغيير كبير . فمنذ طرد البوربون كان يحكم فرنسا الملك لويس فيليب ، وكانت ملكية شبه دستورية . وفى سنة ١٨٤٨ ثار الناس عليه وأرغموه على التنازل ، ثم أعلنت الجمهورية مرة أخرى .. الجمهورية الفرنسية الثانية ، اذ كانت الأولى خلال الثورة .

وانتهز ابن أحد أخوة نابليون ـ لويس بونابرت ـ فرصة الاضطراب ، فعاد الى باريس ، وتظاهر بانه من أنصار الحرية

الكبار ، فانتخبه الفرنسيون رئيسا للجمهورية الجديدة . ولم يكن تظاهره بأنه من أنصار الحرية الا خدعة ليصل الى القوة . فلما اطمأن الى قوته ، واطمأن الى سيطرته على الجيش ، عمد سنة ١٨٥١ الى عمل انقلاب . حاصر باريس وأطلق الرصاص على الناس وأرهب أعضاء البرلمان . وفى السنة التالية أعلن نفسه امبراطورا ، وسمى نفسه نابليون الثالث ..

وهكذا انتهت الجمهورية الثانية فى فرنسا ، بعد عمر قصير غير مجيد لم يدم أكثر من أربع سنوات .

ولم تقع فى انجلترا خلال سنة ١٨٤٨ ثورة ما ، ولكنها تعرضت لاضطرابات ومتاعب خطيرة . ولانجلترا أسلوب خاص بهافي الرضوخ عندما تهددها بوادر اضطراب خطير ، وبذلك تتجنب وقوعه . فدستورها المرن يسهل لها ذلك من ناحية ، كما ان الخبرة الطويلة عودت الانجليزى على أن يقبل الحل الوسط اذا لم يعد ثمة طريق آخر أمامه .. وبذلك تجنبت انجلترا كثيرا من التغيرات الكبيرة المفاجئة التى تعرضت لها الدول الأخرى لأن دساتيرها أكثر صلابة وأبناءها أقل مرونة ..

فى سنة ١٨٣٢ شهدت انجلترا اضطرابا كبيرا من أجل اصدار قانون الاصلاح الذى أعطى حق الانتخاب لعدد أكبر من المواطنين ، فبمقتضاه اقتصر حق الانتخاب على عدد من أبناء الطبقة المتوسطة، أما العمال والأغلبية الساحقة من الناس فلم يكن لهم حق الانتخاب .. وكان البرلمان من أجل ذلك فى يد حفنة من الأغنياء الذين كانوا لا يريدون فقد هذه الميزة التى يعيدهم الى مقاعد مجلس العموم فى كل انتخاب دون أى عناء ..

وقد قاوم هؤلاء الأغنياء اصدار هذا القانون بكل قوتهم ومهارتهم ، وكانوا يرددون أن انجلترا سوف تنهار ، والعالم سوف ينتهى ، اذا تم اصدار ذلك القانون ! .. ووصلت انجلترا الى مرحلة الخوف من وقوع حرب أهلية .. قبل أن يوافق البرلمان على اصدار هذا القانون .. ولم تتمزق انجلترا بل ولم يتغير البرلمان كثيرا ، فقد ظل واقعا تحت سيطرة نفس الحفنة من الأغنياء .. وان كانت الطبقة المتوسطة الميسورة الحال قد نالت مزيدا من القوة ..

فلما جاءت سنة ١٨٤٨ تعرضت البلاد لهزة جديدة ٠٠ فقد قامت حركة ضخمة تريد ارغام البرلمان على الموافقة على اصطلاحات أخرى كثيرة ٠٠ وبعد أن أفزعت هذه الحركة الطبقات الحاكمة الى حد بعيد ، تم اخمادها ٠٠ ولكن السخط بين طبقات العمال ظل محتدما ٠٠ فبدأ البرلمان يصدر أول قوانين للعمال ٠٠ وهى قوانين كانت لاتفيد العمال الا قليلا ٠٠

وفى ذلك الوقت كانت انجلترا تحصل على أرباح هائلة من تجارتها المتزايدة ٠٠ كانت قد أصبحت « مخزن العالم » كله فى التجارة ٠٠ وكانت أغلب هذه الارباح تذهب طبعا الى أصحاب المصانع ، فلا يتسرب منها الى العمال الاالتافه القليل ولكن هذا القليل على أية حال ساعد على تأجيل الثورة التى أوشكت على النشوب سنة ١٨٤٨ ٠٠ وان بقى خطرها معلقا فى الأفق ٠٠

●●●



داروين وانتصار العلم

٣ فبراير ١٩٣٣ :

تعالى نترك حديث الشعراء وننتقل الى حديث العلماء .. فاننى أخشى أن يكون الشعراء ما زالوا معتبرين قوما غير نافعين .. أما العلماء فانهم صانعوا المعجزات فى هذا العصر هم الآن أصحاب القوة والشرف ولم يكن هذا شأنهم قبل القرن التاسع عشر ..

فى القرون الأولى كانت حياة العلماء فى أوروبا معرضة للخطر الدائم ، وكثيرا ما انتهت بفاجعة .. وقد رويت لك من قبل كيف أحرقت الكنيسةفى روما العالم « جيوردانو برونو » وبعد ذلك بسنوات ، فى القرن السابع عشر ، كاد جاليليو يلقى حتفه بنفس الطريقة ، لأنه قال أن الأرض تدور حول الشمس ! .. فلم يفلت من الحرق بتهمة الكفر الا بعد أن اعتذر عن نظريته ، وسحب الآراء التى نادى بها ! ..

الى هذا الحد كانت الكنيسة فى أوروبا تخالف العلموتقاومه وتكبت الآراء الجديدة .. أما العلم « الرسمى » فى أوروبا وغيرها فقد كان يدين ببضع نظريات يجب على العلماء جميعا أن يسلموا بها دون أى مناقشة ! ..

ولكن العلم له طريقة أخرى فى النظر الى الأشياء ، أنه

لايأخذ شيئا قط على أنه قضية مسلم بها دون مناقشة .. أنه يدعو الى التفكير الحر ومواصلة البحث عن الحقيقة، بواسطة مزيد من التجارب والاختبارات ، وواضح أن هذا الانجاه يختلف تماما عن اتجاه الكنيسة .. فليس غريبا بعد ذلك أن يحتدم الخلاف بين العلم والكنيسة الى أقصى الحدود ..

وما أحسب الا أن التجارب العلمية كانت شيئا عرفه كثير من الناس فى جميع العصور .. فانه يقال مثلا أن الهند القديمة كانت متقدمة جدا فى الطب والكيمياء ، ومثل هذا لا يمكن أن يتم الا بعد كثير من التجارب والابحاث .. كذلك أحرز الاغريق بعض التقدم فى هذا الميدان ..

أما الصين فقد قرأت منذ قريب ابحاثا مدهشة ، عن اكتشاف مؤلفات لبعض الكتاب الصينيين ترجع الى ١٥٠٠ سنة مضت ، تثبت أن هؤلاء الصينيين كانوا يعرفون شيئا عن نظرية النشوء والارتقاء ، وعن الدورة الدموية فى الجسد ، على أننا لا نعرف حتى الآن معلومات كاملة عن هذه الابحاث والنتائج الأخيرة التى وصلت اليها .. ولا يملك الانسان نفسه من التساؤل اذا كانت الحضارات القديمة قد عرفت المنهج العلمى ، فلماذا أهملته بعد ذلك ؟ .. لماذا لم تستخدمه لتحقيق مزيد من التقدم ؟ .. أم تراها لم تكن تعلق أهمية كبيرة على هذا النوع من التقدم ؟ ..

ما أكثر الأسئلة التى تخطر على البال .. لولا أننا لا نملك المعلومات الكافية للاجابة عليها ! ..

وقد كان العرب مغرمين الى أقصى حد بالتجارب ، وقد سارت أوروبا على نهجهم خلال العصور الوسطى .. على أن تجارب العصور الوسطى لم تكن علمية بالمعنى الصحيح .. كان هم الناس فيها منصرفا الى البحث عما كانوا يسمونه بـ « حجر الفلاسفة » الذى كانوا يعتقدون أنه سوف يحول المعدن الرخيص الى ذهب .. وكثير من الناس من أنفقوا أعمارهم فى تجارب معقدة أملا فى العثور على سر تحويل المعادن الى ذهب ، وكانت هذه التجارب تسمى « الكيمياء » .. كذلك كانوا يبحثون فى دأب عن « اكسير الحياة » الذى يمنح الانسان الحياة الدائمة .. على أنه لا يوجد أى شىء يدل على

عثور أى انسان على حجر الفلاسفة أو أكسير الحياة ، اللهم الا فى القصص الخرافية ..

كانت الابحاث اذا تجرى وراء أحلام الناس فى الثروة والقوة والعمر الطويل .. وليس هذا من روح العلم فى شىء فالعلم شىء آخر غير السحر والشعوذة ..

وقد نشأ المنهج العلمى الحقيقى وتطور تدريجيا فى أوروبا ومن بين ألمع الأسماء فى تاريخ العلم العالم الانجليزى « ايزاك نيوتن » .. الذى عاش من سنة ١٦٤٢ الى سنة ١٧٢٧ ..

لقد وضع نيوتن قانون الجاذبيه .. أى شرح لنا لماذا تقع الأشياء على الأرض اذا تركت معلقة فى الهواء .. وعن طريق هذا القانون ، وبعض قوانين أخرى تم اكتشافها ، استطاع أن يشرح حركة الشمس « والاجرام السماوية » .. وبدا أن كل شىء يمكن تفسيره على أساس هذه النظرية .. ونال نيوتن عليها تشريفا كبيرا ..

ومضى العلم يعزز انتصاراته ضد الكنيسة ... ولم يعد ممكنا انكار اكتشافاته أو الحكم على مكتشفيها بالموت .. ومضى كثير من العلماء يعملون فى صبر ، ويجربون ويسجلون الحقائق والمعارف خصوصا فى انجلترا وفرنسا ، ثم فى ألمانيا وأمريكا . وانك لتذكرين أن القرن الثامن عشر كان القرن الذى انتشر فيه العقل بين الطبقات . والذى بزغ فيه فولتير وروسو وغيرهم من الفرنسيين العباقرة الذين كتبوا فى شتى الموضوعات ووضعوا خميرة التفكير فى عقول الناس .. أنه أيضا القرن الذى تكون فى رحمه جنين الثورة الفرنسية .

وقد اتفقت هذه النظرة العقلية مع النظرة العلمية التى أوجدها العلماء ، واتحد الاثنان فى جبهة واحدة ضد الكنيسة

ومن صفات القرن التاسع عشر الرئيسية ، أنه عصر العلم فالثورة الصناعية والتغيرات الهائلة فى وسائل النقل وغير ذلك كان من نتائج العلم .. فقد غيرت المصانع وسائل الانتاج وربطت السكك الحديدية والبواخر بين أجزاء العالم وضيقت المسافات ، وكان التلغراف الكهربائى أعجوبة أخرى ..

واهتزت الأفكار القديمة تحت ضغط هذه التغيرات الهائلة

وتراخت قبضة الكنيسة الى حد بعيد ، فأنه من طبيعة الحياة الصناعية ـ على عكس الحياة الزراعية ـ أن تدفع الناس الى مزيد من التفكير في العلاقات الاقتصادية ..

وفي منتصف ذلك القرن ، أو في سنة ١٨٥٩ بالتحديد ، ظهر في انجلترا كتاب خطير دفع بالخلاف بين النظرة العلمية والنظرة المؤمنة الى غايته .. ذلك هو كتاب « أصل الأنواع » لمؤلفه شارلز داروين ..

وداروين لا يوضع عادة بين كبار العلماء ، ذلك أنه لم يأت بجديد ..

وكثير من علماء الجيولوجيا والطبيعة عملوا قبل داروين وحصلوا على معلومات كثيرة .. ومع ذلك فان كتاب داروين هو الذى صنع العصر كله .. فقد خلق تأثيرا عاما وساعد على تغير النظرة الى المشاكل الاجتماعية ، أكثر مما فعل أى كتاب علمي آخر ..

كان صدور هذا الكتاب بمثابة انفجار بركان عقلي ، جعل داروين رجلا شهيرا ..

لقد طاف داروين بجنوب أمريكا والمحيط الهادى كعالم طبيعي ، وجمع من كل مكان كمية هائلة من المعلومات والحقائق ثم استعمل كل ما جمعه في شرح كيف أن كل نوع من الحيوانات تغير وتطور بالاختيار الطبيعي .. كان الناس قبل ذلك يعتقدون أن كل نوع من الحيوان حتى الانسان قد خلق منفصلا عن الأنواع الأخرى وأنه بقى كما خلق دون أن يتغير فأى نوع من المخلوقات ـ اذا ـ لا يمكن أن يتحول الى نوع آخر ..

ولكن داروين أثبت بعديد من الأمثلة الحقيقية ، أن الأنواع تتغير من نوع الى آخر ، وان هذه هي الطريقة الطبيعية للتطور وهي طريقة الاختيار الطبيعي .. فأى تغير بسيط في نوع من الأنواع ، اذا كان نافعا لهذا النوع بأى صورة من الصور أو اذا ساعده على أن يعيش أكثر من غيره من الأنواع ، فانه يؤدى بالتدريج الى تغير مستمر .. لأن مزيدا من هذه الأنواع المتغيرة سوف يوجد . وبعد قليل تصبح هذه الأنواع المتغيره هي الأغلبية .. ثم تطغى على الأنواع الأخرى ، فلا يمضى بعض

الأسلوب تتتابع التغيرات واحدا بعد الأخر ، فلا يمضي بعض الوقت الا وقد ظهر نوع جديد تماما ٠٠ وبمرور الزمن تظهر أنواع جديدة كثيرة عن طريقة البقاء للاصلح بواسطة الانتخاب الطبيعي ٠٠ وهذا التطور يمكن أن يحدث بالنسبة للنبات والحيوان ٠٠ وللانسان أيضا ٠٠ ومن الممكن ـ بناء على هذه النظرية ـ أن يكون ثمة أصل مشترك لجميع النباتات والحيوانات التي نعرفها الآن ٠٠

وبعد سنوات قليلة نشر داروين كتابا آخر اسمه « سلالة الانسان » طبق فيه نظريته الأولى على الانسان ٠٠

وهذه النظرية عن التطور والاختيار الطبيعي مقبولة الآن من كثير من الناس ، وأن لم تعد في صورتها الأولى التي وضعها داروين وأتباعه ٠٠ ومن الأمور العادية اليوم أن يستعمل الانسان مبدأ الاختيار صناعيا لاخراج أنواع أرقى من الحيوانات والفاكهة والزهور وسائر المزروعات ٠٠ وأغلب الحيوانات والنباتات التي تنال الجوائز في المسابقات الآن تعتبر أنواعا جديدة ، تم خلقها صناعيا ٠٠ فاذا كان الانسان يحصل على هذه النتائج ، وفي مثل هذا الزمن القصير ، فأي شيء تعجز عنه الطبيعة في عملية تطور مستمر ، وخـــلال مئات وآلاف من السنين ٠٠

ان زيارة قصيرة لأى متحف للتـــاريخ الطبيعأى كمتحف جنوب كنسجتون في لندن مثلا ترينـا كيف أن النبـاتات والحيوانات تعدل نفسها باستمرار لتتلائم مع الطبيعة ٠٠

كل هذا يبدو لنا الآن واضحا بسيطا ٠٠ ولكنه لم يكن واضحا بسيطا هكذا منذ مائة سنة بل أن أغلب الناس في أوروبا ما زالوا يؤمنون حتى الآن بأن العالم خلق قبل ميلاد المسيح بأربعة آلاف سنة فقط ٠٠ وان كل زرع أو حيوان قد خلق كما تعرفه الآن ٠٠

وكل هذا لا يتلائم مع نظرية داروين فان داروين وعلماء الجيولوجيا يحسبون عمر الأرض بملايين السنين ، لا بفترة قصيرة تبلغ ستة آلاف سنة ٠٠ وقد أدى ذلك الى اضطراب عظيم في عقول الرجال والنساء ٠٠ وكثيرون جدا من الناس الطيبين وقفوا حائرين لا يعرفون ماذا يصنعون ؟ ٠٠ ايمانهم

القديم يطالبهم أن يعتقدوا فى أى شىء ، وعقلهم يقـول شيئا آخر ٠٠ والناس اذا آمنوا بعقيدة ما ، ثم تعرض ايمانهم لهزة عنيفة شعروا باليأس والتعاسة والضياع ٠٠ اذ لا يجدون أرضا صلبة يقفون عليها ٠٠

هكذا احتدم النقاش والخلاف بين رجال العلم ورجال الدين فى انجلترا وغيرها من بلاد أوروبا ٠٠ وأظن أنه ليس هناك شك فى النتيجة فان العالم الجديد عالم الصناعة والآلات والنقل السريع يقوم على العلم ، فليس من الممكن رفض هـذا العلم ٠٠

انتصر العلـم اذا على طول الخـط ٠٠ وأصـبحت كلمات « الاختيار الطبيعى » ٠٠ و ٠٠ « البقاء للأصلح » شائعة فى القاموس العادى للناس ، الذين كثيرا ما يستعملون هـذه العبارات دون أن يدركوا تماما أى معان تنطوى عليها ٠٠

ومن الغريب أن الطبقات الحاكمة لم تتأخر عن تفسير نظرية داروين بحيث تناسب مصالحها ٠٠ وبحيث تجعلهـا دليـلا جديدا يؤكد تفوقهم : أنهم بغيرشك أقوى من الآخرين وأقدر فى معركة الحياة ! ٠٠ انهم قد وصلوا بحكم قانون « الاختيار الطبيعى » الى القمة وأصبحوا هم الطبقة الحاكمة ! ٠٠ الطبقة التى تحكم الطبقات الأخرى والجنس الذى يحكم أجناسا أخرى وجد فى هذه النظرية حجة جديدة له ٠ بل لقد أصبحت هذه النظرية حجة للاستعمارنفسه : فابناء الجنسالأبيض يعتقدون أنهم كلما زادوا سطوة وقوة كلما كانوا أكثر تقدما فى مدارج الرقى الانسانى !! ٠٠ انها فلسفة كريهة بغير شك ، ولكنها تفسر كثيرا من سلوك الاستعمار الغربى فى آسيا وأفريقيا ٠

وقد تعرضت نظريات داروين لنقد كثير من العلماء ٠ ولكن الخطوط الرئيسية فيها ما زالت صامدة ٠٠ ومن نتائج الأخذ بهذه النظرية أنها جعلت الناس يؤمنون بفكرة التقدم ، بأن الانسان والمجتمع بل والعالم كله يسير الى الأمام ، من الحسن الى الأحسن ٠٠ على أن هذه الفكرة لم تـكن وليـدة نظريات داروين وحدها ٠٠ فان الاكتشافات العلمية والثورة الصناعية كلها ساهمت فى اعداد عقول الناس لتقتل هذه النظرية ٠٠٠ فلما جاءت نظرية داروين وجدت الأرض مهيأة لها ٠ وأصبح

الناس يتصورون أنفسهم سائرين الى الأمام من نصر الى نصر نحو الكمال الانسانى ، مهما كان نوع هذا الكمال ! .

ويجب أن نلاحظ أن فكرة التقدم هذه كانت جديدة تماما انها لم توجد من قبل فى أوروبا أو آسيا ، أو فى أى حضارة قديمة .. فى أوروبا حتى ظهور الثورة الصناعية .. كان الناس ينظرون الى الماضى على أنه المثل الأعلى .كانوا يعتقدون أن عصر الاغريق والرومان هو أزهى عصور البشر وأكثرها حضارة وثقافة ، وأن العالم يتأخر وينحط ويسير من سيىء الى أسوء ..

وفى الهند نجد نفس الفكرة ـ فكرة الانحطاط والعصر الذهبى الذى مضى والأساطير الهندية كلها تقدر الزمن دائما بالحديث عن عصر باهر مجيد « ستايا يوجا » ثم تنتهى الى العصر الحاضر وتسميه عصر الشيطان « كالا يوجا » ..

ففكرة التقدم الانسانى اذا فكرة جديدة تماما .. ومعرفتنا الحالية بالتاريخ القديم تجعلنا نؤمن بهذه الفكرة ..

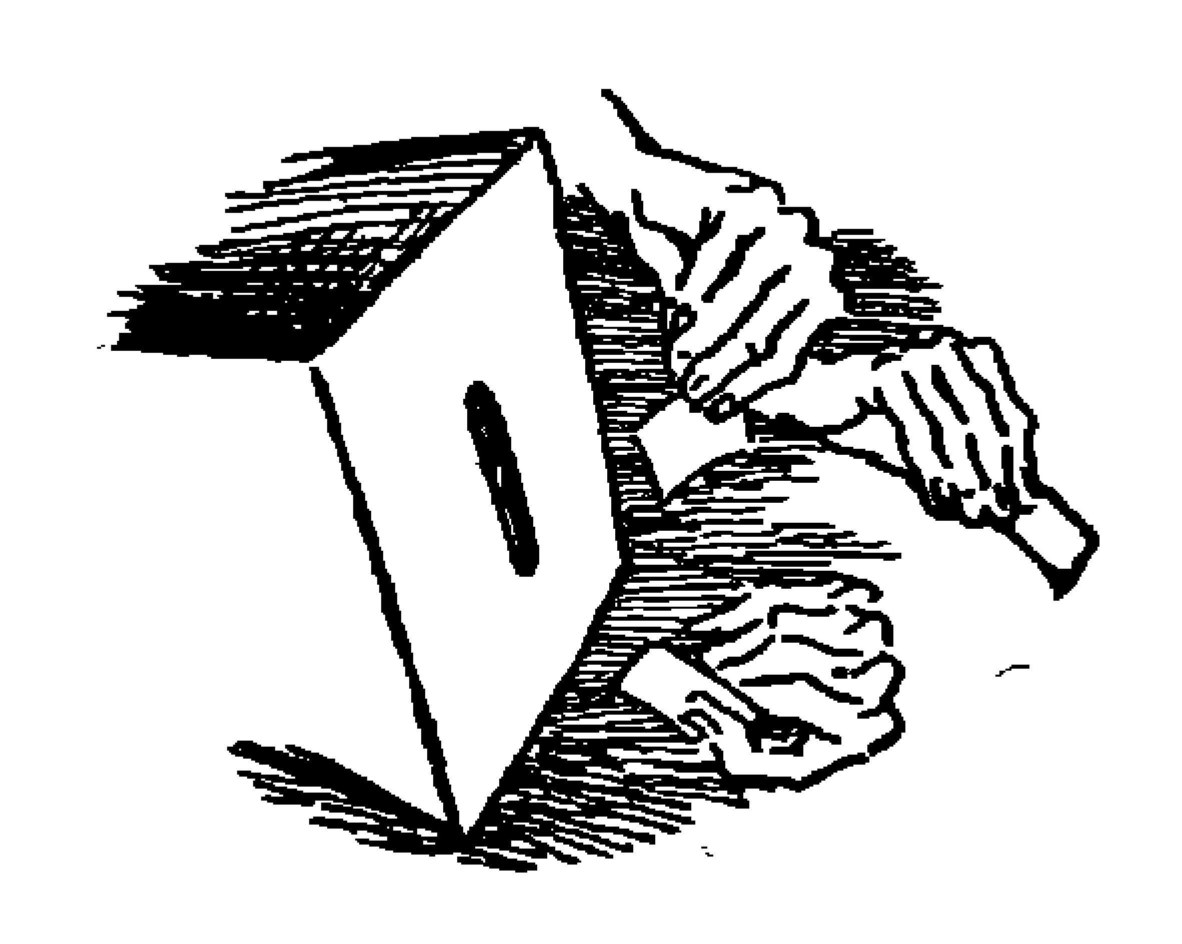
ومع ذلك فان معلوماتنا حتى الآن يشوبها كثير من النقص وربما لو تكاملت لدينا المعلومات لتغيرت فكرتنا بعض الشىء بل اننا لانجد اليوم فى هذا الايمان بالتقدم نفس الحرارة التى كانت تملؤه فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر . ومن الناس من يقول الآن : اذا كان هذا التقدم يدفعنا الى أن ندمر بعضنا البعض على هذا النطاق الواسع الذى رأيناه فى الحروب العالمية ، فلا شك أن هناك عيبا ما فى هذا التقدم ..

وناس آخرون يقولون الآن أن قول داروين بأن البقاء للأصلح . ليس معناه بالضرورة .. أن يكون البقاء للأحسن ..

على أن الذى يهمنا فى النهاية هو أن الاقتناع القديم بوجود مجتمع ثابت لا يتغير ، قد نحاه العلم جانبا ، وحل محله الايمان بمجتمع ديناميكى متغير ..

وبمناسبة حديثى هذا عن نظرية داروين فى أصل الأنواع قد يكون من الطريف أن أروى لك ما كتبه فيلسوف صينى اسمه « تسون تسى » فى هذا الموضوع منذ ٢٥٠٠ سنة

أى قبل المسيح بستة قرون ، وفى زمن بوذا تقريبا ..
قال الفليسوف الصينى :
« كل الأشياء مبتدعة من نوع واحد .. هذا النوع الواحد تعرض لكثير من التغيرات التدريجية المستمرة ، حتى انتهى الى كل هذه الأشياء المختلفة الأشكال .. هذه الأشياء لم تتشكل وتختلف مرة واحدة ، بل على العكس ، قد اختلفت خلال التغيير التدريجى ، جيلا بعد جيل !! » ..
هذا الكلام كما ترين قريب جدا من نظرية داروين ! .. وانه لمن الغريب أن يصل ذلك البيولوجى الصينى القديم الى هذه النتيجة التى كان على العالم أن يقضى ٢٥٠٠ سنة أخرى قبل أن يعود فيكتشفها من جديد ! ..
لقد ضاعف العلم من سيطرة الانسان على الطبيعة ولكن الانسان بكل قوته هذه لم يعرف كيف يسيطر على نفسه .. فمضى يسيىء التصرف ويضيع خيرات العلم فيما لا ينفع .. ولكن العلم بالرغم من ذلك مضى قدما فى موكبه ، وفى خلال مائة وخمسين عاما أحدث فى العالم من التغيير مالم تحدثه آلاف السنين من قبل ..
وما زال العلم ماضيا حتى الآن الى الأمام ، وربما بسرعة أكبر .. فلا يكاد الانسان يشترى آلة ويركبها ويعدها للعمل حتى تكون قد أصبحت طرازا قديما بما ظهر بعدها من آلات أحدث وأقدر .. وها نحن نرى الكهرباء تحل محل البخار فى كل شيء .. مما سوف يؤدى الى ثورة أخرى فى الصناعة
واليوم .. نرى آلافا مؤلفة من العلماء يعملون بغير كلل فى كل فروع العلم .. وأكبر اسم الآن بين هؤلاء العلماء هو البرت اينشتين الذى نجح فى تعديل نظرية نيوتن التى أشرنا اليها من قبل ..
وقد بلغ من سرعة التقدم العلمى .. ان العلماء أنفسهم قد أخذهم الروع ، وفقدوا كبرياءهم الأول ! .. انهم يشكون الآن فى كل نتيجة يصلون اليها ، وكل مستقبل يتنبؤون به !
ولكن هذا الشك وليد القرن العشرين ووليد أيامنا الراهنة فحسب أما القرن التاسع عشر ، فقد ركع البشر فيه أمام العلم ، معتقدين أنه الرب الجديد !! ..



تقدم الديمقراطية

١٠ فبراير ١٩٣٣ :

رويت لك فى خطاب سابق لمحات عن تقدم العلم فى القرن التاسع عشر .. وأريد الآن أن أحدثك عن ناحية من نواحى التقدم فى هذا القرن ، وأعنى تقدم الفكرة الديمقراطية ..

ولعلك ما زلت تذكرين حديثى لك عن حرب الأفكار فى فرنسا فى القرن الثانى عشر ، وعن « فولتير » أعظم كتاب هذا العصر ومفكريه ، وآخرين غيره من الذين تحدوا المعتقدات القديمة عن الدين والمجتمع ، والذين قدموا فى جرأة عجيبة أفكارا جديدة ..

وقد ساد هذا التفكير فى فرنسا فى ذلك الوقت على نطاق واسع .. أما فى ألمانيا فقد كان الفلاسفة مهتمين بمسائل فلسفية أشد تعقيدا .. وفى انجلترا كانت التجارة والأعمال فى تزايد مستمر ، والناس هناك غير مغرمين بالتفكير ما لم تضطرهم الظروف الى التفكير اضطرارا ! ..

ومع ذلك فقد ظهر فى انجلترا فى النصف الثانى من القرن

الثانى عشر كتاب خطير . ذلك هو كتاب « آدم سميث » عن ثروة الأمم .. وهو ليس كتابا فى السياسة ، ولكن فى الاقتصاد السياسى .. فحتى ذلك الوقت كان الاقتصاد كغيره من العلوم ، مختلطا بالدين وبالأدب ، مما جعله عرضة للكثير من الاضطراب والخلط .. ثم جاء آدم سميث فعالج الاقتصاد معالجة علمية ، متحاشيا كل التعقيدات الأدبية ، محاولا أن يعثر على القوانين الطبيعية التى تتحكم فى الاقتصاد ، والاقتصاد — كما لابد تعرفين — يتحدث عن دخل الأفراد ونفقاتهم ، أو دخل الدولة كلها ونفقاتها عما ينتج الناس وما يستهلكون ، عن علاقاتهم بغيرهم من الدول وغيرهم من النـاس .. وكان آدم سميث .. يؤمن بأن كل هذه العمليات المعقدة تتم طبقا لقوانين طبيعية محددة سجلها فى كتابه .. وكان يؤمن أيضا بأنه لابد من اعطاء الحرية الكاملة للحياة الصناعية حتى تؤتى هذه القوانين نتائجها .. وهو مذهب « دعهم يعملون » الذى حدثتك عنه من قبل ..

وكتاب آدم سميث هذا لا شأن له بالأفكار الديمقراطية الجديدة التى كانت تتبلور فى ذلك الوقت فى فرنسا . ولكن هذه المعالجة العلمية لمشكلة من أهم المشاكل التى تؤثر فى مصائر الأفراد والشعوب ، تدل على أن الانسان كان آخذا فى اتجاه جديد غير الاتجاه اللاهوتى القديم .. وآدم سميث يعد الآن أبو علم الاقتصاد ، وقد أثر فى كثيرين جدا من رجال الاقتصاد الانجليز فى القرن التاسع عشر ..

وقد ظل علم الاقتصاد الحديث قاصرا على الأساتذة وعلى عدد قليل من خاصة المثقفين ، ولكن الأفكار الديمقراطيـة الجديدة كانت فى ذلك الوقت تنتشر بسرعة .. ثم جاء نجاح الثورة الأمريكية والثورة الفرنسية فكان بمثابة دعاية واسعة أكسبت هذه الأفكار شعبية هائلة .. فقد هزت الناس تلك الكلمات الرنانة التى احتوى عليها اعلان الاستقلال الأمريكى واعلان حقوق الانسان الفرنسى .. كانت هذه الكلمات بمثابة رسالة خلاص للملايين من المظلومين والمستعبدين ، فكل من الوثيقتين تتحدث عن الحرية والمساواة وحق كل فرد فى أن يستمتع بسعادة .. ومع أن اعلان هذه الحقوق الآن لم يؤد

مباشرة الى فوز الناس بها . (بل أن الذين يستمتعون بهذه الحقوق الآن ، وبعد قرن ونصف من اعلانها ، ما زالوا قليلين) ! ..
فقد كان مجرد اعلان هذه الحقوق عملا عظيما ، باعثا على الأمل ..

لقد كانت الفكرة القديمة في أوروبا وفي كل مكان ، والفهم السائد للمسيحية وغيرها من الأديان ، أن الخطيئة والشقاء قدر مكتوب على الانسان . وبدت الأديان ـ بهذا التفسير ـ وكأنها تخص التعاسة والشقاء في هذا العالم بمركز دائم ممتاز .. وكأن كل ما تعد به البشر من جزاء ، مكانه في عالم آخر .. أما في هذا العالم فقد كان علينا أن نصبر على قدرنا وأن لا نعمل على أي تغيير جوهري .. كانت تشجع الاحسان والتصدق على الفقراء ولكنها لا تقدم أي فكرة للقضاء على الفقر ذاته أو على النظم التي تؤدي الى هذا الفقر ..

والديمقراطية لا تزعم أن كل الناس سواء .. وهي لا تستطيع أن تزعم ذلك ، اذ أنه من الواضح جدا أن بين الناس فروقا كثيرة .. هناك فروق جسدية تجعل من الرجال من هم أقوى من غيرهم ، وفروق عقلية تجعل بعض الناس أذكى أو أحكم من سواهم ، وفروق اخلاقية تؤدي الى وجود من هم أقل أنانية من الآخرين ، وان كان جانبا كبيرا من هذه الفروق يعود الى ظروف التربية والتعليم ..

خذي ولدين أو بنتين على درجة واحدة من الاستعداد ، واعطي أحدهما تعليما واحرمي الآخر من التعليم ، وسوف ترين بعد سنوات قليلة ان ثمة فارقا هائلا بين الاثنين أو أعطي الواحد طعاما صحيا كافيا والآخر طعاما رديئا ناقصا .. وسترين أن أولهما سينشأ قويا سليما صحيحا في حين يصبح الآخر ضعيفا يائسا عليلا . اذا فالتربية والثقافة ، والبيئة التي ينشأ فيها الانسان ، تتسبب في خلق كثير من الفروق بين الناس الى حد كبير . كل هذا ممكن . ولكن فيما يتعلق بالفكرة الديمقراطية ، نجد أنها تعترف بأن الأفراد ليسوا في الحقيقة متساوين ، ولكنها مع ذلك تعطيهم جميعا نفس القيمة السياسية والاجتماعية . فاذا سلمنا بهذه الفكرة الديمقراطية كاملة فسوف يؤدي بنا ذلك الى نتائج ثورية خطيرة .

ولسنا هنا بصدد تقصى هذه النتائج جميعا ، ولكن أبسط نتيجة لها هى أن يكون لكل مواطن الحق • فى أن يعطى صوته فى انتخاب الحكومة أو البرلمان الذى يمثل الشعب • فالصوت الانتخابى هو رمز القوة السياسية ، واذا أعطينا كل مواطن حق التصويت فمعنى ذلك اننا ساوينا بين الجميع فى القوة السياسية • وهكذا كان أول مطالب الديمقراطية خلال القرن التاسع عشر هو المساواة بين الجميع فى حق التصويت •

ولكن الذى حدث ، أن معظم الذين نالوا حق التصويت اكتشفوا أن الأمر بالنسبة لهم لم يتغير كثيرا ! فبالرغم من أنه قد أصبح من حقهم أن يشتركوا فى الانتخابات ، فقد ظلوا بعيدين عن أى نفوذ فى الدولة أو ليس لهم من النفوذ الا التافه القليل ••

كان الصوت قليل النفع بالنسبة للرجل الجائع ، وظل أصحاب السلطة الحقيقة هم أولئك الذين يفيدون من جوعه ويجعلونه يفعل أى شىء يرونه فى مصلحتهم • وهكذا ظهر أن القوة السياسية التى يمنحها هذا الصوت ليست الا ظلا لا حقيقة له ، مادام مجردا من القوة الاقتصادية ، وأن أحلام الديمقراطيين النبيلة عن المساواة التى سوف يحققها تعميم حق الانتخابات ، لم تسفر عن شىء !

على أننى قد سبقت الحوادث قليلا ، فهذا التطور الأخير لم يظهر الا فيما بعد ، أما فى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر ، فقد كانت حماسة الديمقراطيين لعقيدتهم هائلة ، وكان الاعتقاد سائدا بأن الديمقراطية سوف تجعل كل واحد من المواطنين حرا مساويا لغيره ، وان الحكومة سوف تعمل من أجل سعادة الجميع •

وكانت الحملة فى القرن الثامن عشر عنيفة على أوتوقراطية الملوك والحكومات وعلى الطريقة التى كانت تستغل بها سلطتها المطلقة •• وكان من نتائج ذلك ان نصت اعلانات حقوق الانسان على الحقوق الفردية • ولعل فى اعلان الحقوق الفرنسى والامريكى بعض الخطأ من هذه الناحية • ففى مجتمع معقد كالذى نعيش فيه ، ليس من السهل أن نفصل بين الافراد ونعطى كلا منهم حرية كاملة •

فهذا الوضع سوف يؤدى الى تصادم مصالح الأفراد بمصالح المجموع . ومهما كان الأمر فقد دافعت الديمقراطية دفاعا عنيفا عن الحرية الفردية . .

وقد تأثرت انجلترا التى كانت متخلفة فى التفكير السياسى خلال القرن الثامن عشر ، بالثورتين الامريكية والفرنسية . وكان أول أثر بدا عليها ، هو الخوف من أن تؤدى هذه الديمقراطية الجديدة الى ثورة اجتماعية فى الجزيرة نفسها ، فأصبحت الطبقات الحاكمة أكثر رجعية ومحافظة من ذى قبل. ولكن الأفكار الجديدة ظلت تنتشر بين المثقفين . وظهر فى ذلك الوقت رجل انجليزى مرموق اسمه « توماس بين » كان يعيش فى أمريكا خلال الحرب الأهلية ، وقام بمساعدة الثوار هناك. وكان مسئولا الى حد كبير عن توجيه الامريكيين نحو فكرة الاستقلال التام . فلما عاد الى نجلترا الف كتابا اسمه « حقوق الانسان » دافع فيه عن الثورة الفرنسية التى كانت قد بدأت فى ذلك الوقت ، وهاجم الارستقراطية ، ودعا الى الديمقراطية. ومن أجل ذلك طاردته الحكومة الانجليزية ، ففر الى فرنسا وفى باريس لم يلبث أن أصبح عضوا فى المجلس الوطنى الذى كان يتزعم الثورة ، ولكن اليعاقبة المتطرفين القوا به الى السجن سنة ١٧٩٣ ، حين عارض فى اعدام الملك لويس السادس عشر .

وفى سجون باريس الف كتابا ثانيا أسماه « عصر العقل » هاجم فيه التفكير الدينى . ولما سقط روبسبيير وأعدم ، أطلق سراح توماس بين . ولما كان وجوده فى فرنسا قد جعله بعيدا عن متناول المحاكم الانجليزية ، فقد حكمت هذه المحاكم بالسجن على الناشر الذى قام بطبع هذا الكتاب فى انجلترا . فمثل هذا الكتاب كان يعد خطرا على المجتمع ، اذ كان التفكير الدينى يعتبر ضروريا لابقاء الفقراء فى مكانهم ، وقد دخل السجن كثيرون ممن حاولوا نشر كتاب « بين » كان من بينهم عدد من النساء .

ومن الطريف أن نذكر أن الشاعر شيللى كتب رسالة طويلة يعترض فيها على هذه الاحكام . .

كانت الثورة الفرنسية هى أم المبادىء الديمقراطية التى انتشرت فى أوروبا خلال النصف الاول من القرن التاسع عشر

وبالرغم من أن الظروف فى فرنسا قد تغيرت بسرعة الا أن مبادىء الثورة ظلت تتوالد وتنتشر ..

كانت هذه الأفكار بمثابة رد فعل لطغيان الملوك وكانت مبنية على أسس سابقة على ظهور الصناعة . ولكن الصناعة الحديثة ـ جاءت فقلبت النظم القديمة رأسا على عقب .

ومن الغريب أن الديمقراطيين المتطرفين فى أوائل القرن التاسع عشر ، لم ينتبهوا لهذا التغير العميق ، وظلوا يرددون العبارات الاخاذة التى صاغتها الثورة وميثاق حقوق الانسان . فهل بدا لهم هذا التغير ماديا بحتا ، لاصلة له بالمطالب الروحية والسياسية التى كانت تنادى بها الديمقراطية ؟! ولكن الاشياء المادية لها واقع صارم يرفض أن يتجاهله أحد ! أنه لمن الممتع أحيانا أن نلاحظ كم هو صعب على الناس أن يتركوا معتقداتهم القديمة المتداعية ويغلقون أعينهم عن الظروف المتطورة . يرفضون أن يروا شيئا . انهم قد يكافحون من أجل القديم ولو كان هذا القديم ضارا بهم . انهم قد يقبلون أى شىء ،الا أن يسلموا بالافكار الجديدة ويكيفوا أنفسهم بما يلائمها . أن للمحافظة على القديم سلطانا خارقا حتى على المتطرفين ، الذين يحسبون أنفسهم متقدمين أنهم كثيرا مايلتصقون بالمبادىء القديمة ليتقبلوا معتقدات جديدة ! انهم يغلقون عيونهموعقولهم ولا عجب بعد ذلك أن يكون التطور بطيئا على الدوام ، وأن توجد مسافة واسعة من الخلف بين أحوال الناس الحقيقيةوبين معتقداتهم ، الأمر الذى يؤدى الى خلق هذه المواقف الثورية .

هكذا بدت الديمقراطية للكثيرين ، مجرد استئناف لمبادىء الثورة الفرنسية . وعجز هؤلاء الديمقراطيون عن مجاراة الظروف الجديدة هو الذى أدى الى ضعف الديمقراطيةفى نهاية القرن التاسع عشر ، ثم الى كفر الكثيرين بها خلال هذا القرن العشرين ..

وعندنا فى الهنداليوم ، مازلنانجد كثيرين من الزعماء المتقدمين يرددون كلمات الثورة الفرنسية وحقوق الانسان ، غير معترفين بكل ماحدث منذ ذلك التاريخ ..

وقد كان طبيعيا أن يحتكم الديمقراطيون الأوائل فى

كل شيء الى العقل ماداموا يدعون الى حرية الفكر والقول والتعمير ..

وفي هذا اتفقت الديمقراطية مع تقدم العلم ، وبدأ الناس يتجاسرون على انتقاد الانجيل نفسه ، كأنه كتاب كغيره من الكتب ، لايجب تقبله تقبلا أعمى دون تفكير . ووصل نقاد الانجيل الى نتيجة هي . ان الانجيل عبارة عن مجموعة من الوثائق كتبها أفراد متعددون في عصور مختلفة ! .. وقالوا أيضا ، أن المسيح لم يكن يرمي الى ايجاد ديانة جديدة ! ..

ولما كانت الأسس الدينية القديمة قد تزعزعت تحت تأثير العلم ، فقد كان طبيعيا أن تبذل محاولات كثيرة لوضع فلسفة جديدة تحل محل الدين القديم . قام باحدى هذه المحاولات فليسوف فرنسي اسمه أوجست كونت عاش من سنة ١٧٩٨ الى سنة ١٨٥٧

كان كونت يعتقد أن المعتقدات الدينية القديمة قد أصبحت شيئا عتيقا ولكنه كان يعتقد أيضا أنه لابد من وجود عقيدة ما، كضرورة اجتماعية ، فدعا الى « دين الانسانية » وأطلق عليه اسم « الموضوعية » وقال أن هذا الدين يقوم على الحب والنظام والتقدم ، وانه ليس فيه شيء خارق لأنه يقوم على أساس علمي ككل فكرة في القرن التاسع عشر ، وعلى أساس ارتقاء الجنس البشري . ولم يصبح دين « كونت » عقيدة الا لعدد قليل من المثقفين فقط ، ولكن أفكاره بوجه عام كان لها تأثير عظيم في الفكر الاوروبي كله وقد كان في الواقع بدء علم الاجتماع الذي يهتم بالمجتمات الانسانية والثقافية .

وبعد « كونت » ظهر نصير آخر له هو « جون ستيوارت ميل » الفيلسوف والاقتصادي الانجليزي الذي عاش من سنة ١٨٠٦ الى ١٨٧٢ كان ميل متأثرا بتعاليم كونت وبآرائه الاجتماعية .

وقد حاول أن يدفع المدرسة الانجليزية في الاقتصاد السياسي نحو وجهة جديدة ، غير التي كانت تسير عليها منذ آدم سميث بادخال جانب من التفكير الاجتماعي على التفكير الاقتصادي . وقد اشتهر بأنه زعيم نظرية جديدة بدأت قبل ذلك بقليل في انجلترا ووصلت الى ذروتها على يده وهي مدرسة تتوخى

تحقيق « أكبر قسط من السعادة لأكبر عدد من الناس » كما يقول شعارها ، وكان هذا الشعار عندها هو الامتحان الحقيقى للتفرقة بين الخطأ والصواب ، فالعمل يعتبر صوابا بقدر ما يحقق للناس من سعادة ، ويعتبر خطأ بقدر ما يحرم الناس من السعادة ، والمجتمع والحكومة يجب أن يقوم كل منهما على هذا الأساس ، أساس تحقيق أكبر قسط من السعادة لأكبر عدد من الناس ..

وهذه الفكرة ليست هى الفكرة الديمقراطية الأولى بالضبط التى كانت تدعو الى حقوق متساوية لجميع الافراد ، فتحقيق أكبر قسط من السعادة لاكبر عدد من الناس قد يعني التضحية أو الشقاء لعدد أقل من الناس . وأنا أشير الى هذا الفارق فحسب ، دون أن أفكر فى مناقشته فالديمقراطية على أية حال تعنى حق الاغلبية .

وكان جون ستيوارت ميل مدافعا قويا عن الفكرة الديمقراطية فيما يتعلق بالحرية الفردية . وقد وضع كتابا صغيرا أسماه «فى الحرية » لم يلبث أن ذاعت شهرته سأقتطف لك منه فقرة عن حرية القول والرأى ..

« ان أسوأ مافى كبت الرأى هو أنه يعد سرقة للجنس البشرى فما زال الخير الناتج عن الفكر أكثر بكثير من الشر ، والرأى الممنوع اذا كان صوابا ، فقد أضعنا فرصة استبدال هذا الصواب بالخطأ القائم . واذا كان خاطئا فقدنا ماهو أهم ، ألا وهو : الاقتناع بالصواب الذى نحن فيه بمقارنته بالخطأ . انه لايمكن أبدا الجزم بأن الفكر الممنوع خطأ .. ولو جزمنا بذلك ، فان منعه يعد شرا ، بالرغم من ذلك ! »

أنه كما ترين ليس تفكير رجل مؤمن ، ولكنه تفكير رجل فيلسوف ، باحث عن الحقيقة ! ..

وبعد .. لقد ذكرت لك عددا قليلا من أسماء المفكرين الكبار الذين ظهروا فى غرب أوروبا فى القرن التاسع عشر ، لاظهرك على الافكار التى كانت سائدة فى ذلك الوقت ، ولتكون لك بمثابة علامات الطريق ، فى عالم التفكير . ولكن هذه الافكار لم تتعد أول الأمر الطبقات المثقفة . ثم تسربت بعد ذلك عن طريق المثقفين الى الآخرين . وبالرغم من أن تأثير هذه الافكار المباشر

على الجماهير كان ضعيفا ، الا أن آثارها غير المباشرة كانت هائلة بل أن تأثيرها المباشر فى بعض الحالات كان عظيما ، اذا أدت الى تعميم حق الانتخاب ..

ولما تقدمت السن بالقرن التاسع عشر ، ظهرت حركات وآراء جديدة ، ظهرت حركة الطبقة العاملة ، والاشتراكية . وقد أثرت هذه الحركات والنظريات الجديدة على التفكير الديمقراطى السائد كما تأثرت به .ومن الناس من ينظرون الى الاشتراكية كبديل للديمقراطية ومنهم من يعتبرها جزءا ضروريا متمما لها. وقد رأينا - كيف كان الديمقراطيون ممتلئين ايمانا بالحرية والمساواة ، وحق كل فرد فى السعادة .

ولكنهم سرعان ماأدركوا أن السعادة لاتتحقق بمجرد اعتبارها حقا للجميع . فبعد كل شىء ، كان لابد من قسط مناسب من الحياة المادية . والانسان الجائع لايمكن أن يكون سعيدا .. مما دفعهم الى التفكير فى أن السعادة تتوقف على وجود توزيع أعدل للثروات بين الناس ، وهذا أدى بهم الى الاشتراكيـــة ، وهى نظرية يجب أن تنتظر رسالة تالية :

وفى النصف الأول من القرن الثـــامن عشر ، تحـــالفت الديمقراطية والوطنية فى كل مكان قام فيه الصراع من أجل الحرية . ومازينى الايطالى مثل دقيق لهذا النوع من الوطنيين الديمقراطيين . وحين تقدم هذا القرن فقدت الوطنية هـــذه الصفة الديمقراطية ، وأصبحت أكثر عدوانا وتسلطا . وأصبحت الدولة هى الاله الذى يجب أن يعبده كل مواطن ..

ولقد قاد رجال الاعمال الانجليز الصناعة الحديثة دون أن يكونوا معجبين اطلاقا بالمبادىء الديمقراطية العالية أو حق الناس فى الحرية . ولكنهم اكتشفوا ان اعطاء الناس مزيدا من الحرية يعود بالخير على مصالحهم ، فهى ترفع مستوى العمـــال وتعطيهم الاحساس بالاستقلال ، وتجعلهم أكثر صلاحية لعملهم الدقيق . كذلك انتشر التعليم الشعبى للحصول على مزيد من الكفاية الصناعية .

ولما أدرك رجال الاعمال الانجليز هذه الحقيقة وافقوا على منح الناس هذه الحقوق !



ظهور الإشتراكية

١٣ فبراير سنة ١٩٣٣

حدثتك فى الرسالة السابقة عن تقدم الديمقراطية ، ومرة أخرى ، أحب أن أذكرك ، فى هذه الرسالة بأنه كان تقدما شاقا كافح الديمقراطيون من أجله كثيرا . فالذين لهم مصلحة فى نظام قائم يرفضون أى تغيير له ، بل ويقاومونه بكل مايسعهم من القوة . وكل تقدم أو تحسن معناه أن على النظام القائم ، أو الحكومة القائمة، أن تخلى مكانها لما هوأحسن .والذين يريدون تقدما من هذا النوع لابد لهم من مهاجمة النظم القديمة والعادات الموروثة .

وهكذا يؤدى بهم الطريق الى الانكار المستمر للظروف السائدة والى الصراع المرير مع أولئك الذين يستفيدون من بقاء تلك الظروف .

ولقد قاومت الطبقات الحاكمة فى أوروبا التقدم خطوة خطوة . فى انجلترا مثلا ، لم تسلم الطبقات الحاكمة بالمطالب السابقة الا حين أدركت أن مقاومتها لن تؤدى الا الى ثورة عنيفة .

وأذكرك بشيء آخر : ان هذه المبادىء الديمقراطيــة كانت خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر قاصرة تقريبا على المثقفين ٠ أما عامة الناس فقد تأثرت حياتهم تأثرا شديدا بنمو حركة التصنيع ، اذ هجروا الارض متجهين الى المصـــــانع ٠٠ وبدأت طبقة من العمال الصناعيين تنمو فى مدن صناعية كريهة وغير صحية ٠ كانت تنشأ على الأغلب بجوار مناجم الفحم ٠ وقد أخذ هؤلاء العمال يتغيرون بسرعة ، وتتكون لهم عقلية جديدة، حتى أصبحوا شيئا مختلفا تماما عن الفلاحين والصناع اليدويين، الذين احتشدوا فى المصانع تحت وطأة الجوع ٠ وكمـا كانت انجلترا أسبق الدول فى اقامة المصانع ، فقد كانت أسبقها فى نمو هذه الطبقة من العمال الصناعيين ٠

وكانت الاحوال فى المصانع مرعبة ، وبيوت العمال أوجحورهم رديئة جدا ٠ كان البؤس ضاربا أطنابه بينهم ٠ والاطفـــال الصغار والنساء يضطرون الى العمل ساعات طويلة بلا شفقة ٠ ومع ذلك فقد كانت كل المحاولات التى تبذل لتحسين حالة هذه المصانع والبيوت عن طريق التشريع ، تقاوم بشدة من أصحاب المصانع ، وكانوا يقولون أن مثل هذه التشريعات تعتبر اعتداء مخجلا على حقوق الملكية ! حتى محاولة ادخال الشروط الصحية فى البيوت التى يسكنها العمال ، كان أصحاب المصانع والبيوت يقاومونها على هذا الاساس ذاته ! ٠٠

كان العمال الانجليز التعساء يموتون موتا بطيئا من الجوع وارهاق العمل ، وبعد الحروب النابليونية كانت انجلترا نفسها مرهقة ، واقتصادها محطما والعمال يقاسون أكثر من سواهم ٠ وفكر العمال فى انشاء هيئات تدافع عنهم وتكافح من أجـل تحسين حالتهم ٠ وفى الزمن القديم كانت هناك هيئات للصناع والعمال المهرة ،ولكنها كانت شيئا يختلف عن هذه المنظمات الجديدة تمام الاختلاف ٠ ومع ذلك فربما كانت ذكرى هـــذه الهيئات القديمة هى التى أوحت الى عمال المصانع فكرة تكوين منظمات منهم ٠ ولكنهم منعوا من ذلك ٠ فقد كانت الطبقات الانجليزية الحاكمة ترتعد من الثورة الفرنسية ، حتى انها سنت قوانين تحرم على العمال حتى مجرد الاجتماع لمناقشة آلامهم الرهيبة ٠

كان القانون والنظام فى انجلترا ـ كما هو الآن فى الهند هو السبب الوجيه الذى يبديه أولئك القابضون على السلطان للاحتفاظ بسلطانهم ، وبأرواحهم !

ولكن القوانين التى تمنع العمال من الاجتماع والمناقشة لم تحسن أحوالهم . كل ماصنعته أنها أسخطتهم ، ودفعتهم الى اليأس ، فأسسوا جمعيات سرية !

كانوا يقسمون فى تلك الجمعيات السرية على الكتمان والاجتماع فى جوف الليل ، فى أماكن غير مطروقة . فاذاخانهم أحد أو ضبطوا مجتمعين تعرضوا لمحاكمات تتهمهم بالخيانة وتوقع عليهم عقوبات رهيبة . وكثيرا ما أحرقوا الآلات من فرط غيظهم ، أو أحرقوا المصانع بل وقتلوا بعض رؤسائهم . وأخيرا فى سنة ١٨٢٥ ضعفت القيود الموضوعة على اجتماعاتهم، وبدأت نقابات العمال تتكون ..

وقد تكونت أولا من العمال المهرة الذين يأخذون أجوراكبيرة نسبيا .

ولكن الأغلبية الساحقة من العمال العاديين ظلت زمنا طويلا دون أى تنظيم . ثم بدأوا بدورهم فى تكوين نقابات تسعى لتحسين أحوالهم عن طريق الاتفاقات الجماعية أى أن يتفق صاحب المصنع مع النقابة على شروط العمل بدلا من أن يتفق مع العمال فردا فردا ..

وعلى هذا النحو مضى صراع الطبقة العاملة . تضحيات هائلة من جانب العمال نظير مكاسب بطيئة من حين الى آخر . كانوا محرومين من حق الانتخاب ، فلم يكن لهم أى تأثير على البرلمان. بل ان قانون الاصلاح الذى صدر سنة ١٨٣٢ ، بعد معارضة عنيفة ، لم يعط حق الانتخاب الا لأفراد الطبقة المتوسطة من المتيسرين أى أنه لم يحرم العمال فقط من حق الانتخابات ، بل والطبقة المتوسطة الفقيرة أيضا .

وفى هذه الاثناء ظهر من بين أصحاب المصانع فى مانشستر رجل انسانى النزعة ، كانت أحوال العمال التعيسة تؤلم ضميره هذا الرجل هو « روبرت أوين » .

وقد أدخل اصلاحات كثيرة فى المصانع التى يملكها ، وعمد الى تحسين أحوال عماله ، وقاد حملة بين أصحاب المصانع

محاولا أن يقنعهم بالمناقشة بأن يعملوا على تحسين أحوال العمل وبفضل جهوده هذه وافق البرلمـان البريطاني على أول قانون يحمي العمال من جشع أصحاب الاعمال ذلك هو قانون المصانع لسنة ١٨١٩ الذى قضى بأن لا يعمل الاطفال الذين تقل أعمارهم عن تسعة أعوام ، أكثر من ١٢ ساعة فى اليوم الواحد ! ولعل هذا الشرط نفسه ، كاف ليعطيك فكرة بسيطة عن الظروف الرهيبة التى كان هؤلاء العمال يخضعون لها ٠

وروبرت أوين هو الذى يقال عنه أنه كان أول من استعمل كلمة « اشتراكية » فى سنة ١٨٣٠

وانت تعلمين أن فكرة المساواة بين الأغنياء والفقراء ، أو توزيع الثروة توزيعا عادلا على أى نحو ، ليست فكرة جديدة ٠ لقـد دعا اليها منذ قديم كثير من الناس ، وقد عرفت المجتمعـات الأولى نوعا من الشيوعية ٠ كانت القبيلة أو القرية كلها تملك الأرض وسائر الاشياء ملكية مشاعة ، وهذه هى التى يطلق عليها اسم الشيوعية البدائية ٠ وقد عرفتها كثير من البلاد القديمة ، ومن بينها الهند ٠ ولكن الاشتراكية الحديثة شيء آخر غير مجرد الرغبة فى التسوية بين الافراد ٠ هى فكرة أكثر تحديدا ظهرت أولا كى تطبق على نظام الانتاج الصناعى الحديث ، فهى اذا وليدة الثورة الصناعية ٠ وقد كانت فكرة « أوين » ترمى الى تكوين جمعيات تعاونية للعمال ، والى أن يكون للعامل نصيب فى المصنع الذى يعمل فيه ٠ وقد انشأ بالفعل بضعة مصانع ومؤسسات نموذجية على هذا النمط فى انجـلترا وأمريكا ، ولكنه فشل فى اقناع زملائه أصحاب الاعمال أو الحكومة بهذه الآراء ٠ على أن تأثيره على عصره كان قويا ، وقد خلق كلمـة « الاشتراكيـة » التى ظلت منـذ ذلك الحين معنى يخلب لب الملايين ٠٠

وفى أثناء ذلك كله ، كانت الصناعات الرأسمالية تنمو بغير انقطاع ٠ وكلما تزايد نجاحها كلما تفاقمت مشكلة الطبقـة العاملة ٠ فقد أدت الرأسمالية الى المزيد من الانتاج ، مما أدى الى تزايد عدد السكان بسرعة كبيرة ، اذ أصبحت زيادة الانتاج تسمح باطعام عدد أكبر من الناس ٠ كانت الصناعات الكبرى تنمو فى تكامل معقد بين فروعها المختلفة ، بينما كانت الصناعات

الصغيرة تموت تحت وطأة المنافسة . كان الثراء يتدفق على انجلترا ، ولكن معظمه كان يتجه الى اقامة مصانع جديدة ، أو مد خطوط للسكك الحديدية أو ما الى ذلك من المرافق . والعمال يحاولون تحسين أحوالهم عن طريق الاضرابات التى كانت تفشل فشلا ذريعا .

كان نجاح الرأسمالية يبهر الناس جميعا ، عدا قلة منذوى النظر البعيد أو الافكار المتقدمة ، أو النزعات الانسانية ، كان هؤلاء يكرهون مافيها من منافسة قاتلة ، ويكرهون الشقاء الذى تسببه للعمال بالرغم من أن ثروة البلد تزداد .

وأخذ هذا الفريق من الناس فى انجلترا وفرنسا والمانيا يقترحون حلولا مختلفة للموقف . وظهرت هذه الحلول والمقترحات تحت أسماء مختلفة مثل « الاشتراكية » أو « الجماعية » أو « الديمقراطية الاجتماعية » وكلها أسماء مجردة تعبر عن نفس المعنى تقريبا ..

كان هناك اتفاق عام بين دعاة الاصلاح هؤلاء على أن موطن الداء يكمن فى نظام الملكية الخاصة المسيطر على الصناعة . وان الدولة اذا استطاعت أن تملك وان تدير هذه الصناعات — ولو وسائل الانتاج الرئيسية فقط ، مثل الأرض والصناعات الهامة — اذا لما عاد هناك خوف على العمال من الاستغلال .

هكذا كان الناس يفكرون تفكيرا عائما لتغيير النظام الرأسمالى . ولكن النظام الرأسمالى لم يكن مستعدا للتقهقر بل كان على العكس من ذلك يزداد قوة .

وقد ظهرت هذه الافكار الاشتراكية أولا بواسطة المثقفين . وواحد من أصحاب العمل هو روبرت أوبن . أما نقابات العمال فقد كانت تسير فى طريق مختلف ، لم تكن تطلب شيئا أكثر من رفع الأجور وتحسين الاحوال المعيشية بوجه عام . ولكنها لم تلبث أن تأثرت بهذه الافكار ، ثم أثرت بدورها تأثيرا كبيرا على تطور الفكرة الاشتراكية ذاتها . وقد نمت الاشتراكية بطريقة مختلفة فى كل بلد من البلاد الصناعية الثلاث الأولى فى أوروبا وهى انجلترا وفرنسا والمانيا ، تبعا لطبيعة الطبقة العاملة فى كل بلد وقوتها . كانت الاشتراكية الانجليزية مثلا « محافظة » تؤمن بالتطور التدريجى المبطىء ، فى حين كانت

الاشتراكية فى القارة الاوروبية أكثر تطرفا وثورية . أما فى أمريكا فقد كانت الاحوال مختلفة تماما ، فالبلاد هناك شاسعة والطلب على العمال كبير ، فلم تظهر أى حركة عمالية قوية لزمن طويل ..

ومنذ منتصف ذلك القرن ، ظلت الصناعة الانجليزية تسيطر على العالم مدى جيل كامل ، وكانت الثروة تتدفق على انجلترا من أرباح صناعتها ومن استغلالها لبلاد أخرى كالهند . وكانت هذه الثورة المتدفقة من الوفرة بحيث ذهب جانب منها الى العمال فارتفع مستوى معيشتهم الى حد لم يعرفوه أبدا من قبل وعلى ذلك فسرعان مااختفت الروح الثورية القديمة التى كانت تملأ العمال الانجليز وأصبحت الاشتراكية الانجليزية أكثر أنواع الاشتراكية اعتدالا . وأطلق عليها اسم « الفابيانية » ، نسبة الى قائد رومانى قديم اسمه « فابيوس » كان يرفض الاشتباك مع العدو فى معركة حاسمة ، مفضلا أن يتغلب عليه شيئا فشيئا .

وفى سنة ١٨٦٧ حصل بعض عمال المدن على حق الانتخاب اما نقابات العمال فقد كانت ناجحة ، تعامل معاملة حسنة ، حتى ان العمال كانوا يعطون أصواتهم فى الانتخابات البرلمانية لحزب الاحرار ..

وبينما كانت انجلترا مشغولة بنجاحها ظهرت فى القارة الاوروبية دعوة جديدة قوبلت بترحيب حار . تلك هى : الفوضوية . انها كلمة تبعث الرعب فى نفوس الذين لايعرفون عنها شيئا . ومعناها ايجاد مجتمع يستغنى الى أقصى حد عن الحكومة المركزية ، ويستمتع أفراده بقسط كبير من الحرية الفردية ، بحيث لايكون هناك « أى ضغط أو ارغام من ناحية الدولة » ، فالحكومة تبلغ أعظم درجة من النجاح حيث لاتحكم ابدا ! وحين يصبح الناس مستعدين لمثل هذه الحكومة ،فسوف تكون لهم !! هكذا قال الامريكى « ثورو » .

لاشك ان هذا يبدو رائعا ! حرية كاملة لكل فرد ، كل واحد يحترم الآخر ، لا أنانية قط ، بل رغبة خالصة فى التعاون !! ولكن عالمنا الحاضر بكل مافيه من أنانية وعنف ، يبدو بعيدا عن هذه الفكرة تماما . ولاشك أن دعوة الفوضويين الى عدم وجود

حكومة مركزية قط ، أو وجود حكومة في أضيق نطاق فقط ، لاشك أن هذه الدعوة كانت بمثابة رد فعـــل للاوتوقراطية والسلطة المطلقة التي كانت طابع الحكومات ، والتي قاسى الناس منها كثيرا • فقد طالما اضطهدت الحكومات الناس وأرهقتهـم وطاردتهم ، حتى فكروا في نوع من الحياة بلا حكومات !

ورأى الفوضويون أيضا أن الدولة في ظل النظام الاشتراكي سوف تكون مسيطرة على كل وسائل الانتاج مما يجعلهـــا مستبدة مطلقة • •

فالفوضويون اذا نوع من الاشتراكيين • يعلقون أهمية بالغة على الحرية الفردية والمحلية • وقد كان هناك من الاشتراكيين أنفسهم من كانوا مستعدين للتسليم بالفوضوية كهدف بعيــد لمبدئهم ، يجب أن يسبقه وجود حكومة مركزية اشـــتراكية قوية •

وهكذا نجد أن بين الاشتراكية والفوضوية فروقا هائلة من ناحية ، كما أن بينهما بعض ظلال من الشبه في ناحية أخرى •

وقد أوجدت الصناعة الحديثة فرصة ملائمة لتكوين طبقـة منظمة ، في حين كانت الفوضوية ـ بحكم طبيعتها ـ تأبى الركون الى حركة منظمـــة تنظيما محـــكما ، فكانت النتيجة أن عجزت الافكار الفوضوية عن الانتشار في البلاد الصناعية حيث كانت تنمو النقابات وغيرها من التنظيمات • فلم يظهر في انجلترا ولا في المانيا عدد يذكر من الفوضويين • ولكن الفوضـــوية وجدت أرضا خصبة بعض الشيء في شرق أوروبا وجنوبهـــا حيث كانت الحياة الصناعية متخلفة •• وقد أصبح هـــذا المذهب الآن ميتا تماما ، ماعدا في بلد واحد مازال متأخرا ، وهو اسبانيا ••

ان الفوضوية قد تبدو مبدأ فاتنا له سحره الخاص ، ولـكنه كما يعطي الفرصة للناس الساخطين العصـــبيين ، فأنه يعطي الفرصة للافراد للذين يبحثون عن الربح الشخصي وراء ستار المبادىء ، كذلك فهي فكرة تقود الى نوع من العنف ، اقترن بعد ذلك باسمها في كل اذن ، حتى أصبح اسمها يبعث على الرعب •

ولما عجز الفوضويون عن انشـــاء مجتمـــع على الطراز الذي رسموه ، بدأ بعضهم يدعو لمبدئه بطريقة جديدة ، هي طريقـة

العمل •• أى طريقة ضرب المثل للناس عن طريق الشجاعة الخارقة ، والأعمال الباسلة فى مقاومة الطغيان ولو بالتضحية بالنفس •

وبهذا الاسلوب انفجرت بعض الثورات فى أماكن متفرقة • ثورات لم يكن أصحابها يرجون لها أى نجاح ، ولكنهم بالرغم من ذلك خاطروا بحياتهم فى سبيل القيام بهذا النوع الجديد من الدعاية لمبدئهم ! • وقد فشلت هذه الثورات بالطبع •• واتجه الفوضويون بعدها الى أعمال الارهاب •• كالقاء القنابل واغتيال الملوك وكبار الرسميين • ولا شك أن هذا الصنف الاحمق كان دليلا على تزايد ضعفهم ويأسهم • فلم تأت نهاية القرن التاسع عشر حتى كانت الفوضوية كحركة قدانتهت • وتبرأ زعماء الفوضوية من كل أعمال الارهاب والدعايةالعملية التى ارتكبها أنصارهم ! • •

ولعله يهمك الآن أن أذكر لك أسماء بعض الفوضـــويين المشهورين • وقدتدهشين اذا عرفت أن هؤلاء الزعماء الفوضويين كانوا فى حياتهم الخاصة مثالا للرقة والاخلاص ، والتمسك بالمثل العليا ••

كان أول القادة الفوضويين فرنسى ، اسمه « بين برودويه » عاش من سنة ١٨٠٩ الى سنة ١٨٦٥ ، وأصغر منه بقليل ، كان رجل آخر ، روسى نبيل اسمه « ميشيل باكونين » وكان قائدا محبوبا لجماهير العمال فى جنوب أوروبا •

وقد اختلف باكونين مع ماركس • فأخرجه هذا هو وأنصاره من الاتحاد الدولى • والاسم الثالث لرجل عاصرناه هو الأمير الروسى بيترو كروباتكين • وقد ألف مجموعة من الكتب الممتعة عن الفوضوية وغيرها من الموضوعات والاسم الرابع والاخير لايطالى كهل ، ذلك هو انريكو مالاتستا ، آخر الفوضـــويين العظام الذين عرفهم القرن التاسع عشر • •

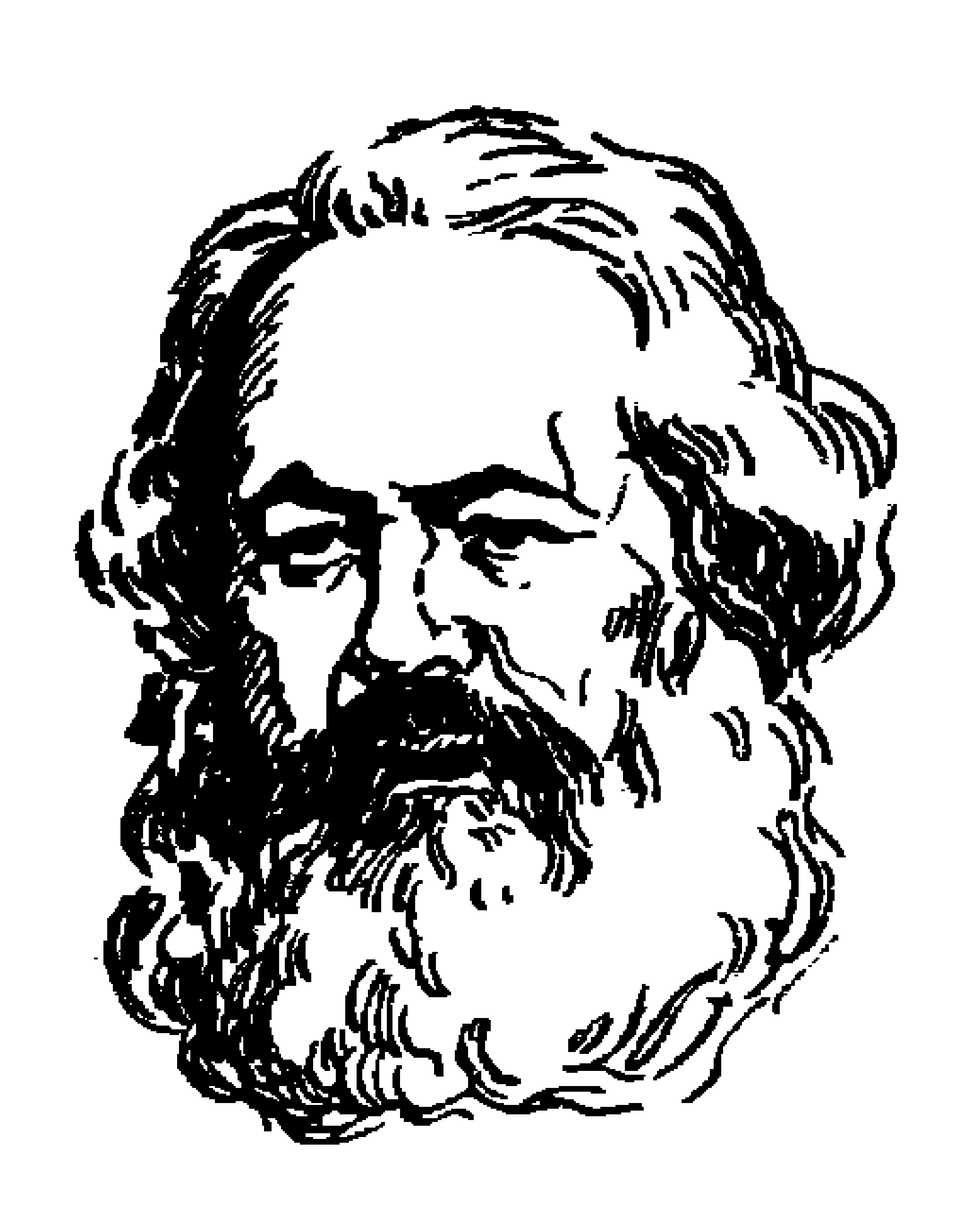
ومن النوادر التى تروى عن « مالاتستا » أنه حوكم مرةأمام احدى المحاكم فى ايطاليا • ووقف المدعى العام فى المحـاكمة يقول ان مالاتستا له تأثير هائل على العمال فى المنطقة التى يعمل فيها ، حتى أنه غير شخصياتهم تماما • وأنه استطاع أن يضع حدا للاجرام ، حتى أصبحت الجرائم فى هذه المنطقة نادرةجدا !

واستطرد المدعي العام قائلا : « واذا توقف الاجرام تماما ،فماذا تصنع المحاكم ؟ ! من أجل ذلك فقط يجب أن يذهب مالاتستا الى السجن !! .

وفعلا ، حكم عليه بالحبس ستة شهور ! ..

وانه لمن سوء حظ الفوضوية انها اقترنت بالعنف حتى نسى الناس انها فلسفة وأنها مبدأ اعتنقه عدد من عظماء الرجال الممتازين ! انها ـ كمبدأ ـ ماتزال بعيدة جدا عن عالمناالراهن، بعيوبه التى نعرفها . وان حضارتنا الحديثة لاكثر تعقيدا منأن يعالجها هذا المبدأ بمستحضراته البسيطة ..

●●●



كارل ماركس

١٤ فبراير سنة ١٩٣٣

فى منتصف القرن التاسع عشر أيضـا ، ظهرت فى أوروبا وفى عالم العمل والاشتراكية ، شخصية خطيرة . ذلك هو كارل ماركس . وهو يهودى المانى ، ولد سنة ١٨١٨ ، ودرس القانون ، والتاريخ والفلسفة . ثم اصطدم بالسلطات الالمانية بسبب مجلة أصدرها ، فسافر الى باريس ، حيث اتصل بناس جدد وقرأ كتبا جديدة فى الاشتراكية والفوضوية ، حتى دان بالفكرة الاشتراكية وآمن بها ايمانا عميقا ، وفى باريس التقى بألمانى آخر ، اسمه فريدريك انجلز ، استوطن فى انجلترا ، وأصبح من أصحاب المصانع الاثرياء فى صناعة القطن النامية . وكان انجلز بدوره يستشعر التعاسة والألم من الظروف الاجتماعية التى رآها حوله ، وكان عقله يبحث جاهدا للعثور على حل لما يراه من فقر واستغلال . وقد اجتذبته فى أول الامر آراء روبرت أوين ومحاولاته للاصلاح ، وأصبح من أتباعه . على أن زيارته لباريس ، التى قادته الى التعرف بكارل ماركس

غيرته أيضا . وأصبح ماركس وانجلز صديقين حميمين وزميلين لايفترقان ، يحملان نفس الآراء ، ويعملان قلبا وقالبا من أجل غرض واحد . وكانا في عمر متقارب ... وقد بلغ من تفاهمهما وتقاربهما أن أكثر ما انتجاه من الكتب اشتركا في كتابتها سويا ..

على أن الحكومة الفرنسية القائمة في ذلك الوقت ـ حكومة لويس فيليب ـ طردت ماركس من باريس . فذهب الى لندن . حيث عاش سنوات كثيرة ، غارقا بين الكتب المكدسة في المتحف البريطاني . كان يعمل عملا متواصلا في صقل نظرياته والكتابة عنها . ومع ذلك فانه لم يكن قط فيلسوفا غارقا في نظرياته منقطع الصلة بالمسائل العامة . فبينما كان يعمل في تطوير وتوضيح المبادىء العائمة التي كانت توجه الحركة الاشتراكية ، ويضع أهدافا محددة قاطعة لها ، كان يقوم بدور قيادي هام في تنظيمات الحركة والعمال . وكان طبيعيا أن تهزه حوادث عام ١٨٤٨ ، عام الثورات في أوروبا ، وان تحركه الى حد بعيد .

ففي تلك السنة بالذات أصدر مع انجلز البيان الذي أصبح بعد ذلك من أشهر البيانات .. ذلك هو « البيان الشيوعي » ، الذي ناقشا فيه أفكار الثورة الفرنسية الكبرى ، كما ناقشا الثورات الأخرى التالية لها التي نشبت سنة ١٨٣٠ وسنة ١٨٤٨ ، وأظهرا كيف انهما كانتا مخالفتين وغير متلائمتين مع الظروف الحقيقية في ذلك الوقت . وانتقدا الصيحات الديمقراطية التي تصاعدت تنادي بالحرية والاخاء والمساواة ، وأكدا أن هذه الكلمات لاتعني الناس كثيرا ، وانها انما تصلح رداء طيبا للدولة البورجوازية ، وباختصار ، شرحا نظريتهما الخاصة في الاشتراكية ، وختما بيانهما بنداء شهير الى جميع العالم « يا عمال العالم ، اتحدوا ، انكم لن تخسروا شيئا الا قيودكم ، وأمامكم عالم بأسره كي تكسبوه ! »

كان هذا البيان دعوة الى العمل . وقد أعقبه ماركس بدعاية نشيطة في الصحف والكتب وبمحاولات متصلة للربط بين تنظيمات العمال المختلفة . ويبدو أنه شعر بأن أوروبا على وشك أزمة خطيرة ، فأراد أن يكون العمال مستعدين لها ، متهيئين

للاستفادة منها الى أقصى حد . وطبقا لنظريته الاشتراكية ، كان لابد أن تقع الأزمة فى ظل النظام الرأسمالى ..

وكتب سنة ١٨٥٤ فى جريدة تصدر فى نيويورك : « نعم ، أن فى أوروبا الآن قوة سادسة تفرض سيطرتها فى بعض الظروف على القوى الخمس الاخرى الكبيرة وتجعلها ترتجف . تلك القوة السادسة هى الثورة . انها بعد أن رقدت طويلا نراها الآن تتجمع فى أرض المعركة بفعل الازمة والمجاعة . اشارة واحدة فقط، وسوف تتقدم بعدها تلك القوة السادسة والعظمى فى أوروبا لامعة الدروع ، سيفها فى يدها ، مثل مينرفا عندما هبطت جبل الاوليمب ، وستكون الحرب الاوروبية القادمة ، هى الاشارة الموعودة ..

على أن نبوءة ماركس عن الثورة الوشيكة الوقوع فى أوروبا لم تتحقق . فقد مرت ستون عاما بعد كتابة هذا الكلام ،وقامت حرب عالمية ، قبل أن تقوم تلك الثورة ، وفى جزء واحد من أوروبا فحسب . أماالمحاولة التى حدثت فى باريس، سنة ١٨٧١ ، فقد أخمدت بقسوة بالغة .

وفى سنة ١٨٦٤ نجح ماركس فى عقد مؤتمر مشترك فى لندن .. فقد كانت هناك جماعات كثيرة اشتراكية .. وكان هناك الديمقراطيون الوطنيون الذين أتوا من بلاد أوروبية خاضعة للحكم الأجنبى ، والذين كان اهتمامهم بالاشتراكية ضئيلا ، اذ كانوا أكثر اهتماما بتحقيق الاستقلال الوطنى .

ومن ناحية أخرى كان هناك الفوضويون الذين يكافحون من أجل معركة سريعة وحاسمة . والى جانب ماركس ، كانت الشخصية الأخرى القوية هى شخصية باكونين، زعيم الفوضويين، الذى فر من سيبريا قبل ثلاث سنوات ، بعد أعوام طويلة من النفى والسجن . وكان أنصار باكونين يتركزون على الاغلب فى جنوب أوروبا ، فى الدول اللاتينية مثل ايطاليا واسبانيا ، التى كانت متخلفة صناعيا . وكانوا يتكونون من المثقفين العاطلين والعناصر الثورية الفردية التى لم تجد لنفسها مكانا فى النظام الاجتماعى القائم .

أما أنصار ماركس فكانوا من البلاد المتقدمة صناعيا ،

وخصوصا المانيا ، حيث كانت أحوال العمال أحسن قليلا . وعلى ذلك كان ماركس يمثل طبقة العمال النامية المنظمة المستعدة للعمل الايجابي ، وكان باكونين يمثل العمال الاكثر فقرا والاقل تنظيما ، والمثقفين والساخطين .

ودعا ماركس الى تنظيم العمال وتعليمهم في صبر ، طبقا لنظرياته الاشتراكية ، حتى تجيء الساعة الموعودة ، والتي كان يعتقد أنها قريبة . بينما دعا باكونين الى العمل فورا . وقد انتصر ماركس على طول الخط .. وتأسست « المنظمة الدولية للعمال » ، أول منظمة دولية للعمال ..

وبعد ثلاث سنوات أى فى سنة ١٨٦٧ ، صدر كتاب ماركس الضخم « رأس المال » باللغة الألمانية ..

كان هذا الكتاب ثمرة كدحه الطويل فى لندن .. وقد تناول فيه بالنقد النظريات الاقتصادية المعاصرة .. وشرح نظريته الخاصة شرحا مسهبا . كان هذا الكتاب عملا علميا محضا . حلل فيه التاريخ والاقتصاد تحليلا علميا خالصا بعيدا عن أى شائبة من شوائب العاطفة ، ومتجنبا كل أوهام المثالية . وقد ناقش فيه بنوع خاص نمو الحضارة الصناعية والآلة الكبيرة ، ووصل الى نتائج هامة فى التطور والتاريخ ، والصراع بين الطبقات فى المجتمع الانسانى .

ومن أجل ذلك أطلق على اشتراكية كارل ماركس اسم « الاشتراكية العلمية » تمييزا لها عن الاشتراكية المثالية التى كانت منتشرة قبل صدور هذا الكتاب ..

وكتاب « رأس المال » هذا ليس من الكتب التى تسهل قراءتها ، بل أنه أبعد ما يكون عن القراءة السهلة . ولكنه بالرغم من ذلك من الكتب القليلة التى أثرت فى طريقة تفكير أكبر عدد من الناس ، وبدلت معتقداتهم ، وأثرت تبعا لذلك فى مجرى التاريخ الانسانى كله .

وفى سنة ١٨٧١ وقعت مأساة « الكومون » فى باريس ، التى سبق إن أشرت اليها ، والتى كانت فيما أعتقد أول ثورة اشتراكية هامة . وقد أدت هذه المأساة الى ازدياد الفزع بين الحكومات الأوروبية ، وبالتالى الى ازدياد قسوتها فى معاملة حركات العمال ..

وفي العام التالى ، انعقدت منظمة العمال الدولية مرة أخرى ، ونجح ماركس في نقل مقر قيادتها الى نيويورك . ويبدوأن السبب في ذلك كان رغبةماركس في ابعاد أنصار باكونين الفوضويين عنها، وربما لانه وجدأنها هناك سوف تكون آمن مما لو بقيت تحت سطوة الحكومات الاوروبية التى كانت متحفزة للبطش بها منذ مأساة « كومون باريس » الاأنه كان مستحيلا أن تعيش القيادة على هذا البعد من مركز نشاطها فى أوروبا ، وفى الوقت الذى كانت الحركة العمالية فى أوروبا تمر بأيام عصيبة . وهكذا تلاشت « الدولية الأولى » تدريجيا .

وقد انتشرت الماركسية انتشارا عظيما بين الاشتراكيين الأوروبية خصوصا فى ألمانيا والنمسا ، حيث كانت تنتشر « الاشتراكية الديمقراطية » . أما انجلترا فلم تتقبلها بنفس الحماس . كانت انجلترا فى ذلك الوقت من النجاح والثراء بحيث يصعب أن تنجح فيها أى دعوة متطرفة . كانت الاشتراكية الانجليزية تتمثل فى « الجمعية الفابية » ذات البرنامج المعقول للاصلاح البطىء . ولم يكن الفابيون على صلة ما بالعمال ، بل كانوا طائفة من المثقفين التقدميين الاحرار . وكان برناردشو أحد الرواد الأوائل فى هذه الجمعية .

أما خطة هذه الجمعية فيمكن أن نلخصها فى كلمة أحد زعمائها ، سيدنى ويب : « حتمية التدرج » ..

أما فى فرنسا ، فقد مرت على محاولة الكومون ١٢ سنة قبل أن تصبح الاشتراكية فيها قوة فعالة مرة أخرى ولكنها اتخذت فى هذه المرة شكلا جديدا ، بين الفوضوية والاشتراكية ، وأطلق عليها اسم « النقابية » : فالنظرية الاشتراكية تقول ان الدولة بوصفها ممثلة للمجتمع كله ، يجب أن تملك وأن تدير وسائل الانتاج جميعا ــ أى الأرض والمصانع وما اليها . وكان الخلاف منحصرا فى مدى تأميم وسائل الانتاج . اذ أن هناك وسائل انتاج شخصية مثل الآلات اليدوية وما اليها من الحماقة طبعا التفكير فى تأميمها . على أن الاشتراكيين كانوا متفقين على تأميم أى شىء يمكن أن ينتج ربما فرديا عن طريق استغلال الآخرين .

أما « النقابيون » فقد كانوا، كالفوضويين، لايحبون « الدولة »

ويحاولون الحد من توقفها • كانوا يقولون أن كل صناعة يجب أن يديرها العمال المشتغلون فيهـا ، عن طريق نقابتهم • على أن تنتخب النقابات المختلفة ممثلين لها فى مجلس عام ينظرفي جميع مسائل البلد ، كنوع من البرلمان ، فى المسائل العـامة فقط ، دون أن يتدخل فى المشاكل الخاصة بكل صـــناعة من الصناعات • أما الوسيلة التى دعا اليها « النقابيون » لتحقيق هدفهم فهى : الاضراب العام الذى يشل الحياة العامة تماما • وقد كان الماركسيون يرفضون هذه الدعوة رفضا باتا ، ولكن أصحاب هذه الدعوة ظلوا يعتبرون كارل ماركس (بعدوفاته) واحدا منهم ! •

وقد توفى كارل ماركس سنة ١٨٨٣ . أى منذ خمسين سنة فقط (١) وفى خلال هذه المدة حدثت أشياء كثيرة : نمت اتحادات ونقابات قوية للعمال فى انجلترا والمانيا وسائر البلاد الصناعية ومرت الصناعة الانجليزية بأروع أيامها ، ثم بدأت فى الانحدار فى وجه المنافسة المتزايدة بين ألمانيـا وأمريـكا •• وكانت أمريكا بالذات تتمتع بمزايا طبيعية هائلة ساعدتها على تحقيق تقدم صناعى سريع •

أما المانيا فكانت مزيجا غريبا من الاوتوقراطية السياسـية (ممثلة فى برلمان هزيل فاقد السلطة) والصناعة المتقدمة وقد عملت الحكومة الالمانية فى عهد بسمارك وبعده ، على مساعدة الصناعة بمختلف الطرق ، كما حاولت أن تكسب الطبقة العاملة عن طريق الاصلاح الاجتماعى وتحسين أحوالها • وفى انجلترا اتبع الاحرار الانجليز نفس الاسلوب فى الاصلاح الاجتماعى ، مثل تخفيض عدد ساعات العمل وتحسين أحوال العمال بعض الشىء •

وقد ظل الأسلوب ناجحا ، وظل العمال الانجليز معتدلين مخلصين لحزب الأحرار طوال الفترة التى كانت الصـــناعة الانجليزية فيها ناجحة نامية فلما اقتربت نهاية القرن ووضعت المنافسة الأجنبية حدا لهذا النجاح والنمو ، بدأت انجلترا تشعر بالكساد التجارى ، وبدأت أجور العمال تهبط •• وهنا

(١) منذ خمسين سنة من تاريخ كتابة هذه الرسالة •

تحركت الطبقة العاملة مرة أخرى ، وبدت الروح الثورية فى الأفق ، والتفت كثير من الانجليز الى الماركسيه ..

وفى سنة ١٨٨٩ ، بذلت محاولة أخرى لتكوين « دولية عماليه » جديدة ، بعد أن أصبح هناك عدد من النقابات والاحزاب العمالية القوية ، يعمل فيها عدد كبير من الموظفين المحترفين . وقد أطلق على هذه المنظمة اسم « الدولية الثانية » . وقد عاشت هذه « الدولية الثانية » ربع قرن حتى جاءت الحرب العالمية الاولى التى اختبرتها ووجدتها ضعيفة فعلا : بل كان من أعضاء هذه الدولية من تولوا بعد قليل مناصب هامة فى بلادهم .

وقد كان هناك من استغلوا الحركة العمالية لمصلحتهم الخاصة ثم هجروها ، وأصبحوا رؤساء وزارات ورؤساء جمهوريات . لقد نجحوا فى حياتهم ، أما الملايين التى ساعدتهم ووضعت ثقتها فيهم فقد بقيت فى مكانها . لقد أصبح هؤلاء الزعماء الذين أقسموا يمين الولاء لمبادىء كارل ماركس ، أصبحوا أعضاء فى البرلمانات . أو أصبحوا رؤساء نقابات يأخذون مرتبات كبيرة . وأصبح من الصعب عليهم أن يخاطروا بمراكزهم المريحة فى صدام سياسى عنيف .

وهكذا هدأوا شيئا فشيئا ، وحتى عندما كان العمال يندفعون تحت وطأة اليأس الى عمل عنيف ، كان هؤلاء الزعماء يحاولون تهدئتهم ..

وبعد الحرب .. أصبح رئيس جمهورية المانيا ومستشارها من الاشتراكيين الديمقراطيين ، وفى فرنسا ، أصبح « ارستيد بريان » النقابى المتحمس وأفصح دعاة الاضراب العام ، أصبح رئيسا للوزارة احدى عشرة مرة ، وأخمد اضرابا كبيرا تزعمه زملاؤه القدامى . وفى انجلترا أصبح رامزى ماكدونالد رئيسا للوزارة ، وترك حزب العمال الذى أظهره . وتكررت نفس الظاهرة فى السويد والدانمرك وبلجيكا والنمسا . وغرب أوروبا اليوم (١) مملوءة بالدكتاتورين والساسة الذين كانوا فى أول حياتهم السياسية ، اشتراكيين ، فلما تقدمت بهم السن نالهم الضعف ونسوا حماسهم القديم وأهدافهم الأولى ، بل

---

(١) سنة ١٩٣٣ .

وكثيرا ما تحولوا ضـد زملائهم القدامى • ان موسولينى ، دكتاتور ايطاليا ، كان اشـــتراكيا ، وكذلك بلسودسـكى ، دكتاتور بولندا ••

ان الحركات العمالية ، بل والحركات الوطنية أيضا ، تعـانى دائما من هذا الداء ، داء الضعف فى قادتها •

ان هؤلاء القادة يتعبهم الكفاح ، ويرهقهم الفشل وعـــدم النجاح ، والهالة المضيئة على رؤوس الشهداء لاتغرى أصحابها زمنا طويلا ••

فهم يهدأون بعد حين وتتحول نار حماســـتهم الى رماد • فاذا كان الواحد منهم أكثر طموحا فأنه يعبر الى الجانب الآخر ويعقد هدنة فردية مع أولئك الذين كان يعارضهم ويقاومهم • وانه لمن السهل دائما أن يبرر الانسان لنفسه ، ولضميره ، أى خطوة يريد أن يخطوها !

هكذا تقاسى الحركات العمالية والوطنية وتتعرض للنكسات من جراء هذا العيب • ولما كان أعداء الحركات العماليةوالوطنية يعرفون ذلك جيدا ، فهم يحاولون دائما أن يكســبوا الافراد البارزين فيها الى جانبهم بكل وسائل الاغراء وأنواع القـول المعسول • ولكن القول المعسول لايرضىجماهيرالعمال،ولايشفى غليل بلد تتعطش للحرية • ولهذا فبالرغم من فرار الفارين ، ونكسة المنتكسين ، فان الصراع يمضى دائما الىغايتهالمرسومة •

بدأت الدولية الثانية اذا سنة ١٨٨٩ ، ونمت فى العـدد والهيبة • وبعد سنوات قليلة أخرج منها الفوضويون بزعامة مالاتستا بسبب رفضهم خوض المعارك الانتخابية لنيلالاغلبيات البرلمانية •

وفضل الاشتراكيون فى الدولية الثانيـــة البرلمانات على الاشتراك مع زملائهم القدامى فى صراع مشترك • وأصـــدر بعضهم بيانات باسلة عما يجب أن يصنعه الاشتراكيون فى أوروبا اذا وقعت الحرب • وأعلنوا أن الاشتراكيين لا يعترفون بالحدود الوطنية ، وان كفاحهم مشترك ومصالحهم مشتركة • فهم لم يكونوا « وطنيين » بالمعنى القديم للكلمة • ولهذا أعلنوا أنهم يعارضون الحرب • فلما وقعت الحرب فعلا سنة ١٩١٤ ، تحطم بناء « الدولية الثانية » بأكمله ، وتحول الاشتراكيون •

وتحولت أحزاب العمال ، بل وتحول حتى الفوضويون مثل كروباتكين ، تحولوا جميعا الى وطنيين متعصبين كارهين لغير بلادهم من البلاد ، كالآخرين سواء بسواء . قليل جدا منهم هم الذين قاوموا ، وثبتوا على دعوتهم الأولى ، وقد عرضهم ذلك لاضطهاد رهيب ولأيام عصيبة وسجن طويل .

فلما انتهت الحرب ، أسس لينين « دولية ثالثة » في موسكو سنة ١٩١٩ ، كانت هذه الدولية منظمة شيوعية صرفة ، أعلنت أنها لا تقبل الا الشيوعيين . وهى المنظمة التى ما تزال موجودة الى اليوم .

أما من تبقى بعد الحرب من أعضاء الدولية الثانية ، فمنهم من تحالف مع الدولية الثالثة ، ومنهم من أبدى كراهيته لموسكو ورفض أن يرتبط بدولتيها الثالثة بأى شكل .. وقد استمر هؤلاء يكونون الدولية الثانية ..

والغريب كلا الهيئتين تدين بالماركسية ، ولكن كلا منهما تفسر الماركسية على طريقتها الخاصة ، بل أنهما تتبادلان كراهية لا تقل عن كراهيتهما لعدوهما المشترك : الرأسمالية ..

على أن هاتين « الدولتين » لاتضمان كل نقابات العمال فى العالم .

فهناك نقابات كثيرة جدا لا تتبع أيهما ، فنقابات العمال الامريكية مثلا تقف فى جانب خاص بها . لانها محافظة جدا . كذلك فان النقابات فى الهند لا تتبع أيا من هاتين الدولتين



إنجلترا تصبح دائنة العالم

٢٣ فبراير سنة ١٩٣٣ :

قلت لك فى رسائل سابقة ان ثراء انجلترا ورخاءها فى القرن التاسع عشر يرجع الى صناعتها من جهة ، والى استغلالها لمستعمراتها من جهة أخرى ، ولكنه يرجع بوجه خاص الى أربع صناعات رئيسية هى : القطن والفحم والحديد وبناء السفن ٠ وحول هذه الصناعات الأربع الرئيسية نمت أغلب الصناعات الأخرى ، الخفيف منها والثقيل ، ونشأت بيوت الاعمال الضخمة والبنوك ، وانتشرت السفن الانجليزية فى جميع أنحاء العالم ، لاتحمل المصنوعات الانجليزية وحدها بل ومنتجات الدول الصناعية الأخرى ، وأصبح الانجليز بذلك سادة النقل التجارى ، ومكتب لويدز للتأمين فى لندن مركز للنقل البحرى فى العالم وأصبحت هذه الصناعات والاعمال هى التى تحكم البرلمان ٠

وتدفق الثراء على انجلترا فغمر الطبقات العليا والمتوسطة ووصل جانب منه الى الطبقة العاملة فارتفع مستوى معيشتها

ولكن ماذا يصنع الاغنياء بكل هذه الاموال المتدفقة عليهم ؟ ان ابقاءها عاطلة بغير استثمار حماقة بلا شك · وكل واحد حريص على أن يستثمرها فى مزيد من الصناعة ، والحصول بالتالى على مزيد من الارباح ·

ولكن ، بعد فترة من الزمن ، وعندما امتلأت البلد كلها بعدد هائل من المصانع وتشبعت بالتصنيع الى أقصى حد ·· بدأ معدل الارباح يهبط شيئا فشيئا بفعل المنافسة الشديدة ·

وهنا نظر الرأسماليون الى خارج بلادهم باحثين عن ميادين أخرى لاستثمار أموالهم فوجدوا أن الفرص فى الخارج كثيرة ·· وبدأت الاموال الانجليزية تتدفق الى الخارج ، لتبنى السكك الحديدية والتليفونية والتلغرافات والمصانع ، فى أوروبا وأمريكا وأفريقيا وجميع المستعمرات الانجليزية : الولايات المتحدة ذات الموارد الفنية والنمو السريع تنال جزءا هاما من المال الانجليزى لبناء السكك الحديدية · وفى أمريكا الجنوبية خصوصا الارجنتين ، يمتلك المال الانجليزى عددا من المزارع الشاسعة ، وفى كندا وأستراليا يبنى كل شىء برأس المال الانجليزى ، وكذلك فى الصين ، وفى الهند طبعا ، حيث أقرض الانجليز أموالهم لشركات السكك الحديدية بفوائد باهظة ·

بذلك أصبحت انجلترا هى البنك الذى يقرض العالم ، وأصبحت لندن هى السوق الدولية للنقود ·

ولا تحسبى أن معنى ذلك ان انجلترا كانت ترسل النقود الى الدول الأخرى فى صورة حقائب مملوءة بالذهب أو الفضة أو البنكنوت · ان الاعمال التجارية الحديثة لاتتم بهذه الصورة البدائية ، والا لما وجدنا من الذهب والفضة مايكفى هذه المعاملات ان من الناس من يعلقون أهمية بالغة على الذهب والفضة ، والواقع انها ليست سوى « وسيلة » للتعامل وتبادل السلع ، ان الذهب والفضة معادن لاتؤكل ولا تلبس ولا تنفع الا فى الزينة فحسب ، وهى شىء تافه · ان الثراء الحقيقى ليس فى اقتناء الذهب والفضة ، انه فى امتلاك البضائع التى يمكن استعمالها · وعلى ذلك فحين نقول ان الرأسماليين الانجليز استثمروا أموالهم فى الخارج فى الصناعة أو فى السكك الحديدية ، فمعنى ذلك أنهم أرسلوا بضائعهم الى الخارج ، أى

أرسلوا الآلات والقطارات والقضبان وغيرها من المواد الى الدول الأجنبية ، ومعنى ذلك ربح جديد للصناعة الانجليزية ، وفرصة جديدة للطبقة المستثمرة فى انجلترا كما توظف الفائض من أموالها نظير ربح كبير ·

ان اقراض النقود عملية مربحة جدا · وقد أثرت منها ثراء هائلا حتى لقد نشأت طبقة مترفة تعيش على فوائد هذه القروض وحدها · وأبناء هذه الطبقة لايعملون شيئا على الاطلاق · انهم فقط يحملون اسمها فى شركات السكك الحديدية ، وشركات زراعة الشاى وما اليها ، وفى نهاية كل عام تجيئهم الارباح بانتظام ·

ولكن ، هاهنا سؤال هام : هذه الدول التى اقترضت النقود من انجلترا بهذه الطريقة ، كيف تدفع ربح هذه القروض ؟·

مرة أخرى ، هى لاتدفعها ذهبا ولا فضة ولكنها تدفعها سلعا وهى لاتدفعها سلعا مصنوعة كتلك التى تبيعها انجلترا ، لأن انجلترا نفسها هى سيدة الانتاج الصناعى ، ولكنها تدفعها موادا غذائية وخامات أى ان الارباح كانت تتدفق على انجلترا فى صورة كميات هائلة من القمح والشاى والبن واللحم والفاكهة والقطن والصوف ·· الخ ··

والتجارة بين دولتين من الدول لاتقوم الا على أساس تبادل السلع والمواد · فانه من المستحيل أن تقتصر دولة ما على الشراء أو تقتصر على البيع · واذا حدث واضطرت دولة الى أن تشترى من دولة أخرى سلعا دون أن تبيع لها ، فمعنى ذلك أنها ستضطر الى دفع ثمن ماتشتريه ذهبا أو فضة ، ولن تجد هذه الدولة من الذهب أو الفضة مايكفى · وهنا لابد لهذه التجارة من جانب واحد أن تتوقف · فالتجارة بين دولتين اذا لابد فيها من التبادل ولا بأس بعد ذلك من أن يميل الميزان لمصلحة هذه الدولة أو تلك ··

ولو فحصنا تجارة انجلترا خلال القرن التاسع عشر ، لوجدنا أنها تستورد كميات أكثر جدا مما تصدر ، مع فارق واحد ، هو انها تستورد الطعام والخامات وتصدر السلع المصنوعة وليس معنى ذلك ان انجلترا كانت تدفع ثمن ماتستورده زائدا عما تصدر ، كلا ، فهذا الزائد هو ربح أموالها التى

تقرضها لم تكن تأتى كلها الى انجلترا • كان جانبا منها يظل في البلد المقترض ، حيث يعاد استثمارها لحساب الرأسماليين الانجليز أيضا •

وبذلك أخذ الاستثمار الانجليزى فى الخارج ينمو ويتزايد ، دون حاجة الى ارسال مزيد من الأموال أو البضائع • وفى الهند نعرف جميعا ضخامة الاستثمارات الانجليزية فى السكك الحديدية وغيرها •

قلت لك ان انجلترا وجدت أن خير طريقة للمضى فى عملية الاقراض هذه ، هى أن تقبل فوائد أموالها في صورة بضائع ، وقد أدى ذلك الى نتيجتين هامتين : الأولى هى تزويد شعبها بكل مايحتاجه من طعام بكميات كافية ، وانصرافها انصرافا تاما عن الزراعة وتركيز كل جهدها فى انتاج السلع المصنوعة ، ذلك أنه اذا كانت انجلترا تستطيع أن تحصل على الطعام من الخارج بأسعار زهيدة ، فلماذا تتعب نفسها فى استنباته ؟ واذا كانت الصناعة تدر ربحا أكثر فلماذا تشغل نفسها بالزراعة ؟ وهكذا أصبحت انجلترا دولة صناعية تماما ، تعتمد فى الحصول على طعامها على مايأتيها من الخارج ••

أما النتيجة الثانية فهى دعوتها لسياسة حرية التجارة أى أن لاتفرض الضرائب على السلع التى تأتيها من الخارج ، أو لاتفرض عليها الا التافه البسيط - فما دامت هى الدولة الأولى فى الصناعة ، فليس لها ان تخشى منافسة الصناعات الاجنبية لها • كما أن فرض ضرائب على السلع المستوردة معناه فرض ضرائب على الطعام الذى تأكله ، والخامات التى تستخدمها ، مما يرفع أسعار المواد الغذائية للمستهلكين ويرفع تكاليف الانتاج بالنسبة للمنتجين •• هذا الى أنها اذا فرضت ضرائب على الطعام الذى تأكله ، والخامات التى تستخدمها ، مما يرفع أسعار المواد الغذائية للمستهلكين ويرفع تكاليف الانتاج بالنسبة للمنتجين •

هذا الى انها اذا فرضت ضرائب عالية تمنع السلع الاجنبية من المجيء فكيف تدفع لها الدول الأولى فوائد أموالها ؟

لهذه الاسباب كلها تبنت انجلترا سياسة حرية التجارة ،فى الوقت الذى كانت فيه سائر الدول تلجأ الى حماية صناعتها

بواسطة فرض ضرائب ورسوم على السلع التى تستوردها ٠٠ مثل أمريكا وفرنسا والمانيا ٠ ٠

وقد تبدو سياسة انجلترا خلال القرن التاســـع عشر من الاهتمام بالصناعة واهمال الزراعة والاعتماد فى طعامها عــلى ماتستورده فى الخارج ، قد تبدو هذه السياسة سليمة ،الاأن لها مخاطرها التى بدأت تتضح فى هذا القرن ٠

لقد بنيت هذه السياسة على أساس تفوق انجلتراالصناعى وسيادة تجارتها فى الخارج ولكن ، لنفرض أن هذا التفوق قد ذهب ٠ وان هذه التجارة قد هبطت تبعا لذلك ، فماذا تصنع فى هذه الحالة ؟ كيف تدفع ثمن طعامها ؟ واذا استطاعت أن تدفع ثمنه فكيف تحمــــله الى بلادها اذا وقف لها فى الطريق عدو قوى ؟

لقد كاد أهل انجلترا يجوعون خلال الحرب العالمية الأولى ، لأن الطعام الذى يأتيها من الخارج قد انقطع ، وأخطر من ذلك الهبوط المستمر فى تجارتها نتيجة لتزايد المنافسة ٠ وقد بدت خطورة هذه المنافسة قرب نهاية القرن ، عندما بدأت الولايات المتحدة تتلفت باحثة عن أسواق أجنبية ٠

ومازال هذا الخطر يتزايد بانتشار الصناعة فى كل مكان من العالم ، اذ أصبحت كل دولة تريد أن تصنع بنفسها أكبر قدر ممكن من السلع التى تستهلكها ــ الهند مثلا تريد أن تستغنى عن استيراد الاقمشة من الخارج فماذا تصنع انجلترا فى هذه الحالة ؟ والمؤسسات الانجليزية التى تعتمد على تجارة القماش؟

كل هذه أسئلة خطيرة ، على انجلترا أن تبحث عن اجابتها قبل أن تواجهها الأيام العصيبة بعد حين ٠ انها لاتستطيع الانطواء على نفسها ، والانعزال عن العالم بحيث تنتجمايكفيها من الزراعة والصناعة ٠ فالعالم الحديث أكثر تعقدا منأن يتيح مثل هذا الاستكفاء الذاتى ٠

هذه الأسئلة التى تبدو اليوم خطيرة ، لم تكن كذلك فى القرن التاسع عشر ٠

فمضت انجلترا تقامر بمستقبلها وتلعب على تفوقهاالصناعى انها مقامرة خطيرة حقا : ان تظل الدولة الأولى فى العالمكله أو أن تواجه الانهيار ٠ ان لايكون هناك حل وسط بين أحـــد

الاحتمالين • ولكن الرجل الانجليزى فى العصر الفيكتورى لم تكن تنقصه الثقة المطلقة بالنفس ، بل ولا الغرور • فقد أقنعه نجاحه وتقدمه فى الصناعة بأنه متفوق على سائر البشر • فهو ينظر الى أنباء البلاد الأخرى من عل • وشعوب آسيا وأفريقيا فى اعتقاده شعوب همجية متخلفة ، خلقت لكى تعطيه فرصة ممارسة عبقريته فى السيطرة على سائر الاجناس حتى أبناء أوروبا كانوا بالنسبة اليه جهلة حمقى • كان الانجليزى الفيكتورى يرى أنه الرجل المختار لقيادة الحضارة وان انجلترا هى الرائد الذى يتقدم أوروبا ، وأوربا هى التى تتقدم سائر العالم وكان يرى أن الامبراطورية البريطانية نظام مقدس •

وكان واحدا من أبرز الانجليز أهدى كتابا الفه « الى أولئك الذين يؤمنون بأن الامبراطورية البريطانية هى بعد العناية الآلهية • أعظم قوة تعمل للخير عرفها العالم ••

ولاتحسبى اننى أتهكم بهذا الكلام على الانجليزى فى العصر الفكتورى • كلا على الاطلاق • فقد يكون من النادر فعلا أن نرى انسانا مثقفا يسلك مثل هذه السلوك المنطوى على الغرور والمباهاة ، ولكن المجتمعات الوطنية على العكس من ذلك مستعدة لتصديق أى شىء يرضى كبريائها • فالفرد لايتصرف بهذه الطريقة المبتذلة ازاء جيرانه أو معارفه ، أما الدول فليس لها مثل هذا الضمير ، ونحن جميعا لسوء الحظ نحمل فى نفوسنا عين الطباع ونتباهى بمدح فضائلنا الوطنية • فشخصية الانجليزى الفيكتورى موجودة فى كل مكان ، مع فوارق بسيطة فحسب ••

قلت لك أن ثراء انجلترا وغرب أوروبا كان مرجعه الى نمو الصناعة الرأسمالية التى ظلت ماضية الى الامام دون توقف بحثا عن الربح •

كان الربح هو الرب الوحيد الذى يعبده الناس هناك • والرأسمالية لاشأن لها بالدين أو الاخلاق • انها مذهب المنافسة حتى الموت بين الافراد والأمم ، وليذهب المغلوب الى الجحيم !

كان الفكتوريون يتباهون باحتفاظهم بايمانهم الدينى • كانوا يؤمنون بالعلم والتقدم وكانوا يقولون أن نجاحهم فى الأعمال وفى بناء الامبراطورية يثبت انهم الجنس الأصلح الذى

فاز في الصراع . ألم يقل داروين أن البقاء للاصلح ؟ وعلى هذا الأساس نفسه كان يقوم ايمانهم الديني ، وقد وصف أحـــد كتابهم « ر . هـ تادني » هذا الايمان بقوله « ان الله في مكانه ، بعيد عن المشاكل الأرضية . ان ملكية الله ملكية مقيدة تماما كالملكيات الموجودة على الأرض !

هكذا كان ايمان البورجوازية الغنية الديني . ولكنها كانت في الوقت نفسه تشجع مادونها من الجمــاهير على الذهاب الى الكنيسة والاستمساك بالدين ، لعل ذلك أن يصرفها عن الافكار الثورية ! ..

وقد وصلت الصناعة الرأسمالية الى درجة هائلة من الضخامة والاتساع . فأنه من الأربح دائما أن يكون الانتاج أكبر وعلى نطاق أوسع . وكلما كبر حجم المؤسسة واتسع نطاقها كلما كانت تكاليف الانتاج لديها أقل منها لدى المؤسسات الصغيرة . وعلى ذلك نشأت الاتحادات الهائلة ، تتحكم في صناعات بأسرها وتبتلع المؤسسات الصغيرة المملوكة للأفراد . وانهارت فكرة « دعه يعمل » القديمة وأصبحت فرصة الفرد في هذا الميدان ضئيلة جدا . بل ان هذه الاتحادات أصبحت تتحكم في الحكومات ذاتهـا ..

وبازدياد المنافسة بين القوى الصناعية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر انتقلت الرأسمالية الى مرحلة ثانية، تلك هي التطلع الى الخارج للبحث عن الاسواق والمواد الخام . واحتدم التنافس الوحشي في كل مكان على بناء الامبراطوريات . وقد رويت لك في خطابات سابقة ماحدث بالتفصيل في الهنـــد والصين وايران . والآن هبطت الدول الاوروبيـــة كالطيور الجارحة على أفريقيا ، تتقاسمها فيما بينها ، وفي افريقيا أيضا فازت انجلترا بنصيب الاسد . استولت على مصر في شـــمال القارة وعلى مساحات أخرى شاسعة . وفازت فرنسا بنصيب لابأس به ، وأرادت ايطاليا أن تشترك في المأدبة . ولكنهـا لاقت في الحبشة متاعب هائلة كادت تصل بها الى الهزيمة . واستولت ألمانيا على نصيب لم يرضها ..

الى كل مكان ذهبت الرأسمالية صائحة مهددة : تغنى رديارد كبلنج ، شاعر الامبراطورية البريطانيـــة بـ « عبء الرجل

الأبيض » ..

وتحدث الفرنسيون عن « مهمة فرنسا الحضارية » وتحدث الالمان طبعا عن ثقافتهم · هكذا ذهب حملة « مشاعل الحضارة والمدنية » ، ذهبوا فى تضحية رائعة ، يجثمون على أنفاس الاجناس الأخرى · دون أن يتحدث أحد عن عبء الرجل الملون ! ..

ولم يكن العالم واسعا بحيث يتسع لكل هؤلاء الاستعماريين المتنافسين ، فلم تلبث المصادمات أن احتدمت بينهم فى كل مكان وقع فيه التنافس على الاسواق ·

وكثيرا مابدت الحرب وشيكة الوقوع بين انجلترا وفرنسا· الا أن الصدام الحقيقى فى المصالح كان بين الصناعة الانجليزية والالمانية ..

لقد أصبحت المانيا تماثل انجلترا فى تفوقها الصناعي وفى بناء السفن بالذات وأخذت تتحدى سيطرتها على الاسواق · ولكنها وجدت أن أسواق العالم محتلة فعلا بالانجليز ..

ولما كانت المانيا فخورة متحمسةعاليةالروح ، حانقةلابعادها عن العالم الواسع بواسطة الدول الأخرى ، فقد بدأت تستعد فى اصرار من أجل صراع هائل مع تلك الدول الأخرى .. وأخذت أوروبا كلها تستعد ، وتضخمت الجيوش والاساطيل ، وتتابعت الاحداث والمعاهدات بين الدول المختلفة حتى بدا ان هناك معسكرين متنافسين مدججين بالسلاح · الحلف الثلاثى بين المانيا والنمسا وايطاليا من جهة ، والحلف الثنائىمنجهة أخرى بين روسيا وفرنسا ، وكانت انجلترا مرتبطة به سرا ، من جهة أخرى ..

وفى تلك الاثناء ، وعند نهاية القرن ، اشتبكت انجلترا فى حرب صغيرة خاصة فى جنوب أفريقيا ، وهى حرب نشبت سنة ١٨٩٩ نتيجة لاكتشاف مناجم الذهب فى جمهورية الترنسفال · وقد حارب البوير ببسالة خارقة مدةثلاثسنوات ضد انجلترا · ولكنهم انهزموا آخر الأمر ، وكان عليهم أن يعترفوا بالهزيمة · وكانت انجلترا حكيمة فى سلوكها معهم بعد الحرب ، فلم تمض سنواتحتى أصبحاتحاد جنوب أفريقيا دولة حرة فى نطاق الدومنيون البريطانى ..



الامبراطورية الأمريكية الخفية

٢٨ فبراير سنة ١٩٣٣ ..

قضت الحرب الأهليـــة فى أمريكا على أرواح الكثيرين من شبابها ، وتركت لها عبئا باهظا من الديون . غير أن تلك البلاد كانت شابة مليئة بالنشاط فاستمر نموها السريع . كذلك فقد كانت تملك موارد طبيعية هائلة ، خصوصا فى المناجم الغنية بالموارد الرئيسية الثلاث التى تقوم عليها اليوم كل صناعـــة حديثة : الفحم والحديد والبترول . وكان ثمة كثير من مساقط المياه التى يمكن استغلالها فى توليد الكهرباء ، وشلالات نياجرا المعروفة لا شك ترد على خاطرك فى هذا المجال ..

كانت تلك الدولة قارة هائلة يقطنها سكان قليلون نسبيا ، فكان كل فرد يجد أمامه مجالا واسعا للثراء ، وعلى ذلك تهيأت لها كل الاسباب لاقامة دولة صناعية من الدرجة الأولى ، وقد أخــذت فى ذلك بسرعة ملحوظة ، فلم تأت سـنة ١٨٨٠ حتى بدأت الصناعة الامريكية تنافس الصناعات الانجـــليزية فى الاسواق الخارجية :

لقد وضعت الصناعة الامريكية والالمانية حدا للتفوق الذى استأثرت به انجلترا فى التجارة الخارجية مدى قرن كامل من الزمان ..

وتدفق المهاجرون على الدولة الجديدة من جميع الشعوب الأوروبية : ألمان واسكندنافيون وايرلنديون وايطاليون ويهود وبولنديون .. جاء بعضهم طريد الاضطهاد السياسي في أوطانهم الأصلية وجاء بعضهم الآخر بحثا عن مستوى أفضل من الحياة ..

لقد أرسلت أوروبا المزدحمة الزائد من سكانها الى أمريكا فى صورة هذا المزيج الغريب من الأجناس واللغات والأديان .. كان هؤلاء المهاجرون يعيشون فى أوروبا منفصلين ، لكل واحد منهم عالمه الخاص الصغير ، وقلوبهم جميعا مليئة بالحقد المتبادل ولكنهم ذهبوا الى مكان جديدة وجو جديد ، اختفت فيه معظم هذه الاحقاد القديمة ، وسرعان ماجاء نظام التعليم الاجبارى الموحد فمحا الرواسب الوطنية القديمة ، وبدأ الطابع الأمريكى يظهر ، من خلاصة هذه البوتقة الغريبة ، وان بقى الانجلوسكسون القدامى يعدون أنفسهم الطبقة الارستقراطية ، ويستأثرون بالزعامة الاجتماعية .

وقد حاولت الولايات المتحدة أن تبقى بعيدة عن مشاكل ومؤامرات القوى الأوربية المتنازعة ، وان تبقى أوروبا بعيدة عن الامريكتين الشمالية والجنوبية جميعا . وقد حدثتك فى رسالة سابقة عن « مبدأ مونرو » ، المبدأ الذى وضعه الرئيس مونرو عندما حاولت بعض القوى الأوروبية ـ دول الحلف المقدس ـ أن تتدخل فى أمريكا الجنوبية لحماية مصالح الامبراطورية الاسبانية فيها . فقد أعلن مونرو أن الولايات المتحدة لن تقبل تدخل أى قوة أوروبية فى نصف الكرة الامريكى . وقد أنقذ هذا التصريح جمهوريات أمريكا الجنوبية من براثن أوروبا الى حد بعيد .

وقد كانت أمريكا الجنوبية دائما مختلفة عن أمريكا الشمالية . ولم تفلح مائة سنة فى القضاء على وجوه الاختلاف هذه . ففى حين نرى كندا تزداد شبها بالولايات المتحدة يوما بعد يوم . لانرى ذلك بالنسبة لجمهوريات أمريكا الجنوبية : فالحدود التى

بين الولايات المتحدة والمكسيك تفصل نوعين من الناس والثقافة . والى الجنوب نجد اللغات الاسبانية والبرتغالية هي الطاغية .. وقد بقيت اللغة الاسبانية حتى اليوم من اللغات الأولى في العالم ، لسبب واحد هو انتشارها في هذه البقعة من الأرض ، وأمريكا اللاتينية ما زالت تنظر الى اسبانيا على أنها أم روحية لها .. وهناك ، لايعلق المواطنون أهمية كبيرة على الاجناس كما يفعلون في كندا والولايات المتحدة . وقد تزاوج الاسبان مع الهنود الحمر أصحاب البلاد الاصليين ، ومع الزنوج أيضا ، وأخرجوا عنصرا مولدا ..

وعلى الرغم من مرور مائة سنة من الحرية على هذه البلاد ، فأنها فشلت حتى الآن في تحقيق الاستقرار . فالثورات والدكتاتوريات العسكرية هناك دورية ، حتى أنه ليصعب جدا تتبع الخطوط السياسية الدائمة التغيير . وأقوى هذه الجمهوريات هي الارجنتين والبرازيل وشيلي والمكسيك .

منعت الولايات المتحدة - بتصريح مونرو - أوروبا من التدخل في شئون أمريكا اللاتينية . ولكنها ما أن ازدادت ثراء حتى بدأت تمد بصرها الى الخارج بحثا عن أرض بكر تتوسع فيها ..

وكان من الطبيعي أن يقع بصر الولايات المتحدة على أمريكا اللاتينية .. ولكنها لم تحاول أن تستولى على أى من هذه الجمهوريات بالقوة ، أى بالطريقة القديمة لبناء الامبراطوريات ولكنها أرسلت بضائعها اليها واستولت على أسواقها ..

كذلك وظف الأمريكيون رؤوس أموالهم هناك في السكك الحديدية والمناجم ، وفي اقراض الحكومات ، بل وبعض الأحزاب في أوقات الثورات ! والذين وظفوا أموالهم على هذا النحو هم الرأسماليون الامريكيون وأصحاب البنوك ، ولكن ، خلفهم ، كانت تقف دائما حكومة الولايات المتحدة نفسها !

وشيئا فشيئا ، أصبح هؤلاء الرأسماليون يسيطرون على حكومات أمريكا اللاتينية بواسطة نقودهم التي يقرضونها لها ويوظفونها في بلادها ، بل لقد صنع هؤلاء الرأسماليون بعض الثورات والانقلابات عن طريق تقديم النقود لهذا الحزب أو ذاك . وخلف هؤلاء الرأسماليين ، كما قلت ، كانت تقف

حكومة الولايات المتحدة القوية ، فماذا تفعل الجمهوريات اللاتينية الصغيرة ، الضعيفة ؟ .. لقد حدث فعلا ، أن أرسلت الولايات المتحدة جيوشها لنصرة حزب معين من الأحزاب ، بدعوى العمل على اعادة الأمن والنظام !

بهذه الطريقة اذا ، أصبح للرأسماليين الامريكيين سيطرة قوية على تلك الدول الصغيرة فى الجنوب . فقد أداروا بنوكها وسككها الحديدية ومناجمها ، مستغلين ذلك كله لمصالحهم الخاصة . أى أن الولايات المتحدة استولت على ثروة هذه الدول . وهذا هو الشكل الجديد للامبراطوريات : امبراطورية اقتصادية، خفية ، تحكم وتستغل دون أى مظهر خارجي للحكم والاستغلال ، فجمهوريات أمريكا الجنوبية - من الناحية السياسية والدولية - دول حرة مستقلة . وعلى الخريطة لاشىء يدل على أنها فاقدة لحريتها .. ومع ذلك ، فان الولايات المتحدة تستعمر معظمها استعمارا كاملا ..

لقد عرفنا أنواعا مختلفة من الاستعمار فى شتى العصور : فى البداية كان انتصار دولة على أخرى فى الحرب يعنى أن المنتصر يستطيع أن يفعل مايشاء بالأرض المفتوحة والشعب المنهزم ، الذى يتحول أفراده كلهم الى عبيد . ثم أخلى هذا النظام مكانه لنوع جديد من الاستعمار ، من مقتضاه أن يستولى المنتصر على الأرض وحدها دون الأفراد ، فلا يصبح المهزومون عبيدا . ذلك ان الاستعمار قد اكتشف أنه من الأسهل استنزاف أموالهم عن طريق الضرائب وغيرها من وسائل الاستغلال .

وكثيرون منا لايعرفون الاستعمار الا على هذه الصورة ، كاستعمار الانجليز للهند ، معتقدين أنه اذا تخلى الانجليز عن نفوذهم السياسى فى الهند ، تصبح الهند حرة تماما . ولكن هذا النوع من الاستعمار آخذ بدوره فى الزوال ، تاركا مكانه لنوع ثالث من الاستعمار أكثر تقدما واتقانا : لايحتكر حتى الأرض .. بل يستولى فقط على الثروة ووسائل الانتاج فى البلد المستعمر . فبذلك تستطيع الدولة المستعمرة أن تستغل مستعمراتها لمصلحتها الخاصة ، وتسيطر على مصائرها ، دون أن تتحمل مسئولية حكم المستعمرة واضطهاد شعبها . فهى تحكم الأرض والشعب على السواء .. وبأقل قدر من المتاعب!

على هذا النحو تطور الاستعمار على مر الأيام ، حتى أصبح استعمارا خفيا ، اقتصاديا · فحين قضى على الرق ، ثم على رقيق الأرض في عهد الاقطاع ، حسب الناس ، أن الانسان صار حرا ، ولكنهم سرعان ماأدركوا أن الانسان مازال مستعبدا مستغلا ، يحكمه الذين يملكون قوة المال ، فبعد العبودية ، ورق الأرض ، أصبح الناس « عبيد الأجر » ومازالت الحرية بعيدة عنهم ·

وكذلك الحال بالنسبة للدول : فالناس يحسبون أن المشكلة كلها في الحكم السياسي الذي تفرضه دولة على أخرى ، فاذا أقصينا هذا التحكم السياسي جاءت الحرية حتما ، وهذا غير صحيح ، وكثيرا ما نجد اليوم دولا حرة سياسيا ، ولكنها خاضعة تماما لدولة أخرى نتيجة للسيطرة الاقتصادية ·

ان الاستعمار الاقتصادي هو أقل أنواع الاستعمار كلفة ، بالنسبة للدول الاستعمارية ، فهو لايثير المتاعب التي يثيرها الاستعمار السياسي ، ذلك لأن كثيرا من الناس لايلحظونه ·

والامبراطورية الأمريكية الخفية تمتد حتى تصل الى جزر الفلبين ، وهي الجزر التي « حررتها » أمريكا في حرب خاضتها ضد اسبانيا ·

وقد بدأت هذه الحرب في جزيرة كوبا سنة ١٨٩٨ ، واليوم أصبحت كوبا دولة مستقلة ، بالاسم فقط · لأن الولايات المتحدة مازالت تحكم كوبا وهايتي تماما ·

ومنذ عشرات السنين ، تم شق قناة بناما ، في تلك الرقعة الرقيقة من الأرض التي تربط بين الامريكتين ، وقد وضع مشروع حفر القناة ،فرديناند دي‌لسبس ، نفس الرجل الذي شق قناة السويس ، ولكنه لم يلبث أن اصطدم في بناما بمتاعب جمة منعته من اتمام عمله ، فأتمه الامريكيون ·

والقناة تقع في جمهورية بناما الصغيرة · ولكن الولايات المتحدة اليوم تحكم القناة والجمهورية على السواء · ورغم أن القناة بالغة الأهمية من الناحية التجارية الا انها ليست في مثل أهمية قناة السويس ·

وهكذا مضت الولايات المتحدة تزداد كل يوم قوة ، ويزداد انتاجها من المليونيرات وناطحات السحاب !



سقوط القيصرية فى روسيا

٧ ابريل ١٩٣٣ ..

عندما كنت أحدثك عن الحرب العالمية (الأولى) أشرت اشارة عابرة الى الثورة الروسية وأثرها على هـذه الحرب . وبصرف النظر عن تأثيرها فى نتيجة الحرب ، فقد كانت هذه الثورة فى حد ذاتها حادثا خطيرا ، فريدا فى تاريخ العالم كله . وبالرغم من أنها كانت الأولى من نوعها ، فأنها لن تظل الوحيدة زمنا طويلا . لقد أصبحت خطرا بالنسبة لسائر الحكومات ومثـلا احتذاه كثير من الثوريين فى مختلف أنحاء العالم . فهى اذا خليقة بدراستها عن قرب .

ولاشك أن هذه الثورة كانت أهم نتائج الحرب العالمية جميعا . ومع ذلك فهى نتيجة لم يتوقعها ، ولم يرغب فيها ، أى حاكم أو حكومة من الحكومات التى خاضت غمار هذه الحرب . أو ربما كان من الأدق أن نقول أن هذه الثورة كانت وليدة الظروف التاريخية والأحوال الاقتصادية فى روسيا ، والتى وصلت الى غايتها بسرعة نتيجة للخسائر الفادحة والشقاء الهـائل الذى

جلبته الحرب ·

وفى هذه الظروف ، استطاع رجل ذو ارادة هائلة وكفاية ثورية فذة أن يجد فرصته ، ذلك هو لينين ·

وقد وقعت فى روسيا خلال عام ١٩١٧ ثورتان ، الأولى فى مارس والثانية فى نوفمبر · ولكن لاشك أن هذه الفترة كلها كانت ثورة متصلة ، لها قمتان ، فى مارس ونوفمبر ·

وقد حدثتك فى خطاب سابق عن الثورة التى قامت فى روسيا سنة ١٩٠٥ ، فى أعقاب فترة من الحرب والهزيمة أيضا · وقد أخمدت هذه الثورة بقسوة ، واستمرت حكومة القيصر فى سياستها الاوتوقراطية المطلقة ، تتجسس على كل فرد وتخمد كل محاولة للتفكير الحر ··

وقد شمل هذا الاضطهاد الماركسيين ، وخصوصا البلاشفة ، حتى بات كل المهمين من رجالهم ونسائهم فى معسكرات الاعتقال فى سبيريا أو منفيين فى الخارج · ولكن هذه الحفنة من المنفيين ظلت تواصل نشاطها ودراساتها فى الخارج بزعامة لينين · وقد كانوا جميعا ماركسيين · ولكن النظرية الماركسية وضعت لتلائم البلاد المتقدمة صناعيا مثل انجلترا أو المانيا ، أما روسيا فقد كانت ماتزال اقطاعية ، زراعية ، مع قليل من الصناعة فى المدن الكبيرة · وانطلق لينين يعمل ليوفق بين أسس الماركسية وبين ظروف روسيا الخاصة · وقد كتب لينين كثيرا ، واتصلت المناقشات بين الروس المنفيين ، فكانوا بذلك يعدون أنفسهم نظريا للثورة · وكان لينين يعتقد أن أى عمل لايمكن أن يتم الا اذا قام به خبراء متخصصون لامجرد متحمسين · وأنه اذا أريد للثورة أيضا أن تتم فيجب على الذين يريدون القيام بها أن يتدربوا عليها ، حتى اذا جاءت ساعة العمل ، كانوا على دراية واضحة بما يجب عليهم أن يعملوه ·

وهكذا مضى لينين فى سنوات الكبت التى أعقبت ١٩٠٥ يعد نفسه وزملاءه للعمل المقبل ·

وفى سنة ١٩١٤ كانت طبقة العمال الزراعيين فى روسيا قد أخذت تستيقظ وتتحول الى الثورة مرة أخرى · ووقعت اضرابات سياسية كثيرة ·

ثم جاءت الحرب ، فاستغرقت كل الاهتمام ، وأرسل أكثر

العمال وعيا الى جبهة القتال كجنود ، وقد عارض لينين وأنصاره (وكان أغلبهم في المنفى) عارضوا الحرب منذ البداية ، ولم يجرفهم تيارها الذى جرف سائر الاشتراكيين في البلاد الأخرى ·

كان من رأيهم أنها حرب بين الرأسماليين ، وان الطبقة العاملة لاشأن لها بها ، الا بقدر ماتستطيع أن تفيد من ظروفها لكسب حريتها ·

وقد أصيب الجيش الروسي في الميدان بخسائر رهيبة ، ربما كانت أفدح مما تحمله أي جيش في الحرب كلها ·· وكان وكان القيصر نيقولا أحمق ، وواقعا تحت سيطرة زوجته يقذفون الجنود وهم بغير سلاح تقريبا الى الموت المحقق بمئات الألوف ·

وفي بتروجراد (لينينجراد الآن) وغيرها من المدن الكبرى كانت الصفقات الضخمة تعقد والارباح الهائلة تتدفق على بعض الوصوليين والانتهازيين ، وكان هؤلاء الانتهازيون بالطبع يتخذون مظهر الوطنية المتطرفة ، وينادون بمواصلة الحرب حتى النهاية ·.

ولاشك أنه كان مما يناسبهم أن تظل الحرب قائمة باستمرار! ولكن الجنود ·· والعمال والفلاحين الذين كانوا يمونون الجنود ، أصابهم الارهاق والجوع وامتلأت نفوسهم بالسخط ·

وكان القيصر نيقولا أحمق ، وواقعا تحت سيطرة زوجته القيصرة ، وهي مخلوقة أقوى منه شخصية ، ولكنها لا تقل عنه حماقة ·

وقد أحاط الاثنان نفسيهما بالحمقى والسفلة ، ولم يكن هناك من يجرؤ على توجيه النقد اليهما ·

ووصل الأمر الى حد أن مجرما عتيدا ، عرف باسم جريجورى راسبوتين ، أصبح هو أقرب المقربين الى القيصرة ، وبالتالى الى القيصر · وكان راسبوتين (وراسبوتين كلمة معناها « الكلب القذر ») كان فلاحا فقيرا قبض عليه في تهمة سرقة بعض الجياد ، ثم قرر أن يتخنسمت القديسين ، وأن يحترف الشعوذة ، وكانت الشعوذة في روسيا ، كما هي في الهند ، وسيلة لكسب الرزق ·

وهكذا أطلق شعره ولحيته ، وذاعت شهرته كرجل مقدس حتى وصلت الى البلاط القيصرى •
وكان الابن الوحيد للقيصروالقيصرةمصابا بمرض مستعص وبطريقة ماأقنع راسبوتين القيصرةبأنه قادر على علاج ولى العهد ثم لم يلبث أن أصبحت له سيطرة مطلقة على القيصروالقيصرة، وأصبحت جميع المراكز العليـــا فى الدولة رهن اشـــارته • وقد عاش حياة مليئة بالفسق ، وتلقى رشاوى هائلة ، وأصبح الحاكم المطلق لروسيا كلها ••

كان راسبوتين يثير اشمئزاز الجميع •• حتى المعتـــدلون والارستقراطيون بدأوا يتهامسون ، وترددت أقوال عن التفكير فى ثورة تقع داخل القصر لتغيير القيصر ، وفى هذه الاثناء عين القيصر نيقولا نفسه قائدا عاما للجيش ، وكان هذا كافيا لكى تدب الفوضى الى كل شىء فى جبهة القتال • وقبل نهاية سنة ١٩١٦ بأيام قليلة اغتال أحـد أقارب القيصر راســـبوتين • دعاه فريق من رجال القصر الى الغداء ، ثم أمروه بأن يطلق على نفسه النار ، فلما رفض ، أطلق عليه أحدهم النار • وقدقوبل اغتيال القيصر بارتياح عام من الجميع ، ولكن البوليس السرى التابع للقيصر أمعن عقب هذا الحادث فى التنكيل والاضطهاد ••

وتفاقمت الأزمة ، وسارت المظاهرات فى شوارع بتروجراد تطالب بالطعام • وفى الأيام الأولى من مارس ، ومن خـلال السخط الشامل الذى عم العمال ، وفجأة وبغير سابق انتظار انفجرت الثورة •
وفى خلال خمسة أيام ــ من ٨ الى ١٢ مارس ــ انتصرت الثورة •• لم تكن ثورة داخل القصر ، كما أرادها البعض •ولم تكن ثورة منظمة طبقا لخطة وضـعها قادة معينون • ولـكنها انفجرت من أسفل ، من بين أشد فئات العمال تعاسة وسخطا ، وانطلقت عاتية مغمضة العينين بغير هدف واضح أو قيـــادة واضحة •
وكان الانفجار مفاجئا لجميع الاحزاب الثورية ، بما فيهـــم البلاشفة المحليون ، فلم يعرفوا لأول وهلة كيف يوجهونها • لقد بدأت الجماهير بالخطوة الأولى من تلقاء نفسها ، وفى اللحظة

التى انضم فيها الجنود المرابطون في بتروجراد الى الثوار ، كتب النصر للثورة . ولكن هذا لا يعنى أن هذه الجماهير الثائرة كانت من نوع جماهير الغوغاء التى تستهدف التخريب والتى عرفناها في الثورات السابقة ، فالجديد فى ثورة مارس هذه ان القيادة لأول مرة فى التاريخ ، كانت فى يد فئة عمال المصانع ، أو « البروليتاريا » كما يسمونها . وبالرغم من أن هؤلاء العمال لم تكن لهم قيادة واضحة (اذ كان لينين ورفاقه فى السجن أو المنفى) الا أنه كان بينهم الكثيرون من العمال المجهولين الذين دربهم لينين ورفاقه . هؤلاء العمال المجهولون المدربون ، هم الذين كانوا العمود الفقرى لهذه الحركة كلها ، وهم الذين وجهوها الى مجاريها الحاسمة .

وفى هذه التجربة ، نستطيع أن نرى بوضوح ، دور الطبقة العاملة فى هذا العمل ، كانت روسيا كما قلت لك دولة زراعية بل وكانت الزراعة فيها متخلفة ، متفقة مع نظام الاقطاع .. وكانت الصناعات الحديثة قليلة ، مركزة فى مدن بذاتها . وكانت بتروجراد غاصة بهذه المصانع ، مما أوجد فيها عددا ضخما من العمال الصناعيين . وقد كانت ثورة مارس من صنع عمال بتروجراد وفرق الجيش المرابطة فى المدينة .

سمعت المدينة أول صيحات الثورة فى ٨ مارس . وكان البدء للنساء . اذ خرجت العاملات من مصانع الغزل والنسيج وسرن فى مظاهرات ضخمة الى قلب المدينة .

وفى اليوم التالى انتشر الاضراب فى سائر المصانع ، وانضم العمال من الرجال الى الحركة ، كانت الصيحات تطالب بالخبز وبسقوط « الاوتوقراطية » ، وأرسلت الحكومة فرق القوزاق ، التى كانت دائما سند القيصر ، لمهاجمة العمال المضربين وتشتيتهم . ولكن جنود القوزاق أخذوا يدفعون المتظاهرين دون أن يطلقوا عليهم النار ، ولاحظ العمال فى فرح أن الجنود انما هم أصدقاء لهم ، وان اختفت وجوههم خلف الاقنعة الرسمية ، وتزايدت حماسة الجماهير ، وانطلق المتظاهرون يحاولون كسب صداقة الجنود .

وفى اليوم الثالث ، ١٠ مارس ، اتضحت الزمالة بين الجنود والمتظاهرين ، وسرت اشاعة تقول ان القوزاق أطلقوا النار على

البوليس عندما حاول أن يتصدى للمظاهرات ·
وانسحب البوليس فعلا من المدينة · وتقدمت النساء العاملات الى الجنود يستعطفن ، وخفض الجنود ما بأيديهم من بنادق وحراب !
وكان اليوم التالى ، ١١ مارس ، يوم أحد ، وتجمع العمال في قلب المدينة ، وبدأ البوليس يطلق عليهم النار من مخابئه · وأطلق بعض الجنود النار أيضا فذهب الناس الى مقر قيادة هؤلاء الجنود واحتجوا على ذلك · وتحركت بعض الفرق ، تحت قيادة بعض الضباط ، لحماية الجماهير ، وأطلقت النار على البوليس ·
وقد ألقى القبض بعد ذلك على هذه الفرق ، ولكن الوقت كان قد فات ، فقد تطاير شرر الثورة الى الفرق الأخرى ، فخرجت يوم ١٢ مارس وانضمت الى المتظاهرين ، حاملة بنادقها الرشاشة · وغمر الرصاص شوارع المدينة دون أن يميز أحد بوضوح من الذى يطلق النار ، وعلى من · وتوجهت جموع الجنود والعمال للقبض على الوزراء — الذين هرب بعضهم — وعلى رجال البوليس والجواسيس ، كما أطلقوا سراح المسجونين السياسيين ·
انتصرت الثورة اذا فى بتروجراد · ثم لم تلبث موسكو أن تبعتها · وبقيت الأقاليم تنتظر التطورات · وشيئا فشيئا تقبل الفلاحون الحركة الجديدة ، ولكن بغير حماسة · كان أهم مايشغلهم هو : ان يملكوا الارض ، وأن يتحقق السلام ·
ماذا عن القيصر ؟ ماذا كان يصنع خلال تلك الأيام الحافلة ؟ لم يكن فى بتروجراد · كان بعيدا فى بلدة صغيرة ، المفروض أنه كان يقود جيوشه منها · ولكنه سقط بسهولة ، دون أن يلحظ أحد ، كما تسقط الثمرة الفاسدة على الأرض ·
لقد اختفى القيصر ·· الاوتوقراطى العظيم ·· وحاكم روسيا بأكملها ·· والرجل الذى كان يرتجف أمامه الملايين ·· سقط فى سهولة تامة واختفى فى رماد التاريخ ، انه لمن العجيب حقا أن نرى كيف تنهار النظم الضخمة اذا بلغت غايتها واستنفدت مهمتها ! ·
عندما سمع القيصر نبأ اضرابات العمال فى بتروجراد أمر باعلان الأحكام العرفية ·· وكان المفروض أن يصل الامر الى

حكام المدن والأقاليم لتنفيذه ، ولكن الامر لم يصل الى أحد ، اذ لم يكن هناك من يقوم بتوصيله ! لقد تحطم جهاز الحكومة وتمزق ، الى قطع صغيرة ٠

وحاول القيصر ، وهو غير شاعر بكنه مايحدث ، أن يعودالى عاصمته ٠ ولكن عمال السكك الحديدية أوقفوا قطارهفيالطريق وكانت القيصرة فى بلدة ريفية قريبة من بتروجراد ، فأرسلت برقية الى القيصر ، فأعادها اليها مكتب التلغراف ، بعد أن كتب عليها أحد الموظفين بالقلم الرصاص « عائد ، لعدم معرفةعنوان المرسل اليه !»

وأدرك القواد فى الجبهة والزعماء المعتدلون فى بتروجراد خطورة الموقف فطلبوا من القيصر أن يتنازل عن العرش،عساهم أن ينجحوا فى انقاذ ما يمكن انقاذه ٠٠

وتنازل القيصر على الفور ، وعين أحد أقربائه ليتولىمكانه٠ ولكن زمن القياصرة قد مضى ، وبعد ٣٠ سنة من الحكم المطلق ، كان على أسرة رومانوف كلها أن تبرح مسرح الحياة فى روسيا٠

أما الارستقراطيون ، والملاك الزراعيون ، والطبقاتالمتوسطة الكبيرة ، وحتى الزعماء الاحرار والمصلحون ، فقد نظروا الى حركة الطبقات العاملة فى كثير من القلق والرعب ، وشعروا بأنهم تجردوا ازاءها منكلسلاح ، عندماانضم سندهم التقليدى ، وهو الجيش ، الى العمال ٠٠ كانوا عاجزين فى أول الأمر عن التكهن بمن سوف يكتب له النصر ، فقد كان محتملا أن يعود القيصر الى العاصمة على رأس جيشه ويخمد الثورة ٠

ومضت عليهم أيام من التأرجح المرهق ، بين احتمال عودة القيصر واحتمال انتصار العمال ، ومن الرغبةالملحة فى أنينجو كل منهم ولو بجلده فقط ٠ وكان هناك « الدوما » وهو مجلس نيابى يمثل الملاك الزراعيين والطبقة المتوسطة الكبيرة ، وقد مرت لحظة تطلع فيها العمال الثائرون الى هذا المجلس ليقودهم ولكن أعضاء المجلس بدلا من أن يقبضوا على زمام القيادة فى هذه الأزمة ، جلسوا خائفين مرتعدين عاجزين عن اتخاذ أى قرار ٠٠

وفى هذه الاثناء بدأت مجالس السوفيت تتكون ٠ وأضيف

لى ممثلى العمال ممثلون من الجنود ، واحتلت المجالس السوفيتية الجديدة جناحا كبيرا من قصر « توريد » الذى كان يشغل مجلس الدوما جناحا آخر منه • كان الثائرون تملؤهم الحماسة والثقة بعد أن كتب لهم النصر • ولكن لم يلبث أن واجههم السؤال الهام : ماذا يصنعون بعد ذلك ؟ لقد استولوا على السلطة ، فمن هو الذى يمارسها ؟ لم يخطر ببالهم قط أن هذا المجلس السوفييتى نفسه يمكن أن يمارس السلطة ، كانوا يعتقدون ان الوضع الطبيعى هو أن تتولى الطبقة المتوسطة الحكم • وذهب مندوب من السوفييت الى مجلس الدوما يطلب منه أن يختار من يحكم •

وقد ظن أعضاء مجلس الدوما أول الأمر أن هذا المندوب قد جاء ليقبض عليهم ! وكان الاعضاء جميعا عازفين عن تحمل المسئولية ، والتعرض للمخاطرة التى تنطوى عليها • ولكن ماذا يصنعون ؟ ان ممثل السوفييت مصر على أن يتولى المجلس السلطة ، والأعضاء خائفون من عاقبة الرفض أيضا • وخوفا من النتائج التى لايمكن التنبؤ بها ، قبلت جماعة من الأعضاء تولى السلطة ، وبدا للعالم الخارجى أن مجلس الدوما هو الذى يقود الثورة ! •• أليس هذا كله غريبا ؟ •• أننا لا نصدق مثل هذه الاحداث لو قرأناها فى احدى الروايات ، ولكن هذه هى الحقيقة ، وهى كثيرا ماتكون أغرب من الخيال !

كانت الوزارة التى شكلها الدوما وزارة محافظة جدا ، وكان رئيسها من أمراء بيت رومانوف • وفى الجناح الآخر من نفس المبنى كان يوجد مجلس السوفييت ، يتدخل باستمرار فى أعمال الحكومة • ولكن السوفييت نفسه كان معتدلا ، وكان البلاشفة فيه حفنة قليلة فحسب • وبذلك كانت فى روسيا أكثر من سلطة الوزارة ، ومجلس السوفييت ، ثم الجماهير الثائرة التى حملت عبء الثورة ، والتى كانت تنتظر نتائج سريعة باهرة !

ولكن الشىء الوحيد الذى تلقته الجماهير الجائعة الثائرة هو نداء الحكومة لها بضرورة مواصلة القتال حتى يتم النصر الأخير على المانيا ! فمضوا يتساءلون •• أمن أجل هذا خاضوا غمار الثورة ، وعزلوا القيصر ؟

وفى هذه اللحظة بالذات ، فى ١٧ أبريل ، وصل لينين الى

مسرح الحوادث . كان يقيم أثناء الحرب في سويسرا ، متحرقا للعودة الى روسيا منذ أن سمع أنباء الثورة . ولكن كيف يعود الى روسيا ؟ لا الانجليز ولاالفرنسيون ولا الالمان أوالنمسويون سيسمحون له بالمرور من أراضيهم . ولكن الحكومة الالمانية عادت فوافقت على أن يجتاز المانيا من سويسرا الى روسيا في قطار مغلق .

وكان السبب الذى دفع الحكومة الالمانية الى الموافقة هو علمها بأن لينين يعارض الحرب ، فوصوله الى روسيا سوف يضعف مركز الحكومة ، ويرجح كفة الذين يدعون الى عقد الهدنة ، الامر الذى يوفر على المانيا مئونة القتال في الجبهة الشرقية . ولم تكن حكومة المانيا تتوقع طبعا أن تسفر هذه الثورة الغامضة عن المارد الجديد الذى هز أوروبا والعالم بأسره .

ولم يكن فى ذهن لينين أى شك أو غموض ، كان له النظر الثاقب الذى يعرف به حقيقة التيارات بين الجماهير ، والذهن الواضح الذى يوفق به بين المبادىء الثابتة والمواقف المتغيرة ، والارادة الصلبة التى تتشبث بما تريد ، بصرف النظر عن النتائج القريبة العاجلة . وفى يوم وصوله بالذات ، هز الحزب البلشفى فى عنف ، وحمل على ركود أعضائه ، ورسم فى كلمات ملتهبة مايجب عليهم . قال لهم « يجب أن نرتبط برغبات الجماهير ، واذا كان لامفر من أن نبقى أقلية فلنكن كذلك ، انه لمن الخير أحيانا أن نبتعد عن مركز القيادة لبعض الوقت ، ولا يجب أن نخاف من بقائنا أقلية » .

وهكذا تمسك بمبادئه ورفض أى مساومة . ووجدت الثورة التى بدأت غامضة معصوبة العينين قائدها . وخلقت الظروف رجلها المناسب .

ولكن .. ماهو الخلاف الذى كان يفرق بين البلشفيك وبين المانشفيك وسائر الأحزاب الموجودة على المسرح ؟ وما الذى غير وضع البلاشفة بعد وصول لينين ؟ وما الذى جعل مجلس السوفييت بعد أن حصل على القوة ، يعود فيسلمها الى أعضاء الدوما المحافظين ، من الطراز القديم ؟ لا أريد أن أخوض وراء هذه الأسئلة الى أعماق بعيدة . ولكنه لابد لنا على أى حال من أن نقف عندها قليلا ، حتى نفهم تطور الدراما التى جرت على

مسرح بتروجراد ، وروسيا كلها ، سنة ١٩١٧

ان فكرة كارل ماركس عن التطور الانساني والتقدم ، وهي التي يطلق عليها اسم « التفسير المادى للتاريخ » تقوم على أساس ان هناك علاقات اجتماعية جديدة تأخذ مكان العلاقات القديمة بمجرد أن تستنفد هذه الاخيرة أغراضها ..

وان تطور وسائل الانتاج يؤدى الى تطور نظام المجتمع السياسى والاقتصادى . أما وسيلة هذا التطور ، فهو الصراع المستمر بين الطبقات ، بين الطبقات الحاكمة والطبقات المحكومة وعلى هذا الاساس أخلت الطبقة الاقطاعية القديمة مكانها للطبقة البورجوازية التى تحكم الآن فى غرب أوروبا ، والتى يجب عليها ، طبقا لهذه النظرية ، أن تخلى مكانها للطبقة العاملة . وفى روسيا ، عندما نشبت الثورة ، كانت الطبقة الاقطاعية مازالت قابضة على السلطة ، ولم يكن التغير الذى نقل السلطة الى الطبقة البورجوازية فى غرب أوروبا قد تم فى روسيا بعد . وعلى هذا الاساس رأى أغلب الماركسيين الروس أن روسيا يجب أن تنتقل أولا الى البورجوازية والبرلمانية قبل أن تنتقل الى مرحلة الجمهورية العمالية . أى أن المرحلة الثانية فى التطور لايمكن القفز عليها وعدم المرور بها ، ولينين نفسه ، قبل ثورة مارس هذه ، كان قد وضع سياسة تقضى بالتعاون مع الفلاحين والطبقة المتوسطة ، للقضاء على القيصر وكبار الملاك ، أى بقيام ثورة « بورجوازية » .

كان البلشفيك والمانشفيك والماركسيون جميعا اذا مؤمنين بفكرة تحقيق ديمقراطية « بورجوازية » على الطراز الفرنسى مثلا ، وكان زعماء العمال وممثلوهم أيضا يؤمنون بهذا الرأى . ومن أجل ذلك سلم مجلس السوفييت السلطة الى مجلس الدوما بدلا من أن يحتفظ بها لنفسه ، كان هؤلاء الناس ـ كما يحدث ـ قادرين على ادراك ان ثمة موقفا جديدا قد ظهر ، وأن الموقف الجديد يحتاج الى خطة جديدة ، أو الى تعديل الخطة القديمة على الأقل . كانت الجماهير أكثر ثورية فى تلك اللحظة من قادتها . ونادى « المانشفيك » والذين كانوا يمثلون أغلبية فى مجلس السوفييت ان الطبقة العاملة يجب أن لاتثير الآن أى قضية اجتماعية . وان الطلب الأول المباشر هو تحقيق الحرية

السياسية ٠

وبوصول لينين ، تغير هذا كله ٠ لقد أدرك ـ بعبقرية الزعيم الحقيقى ـ الموقف كله من الوهلة الاولى ، وعرف كيف يغير البرنامج الماركسى بما يناسب الموقف الجديد ٠ وأعلن أن الصراع يجب أن يكون ضد الرأسمالية نفسها ٠ بقصد وضع مقاليد الحكم بين يدى الطبقة العاملة والفلاحين الفقراء ٠

وأعلن أن الشعارات الاولى للبلشفيك يجب أن تكون :

(١) جمهورية ديمقراطية (٢) مصادرة الاقطاعات الزراعية (٣) ٨ ساعات عمل فقط في اليوم الواحد ٠ وبظهور هذه الشعارات تبلورت الثورة بالفعل حول أهدافها ٠٠ وأصبحت تعنى بالنسبة للناس مصالح واضحة محددة ٠

وكانت خطة لينين أن يحرز البلشفيك الأغلبية فى صفوف العمال ، وبالتالى يسيطرون على مجلس السوفييت ، ثم يعمل مجلس السوفييت على أخذ السلطة من الحكومة المركزية ٠٠ لم يكن من رأيه أن تنشب ثورة أخرى على الفور ، وصمم على أن يحصل على أغلبية العمال أولا ، ثم على الأغلبية فى السوفييت ٠ قبل أن يحاول اسقاط الحكومة ٠ وكان قاسيا فى معاملته لمن أرادوا التعاون مع الحكومة ، حتى رماهم بخيانة الثورة ٠ وكان قاسيا بالمثل على الذين أرادوا اسقاط الحكومة قبل أن يحين الوقت ، وكان يقول « ان عدم التنظيم ، هو أكبر جريمة » ٠

وهكذا ، بهدوء عجيب ، وكأنه رسول قدر لامفر منه ، انطلق هذا الرجل الذى يشبه كرة الثلج التى تخفى فى باطنها نارا مستعرة ، الى غايته المرسومة ٠



الثورة السلمية فى الهند

١١ مايو ١٩٣٣ ..

يجب أن أروى لك شيئا عن الاحداث الأخيرة فى الهند . ولا شك أن كلانا مهتم بما يجرى فى بلادنا أكثر من اهتمامنا بما يجرى خارج الحدود . لذلك فان على أن أجاهد نفسى حتى لا أدخل ، وأنا أكتب لك هذا الخطاب ، فى تفاصيل كثيرة .

وبصرف النظر عن اهتمامنا الخاص بالهند ، لأنها بلادنا ، فان الهند قد أصبحت بالفعل احدى مشاكل العالم الكبرى . انها المثل التقليدى الدقيق للاستعمار فى العالم كله ، ان بناء الاستعمار البريطانى كله يستند على الهند . وقد كان استعمار انجلترا للهند مثلا ناجحا احتذاه الاستعمار فى غيرها من البلاد ..

وقد حدثتك فى خطابات سابقة عن التغيرات التى حدثت فى الهند خلال الحرب العالمية (الأولى) ، وعن نمو الصناعة الهندية ونمو الطبقة الرأسمالية فى الهند ، وعن تحول موقف السياسة الانجليزيةمن الصناعاتالهندية . كانالضغطالصناعى

والتجارى من الهند على انجلترا يتزايد باستمرار ، كالضغط السياسى سواء بسواء • وكان الشرق بأكمله تغمره يقظة جديدة، منذ أن انتهت الحرب • وبدت فى الهند عدة بوادر تنم عن نشاط ثورى عنيف • وتضخمت أحلام الناس • وشعرت الحكومة الانجليزية نفسها بأنه لابد من عمل شيء ، وبدأت تتخذ عدة خطوات فى الميدان السياسى بواسطة عمل تحقيق انتهى الى تقرير حوى بعض الاقتراحات وعرف باسم تقرير مونتاجو - شلمسفورد - كما اتخذت فى الميدان الاقتصادى عدة خطوات أرادت بها اعطاء بعض المزايا والمسكنات للطبقة المتوسطة النامية وان بقيت حريصة على بقاء جميع عناصر السلطة والاستغلال فى يدها كالمعتاد • •

وقد أعقبت الحرب فترة قصيرة من الرواج التجارى ، أدت الى تحقيق أرباح ضخمة ، خصوصا فى تجارة الجوت فى منطقة البنغال •

ووصلت الأرباح الى نسبة مائة فى المائة • وارتفعت الاسعار وارتفعت الأجور نتيجة لذلك ، ولكن بنسبة أقل • وبارتفاع الأسعار ارتفع الايجار الذى يجب أن يدفعه المستأجرون للملاك الزراعيين •• ثم جاءت الأزمة ، وبدأت التجارة تميل الى الركود •• وساءت أحوال العمال الصناعيين والزراعيين وأخذ السخط يزداد بسرعة وانتشرت الاضرابات فى المصانع وكانت الحالة فى «أوده» بالذات بالغة السوء نظرا للنظام الزراعى الموجود هناك ، فنشبت حركة زراعية ناجحة انبثقت من تلقاء نفسها •• وبين المتعلمين من أبناء الطبقات المتوسطة الصغيرة ، انتشرت البطالة ، وأدت الى كثير من صور الاملاق •

تلك هى الظروف الاقتصادية التى كانت سائدة فى هذه الفترة التى أعقبت الحرب • فاذا استطعت أن تضعى هذه الظروف فى تقديرك ، فسوف يسهل عليك فهم تطورات السياسية التى أعقبت ذلك • لقد كانت الروح الثائرة تسود البلاد ، وتعبر عن نفسها فى صور كثيرة ، كان العمال الصناعيون ينظمون أنفسهم فى نقابات ، ثم فى مؤتمر لنقابات كل الهند، وكان المزارعون وصغار الملاك الزراعيين ساخطين على الحكومة،

مترقبين فرصة أي صدام سياسي . حتى المستأجرين ، كالحرباء كانوا يحاولون التلون ، أما الطبقات المتوسطة ، خصوصا المتعطلين من أفرادها ، فقد كانوا مصممين على الاتجاه نحو العمل السياسي ، بل والى النشاط الثورى أيضا ..

كان الهندوس والمسلمون والسيخ يتساوون جميعا فى هذه الأحوال ، لأن الظروف الاقتصادية فى ضغطها لاتفرق بين دين ودين ! ولكن المسلمين كانت ثورتهم على انجلترا أشد ، لدخولها الحرب ضد تركيا ، وما بدا من محاولتها الاستيلاء على جزيرة العرب ، وبلاد الشرق الأدنى ، وما فيها من مدن مقدسة مثل مكة والمدينة والقدس .

بدأت مقدمات السياسة الانجليزية الجديدة تظهر فى صورة اقتراحات بقوانين خاصة أريد بها السيطرة على الحركات الثورية التى كانت تبدو فى الافق .. أى أن انجلترا بدلا من أن تقدم للهنود مزيدا من الحرية ، عمدت الى مزيد من الكبت .. وكانت مشروعات القوانين هذه مبنية على أساس تقرير اسمه « تقرير رولات » ولكنها لم تلبث أن أطلق عليها اسم « القوانين السوداء» وهتف الجميع بسقوطها فى كل مكان ، واشترك فى هذا الموقف حتى أكثر الناس اعتدالا ، كانت القوانين تعطى الحكومة حق اعتقال من تشاء من الناس ، ووضعهم فى السجون بلا محاكمة أو محاكمتهم سرا .. وكان معنى هذا بالطبع وضع كل من لا ترضى عنه الحكومة فى السجن ..

وفى نفس الوقت الذى انتشرت فيه الحملة على هذه القوانين ظهر فى أفق السياسة الهندية عامل جديد ، أو سحابة جديدة لم تلبث أن اتسعت حتى غطت سماء الهند كلها .

كان هذا العامل الجديد : موهنداس كرامشاند غاندى . وكان غاندى قد عاد من جنوب أفريقيا الى الهند خلال الحرب ، وأقام فى مستعمرة صغيرة فى « سابرماتى » وبقى طوال الحرب

بعيدا عن السياسة ، بل انه ساعد الحكومة فى حض الناس على التطوع للحرب ، وكان له صيت واسع

فى الهند منذ تزعم حركة المقاومة السلبية فى جنوب أفريقيا . وفى سنة ١٩١٧ قاد بنجاح حركة الفلاحين التعساء الذين كانوا يعملون فى أراضى الاوروبيين فى بيهار • ثم وقف الى جانب الفلاحين مرة أخرى فى « كايرا » فى « جوجرات » ، وفى بداية سنة ١٩١٩ كان مريضا جدا •

وعندما اقترب من الشفاء وجد حركة مقاومة قوانين رولات تملأ البلاد ، فضم صوته الى أصوات الملايين الساخطين •

ولكن صوته كان مختلفا عن أصوات الآخرين • كان صوتا هادئا خفيضا ، ولكنه كان أعلى من جميع الصيحات التى يطلقها الآخرون • كان صوتا ناعما مهذبا ، ولكنه يخفى فى ثناياه نصلا حادا لايخطئه النظر • كان صوتا رقيقا مليئا بالرجاء ، منطويا على شيء مخيف . كانت كل كلمة منه تحمل معنى ، وتحمل اخلاصا لاحد له • كانت لغة السلام والصداقة التى يتحدث بها تنم فى الوقت نفسه عن القوة ، والرغبة فى العمل ، والاصرار على عدم ارتكاب أى خطأ • ونحن الآن معتادون على هذا الصوت اذ سمعناه كثيرا خلال الأربعة عشر عاما الماضية • ولكنه كان يبدو جديدا تماما علينا فى فبراير ومارس سنة ١٩١٩ ، وقد تأثرنا به جميعا ، وان لم نعرف فى البداية كيف نفيد منه• كان شيئا آخر يختلف تماما عن أحاديثنا الحماسية فى السياسة وخطبنا المليئة بكلمات الاتهام ، التى كانت تنتهى دائما بنفس الاحتجاجات التى لايحملها أحد على محمل الجد • كان هذا الصوت الجديد يقدم لنا سياسة العمل ، لاسياسة الكلام •

نظم غاندى حركة عصيان مدنى من أولئك الذين أبدوا استعدادهم لعصيان قوانين معينة ، ولدخول السجن بهذه الجريمة • كانت هذه الفكرة جديدة تماما • آمن بها الجميع ، وفزع منها الكثيرون ولكنها الآن أصبحت شيئا عاديا ، وأصبح كل واحد منا يعتبرها جزءا من روتين حياته !

بدأ غاندى ـ كالعادة ـ بارسال طلب مهذب وتحذير الى الحاكم العام ، ونائب الملك • وعندما وجد أن الحكومة الانجليزية عازمة على تنفيذ القانون برغم معارضة الهند كلها ، دعا الى الاضراب يوما كاملا ، بحيث تتوقف الحياة تماما فى الهند كلها فى اليوم التالى لاصدار هذا القانون - كان هذا الاضراب تمهيدا

لحركة الساتياجراها • وبذلك أعتبر يوم ٦ ابريل سنة ١٩١٩ يوم الساتياجراها في البلاد كلها ، المدن والقرى على السواء •
كانت هذه الحركة أول مظاهرة تشترك فيها الهند كلها • وقد كان تأثيرها عظيما • خصوصا وقد اشترك فيها جميع الناس من جميع الفئات •

وقد دهشنا نحن الذين اشتركنا فى تنظيم الحركة من النجاح الذى حققته • كنا نظن أننا لن نستطيع أن نؤثر الا فى عدد قليل من الذين يسكنون المدن • ولكن الجو كانت تملؤه روح جديدة ، وبطريقة ما وصلت الدعوة الى أبعد قرية فى بلادنا الواسعة • ولأول مرة ، اشترك الفلاح كالعامل الصناعى فى حركة سياسية على هذا النطاق الهائل •

وقد أخطأت دلهى فى التاريخ ، فجعلت يوم اضرابها يوم السبت السابق على ٦ ابريل ، أى فى ٣١ مارس ، وكانت تلك الفترة أياما رائعة من الأخوة والزمالة بين الهندوس والمسلمين فى دلهى •
وفى ٣١ مارس هذا ، حاول الجيش والبوليس أن يفرق الجماهير التى تجمعت فى الشوارع ، وأطلق عليها النيران ، وسقط الكثيرون قتلى •
وكان « سوامى شارد هاناند » يخطب فى الجمع الذى احتشد فى مسجد « جام » فواجه ، بقامته الطويلة النحيلة ، مفتوح الصدر ، ثابت العينين ، حراب الانجليز وبنادقهم • وقد نجا من هذه الحراب ، واهتزت الهند كلها للحادث ، ولكنه لسوء الحظ ، قتل غيلة بعد ذلك بست سنوات ، وهو راقد على فراش مرضه ، بيد أحد المسلحين المتعصبين !
وأخذت الاحداث تمضى بسرعة بعد يوم الساتياجراها فى ٦ ابريل •
ففى ١٠ ابريل ، فى ارمتسار ، سارت مظاهرة من المواطنين غير المسلحين ، يحتجون على اعتقال زعمائهم ، الدكتور كيتشلو والدكتور ساتيا بال وغيرهم ، وأطلق الجنود عليهم النيران وقتلوا الكثيرين ، وانتقمت الجماهير لنفسها بالهجوم على بعض المؤسسات الانجليزية وبقتل خمسة أو ستة من الانجليز الابرياء ، وهم

جالسون الى مكاتبهم ، وباحراق البنك الذى يعملون فيه ٠

وكان ستارا حديديا نزل فعزل البنجاب عن سائر الهند ٠ الناس لايخرجون منها ولا يدخلون اليها ٠ والانباء الخاصة بها مقطوعة تماما ٠ كان الانجليز قد أعلنوا الاحكام العرفية هناك ، وظلت معلنة بضعة شهور ٠ وبعد عدة شهور من الترقب المتوتر القلق، ارتفع الستار شيئا فشيئا ، عن الحقيقة المرعبة ٠

لن أروى لك الفظائــــع التى ارتكبت فى البنـــجاب ، فى ظل الاحكام العرفية ، فالعالم كله يعلم قصة المذبحة التى جرت يوم ١٣ ابريل فى ارمستار ، حيث سقط آلاف من القتلى فى تلك المصيدة التى أقيمت بحيث لاينجو منها أحد ٠ لقد أصبح اسم « ارمستار » قرينا فى أذهاننا لكلمة « مذبحة » ، ولم تكن هذه هى المذبحة الوحيدة ، أو الاكثر بشاعة ، التى حـــدثت فى البنجاب كلها ٠٠

انه لمن العسير عــلى أى نفس أن تعفــو عن هــذه البربرية الشائنة ، ولو مضت عليها السنون ، وانه لمن العسير أيضــا تفسيرها ٠ لقد كان الانجليز فى الهند يشعرون دائما بأنهم على فوهة بركان ، ولكنهم لم يحاولوا أبدا أن يفهموا مافى رأس الهند ومافى قلبها ، كانوا يعيشون حياتهم فى الهند منعزلين معتمدين على تنظيمهم الكبير ، وعلى القوة التى تسندهم ، ولكن خلف كل هذه الثقة التى يتذرعون بها ، كان يكمن فى نفوسهم خوف غامض من المجهول ٠ لقد ظلت الهند، وبالرغم من هذا الاستعمار الطويل ، أرضا مجهولة بالنسبة لهم ، كانت ذكريات ثورة عام ١٨٥٧ حية على الدوام فى مخيلتهم ، وكانت هذه الذكريات كافية لكى يشعروا على الدوام بأنهم يقيمون فى أرض غريبة عنهـــم ، وبلاد كارهة لهـــم ، قــد تنقلب عليهـــم فى أى لحظة ٠ تلك كانت عقيدتهم ، فلما رأوا حركة معادية واســعة تنشب فى الهند ، تحركت مخاوفهم وتنبهت ٠ حتى اذا تلقى الرسميون فى البنجاب أنباء الحوادث الدامية التى جرت فى ارمتسار يوم ١٠ ابريل ، فقدوا السيطرة على أعصابهم تماما ، وظنوها ثورة دامية أخرى على نطاق واسع ، مثل ثورة ١٨٥٧، تهدد حياة السكان الانجليز بالخطر ٠ لم يروا الا اللون الاحمر، ولم يفكروا الا فى الاعمال المرعبة ٠ ولم تكن مذابح البنجاب

والاحكام العرفية الا نتيجة لهذه العقلية ٠

وقد يفهم المرء – وان كان لايغني – أن يقدم الانسان وهو تحت سيطرة الخوف على تصرفات خاطئــة ، ولو لم تكن ثمة أسباب جدية تبرر هذا الخوف ٠

ولكن الذى أثار الهند أكثر من أى شىء آخر ، هو الطريقة التى برر بها الجنرال ديار ، المسئول عن المذبحة ، تصرفه هذا بعد وقوعه بشهور ، وأسلوبه البربرى فى اهمال العناية بآلاف الجرحى ، اذ قال « ليس هذا من شأنى ! » وقد انتقدت بعض طوائف الشعب الانجليزى سلوك الجنرال ديار ، أما فى مجلس اللوردات ، فقد كان تصرفه محل ثناء عاطر ، اذ أمطره الاعضاء بوابل من كلمات التقريظ ٠ كل هذا ضاعف من تأجج الحقـد الملتهب ، بين الهنود ، فتكونت لجان للتحقيق ، وظل النـاس يترقبون النتيجة ٠

ومن ذلك الوقت ، أصبح ١٣ ابريل يوما قوميا فى الهند ، وأصبحت الأيام من ٦ الى ١٣ ابريل أسبوعا قوميا كذلك ٠ وأصبحت منطقة « جاليانوالا باج » التي وقعت فيها المـذبحة مكانا للحج السياسى ٠ وقد تحولت الآن الى حديقة جميلة ، ولكن الذكريات مازالت ترفرف فى سمائها الى الآن ٠

وقد انعقد المؤتمر فى تلك السنة ، بمحض المصادفة ، فى « ارمستار » نفسها ٠ ولم يصــل المؤتمر فى تلك الدورة الى قرار هام ٠

ولكن كان واضحا ان هذا المؤتمر قد تغير تغيرا كبيرا ٠ فقد اصبحت له الآن شخصية جماعية ، وحيوية جديدة دافقة ، بل ومزعجة بالنسبة لرجال المؤتمر القدامى ٠ كان هناك «لوكامانيا تيلاك » الذى لايقبل مساومة ، يحضر آخر دورة للكونجرس ، اذ أنه مات قبل أن تنعقد دورة العام التالى ٠ وكان هناك غاندى معبود الجماهير ، فى بدء سيطرته السياسية الطويلة على المؤتمر بل وعلى الهند كلها ٠

وجاء الى المؤتمر أيضا ، من السجن رأسا ، كثير من الزعماء الذين لفقت لهم قضايا كثيرة فى فترة اعلان الاحكام العرفية ، وحكم عليهم بالســجن مددا طويلة ، ثم أطلق سراحهــم ٠ والأخوة « على » المشهورين الذين أفرج عنهم بعد اعتقال دام

سنوات طويلة .

وفى العـــام التالى ، أقدم المؤتمر على المخـــاطرة ، وقرر الأخذ ببرنامج غاندى الخاص بعدم التعاون .

كانت خطه الصراع التى رسمها غاندى خطة سلمية تماما ، تقوم على « عدم العنف » وهو الوصـــف الذى عرفت به .. وتتلخص فى رفض التعاون مع الحكومة فى ادارتها واستغلالها للهند بأى صورة من الصور . وكانت الخطة تقضى بأن تبـدأ المقاطعة ببعض الصور البسيطة مثل رفض الالقاب المعطاة من الحكومة الأجنبية ، والمناصب الرسمية ، ومقاطعة المحاكم سواء من المحامين أو المتقاضين . والمدارس والكليات الحكومية . ثم تمتد المقاطعة بعد ذلك الى الخدمة العسكرية ، ودفع الضرائب .
وكان للحركة جانب بنائى ، أو ايجابى ، أول بنوده اقتنـــاء المغازل اليدوية واستعمالهـــا فى غزل الاقمشــــة ، وتكوين هيئات تحكيم أهلية تحل محل المحاكم فى الفصل فى المنازعات
وكان ثمة فى البرنامج بندان هامان : الأول هو التآخى والوحدة بين الهندوس والمسلمين ، والثانى هو رفع الحاجز الذى يفصل المنبوذين ، ويقضى بعدم لمسهم أو مشاركتهم الطعام ..

وفى نفس الوقت غير المؤتمر قانونه الأســـاسى ، بحيث تحول الى هيئة قادرة على العمل الايجابى ، وأصبحت عضويته مفتوحة للجميع .

كان هذا البرنامج جديدا تماما عـلى المؤتمر ، بل أنه كان جديدا تماما على العالم كله ، ذلك ان حركة « الساتياجراها » التى جرت فى جنوب أفريقيا كانت فى نطاق محــدود جدا .
وكان هذا البرنامج أيضا يتطلب تضحيات كبيرة عاجلة من كثير من الناس ، كالمحامين مثلا ، الذين كان عليهم أن يهجروا عملهم، والطلبة الذين كان لابد لهم من ترك الكليات الحكومية . كان من الصعب جدا توجيه هذه الحركة والتحكم فيها . فلم يكن غريبا أن يتردد أمامها رجال المؤتمر القــدامى المجربين وان تمتـــلأ نفوسهم بالشك . فلم ينضم الى غاندى فى المراحل الأولى من رجال المؤتمر القدامى غير واحد فقط ، هو موتيلال نهرو (١)
أما رجل المؤتمر العادى ، أما رجل الشارع ، أما الجماهير كلها،

---

(١) والد نهرو

فلم يكن هناك أى شك فى موقفها • لكأنما دفع غاندى هـذه الجماهير الى التحرك بنوع من السحر والتنويم المغناطيسى ! فانطلقت تعبر بهتافها « مهاتما غاندى » عن تأييدها للدعوة الجديدة ، دعوة المقاطعة وعدم التعاون • وبان المسلمون فى حماستهم لهـذه الخطة كالآخرين تماما • بل ان مجلس الخلافة ، بزعامة الاخوة على ، أقر البرنامج ووافق عليه قبل أن يوافق عليه حزب المؤتمر • ولما تبدى تأييد الجماهير للبرنامج على هذا النحو ، ونجحت خطواته الأولى ، انضم الى الحركة أغلب القدامى من زعماء المؤتمر ، الذين كانوا مترددين •

ولست بمستطيع أن أوضح فى هذه الرسائل ، مزايا هذه الحركة وعيوبها ، أو أن أشرح فلسفتها ، فتلك مسألة معقدة حقا ، وربما لايقدر على تقديم اجابة صحيحة لها غير رجل واحد ، هو غاندى • ولكن ، لابأس من أن ننظر اليها ولو من الخارج فحسب ، وان نحاول فهم سر نجاحها وانتشارها بهذه السرعة •

لقد حدثتك عن ضغط الظروف الاقتصادية على سواد الناس وعن تطور أحوالهم من سىء الى أسوأ ، نتيجة للاستغلال الاجنبى وعن انتشار البطالة بين فئات الطبقة المتوسطة ، فما هو علاج هذه الاحوال ؟ لقد أدى انتشار الوعى الوطنى الى اقتناع الناس بحاجتهم الملحة الى الحرية السياسية ، ولم تكن الحرية شيئا ضروريا لمجرد أنه من المهانة أن يكون الناس عبيدا غير مستقلين، ولا لمجرد أن الحرية حق طبيعى ولد مع كل انسان ، ولكنها كانت ضرورية أيضا لتخفيف عبء الفقر الذى تنوء تحته كواهل المواطنين • فكيف نحصل على هذه الحرية ؟ اننا بالطبع لن نحصل عليها بالرضوخ والهدوء والانتظار •

ومن الواضح أيضا ان وسائل الرجاء والاحتجاج التى جرى المؤتمر على التوسل بها كانت غير مجدية ، ومثبطة لهمم الجماهير • فلم يحدث فى التاريخ كله ان نجحت هذه الوسائل فى اقناع الطبقات الحاكمة بترك مقاعد الحكم • ولم يحدث فى التاريخ ان نجحت الجماهير المستعبدة فى نيل حريتها الا بوسائل العنف والثورة والاضطراب •

أما عن الثورة المسلحة ، فأنها كانت بعيدة عن تفكير الشعب

الهندي • فقد كنا جميعا غير مسلحين ، وأكثرنا لايعرف كيف يستعمل السلاح • هذا الى أنه ، فى أى صراع مسلح ، يكتب الفوز دائما للقوة الحكومية المنظمة على أى قوة يمكن أن تقوم فى وجهها • قد تعمد الجيوش الى العصيان فتنجح ، أما الجماهير العزلاء فانها لا تقدر أبدا على مواجهة القوات المسلحة ••

وأما عن خطة الارهاب الفردى ، بواسطة الاغتيال والقاء القنابل على الجنود ، وهم فرادى ، فانها خطة افلاس ! انها خطة تنطوى على الدناءة ، ومن الحماقة أن تتصور انها قد تهز حكومة قوية منظمة ، مهما نجحت فى افزاع أفراد هذه الحكومة •

اذا •• فماذا بقى ؟ لقد نجحت روسيا فى ثورتها وأقامت جمهورية عمالية ، وكان أسلوبها العمل الجماعى الذى يسنده الجيش •• ولكنه حتى هذه الثورة انما نجحت فى فترة وصلت الحكومة الروسية فيها الى ذروة الانهيار والتمزق ، نتيجة للحرب ، فلم يبق أى جهاز قوى يمكن أن يقاوم الثورة ••

هكذا كان يبدو أن كل الطرق للخلاص من هذه الأحوال مسدودة • وشعرت الجماهير الحساسة بهذا الموقف فركنت الى الانهيار واليأس • وفى تلك اللحظة بالذات ، أعلن غاندى خطة عدم التعاون • وكانت كخطة «السين فين» فى ايرلندا تدعونا الى الاعتماد على أنفسنا ، كما كانت مؤدية بغير شك الى ايقاع نوع من الضغط الشديد على الحكومة ، فلاشك ان كل حكومة تعتمد اعتمادا أساسيا على تعاون المواطنين ، راضين أم كارهين فلو أن هذا التعاون توقف ، والمقاطعة نفذت ، فأنه من المؤكد ــ من الناحية النظرية على الأقل ــ ان يتحطم البناء الحكومى كله • حتى ولو لم تمض حركة عدم التعاون الى نهايتها ، فلاشك أن أى قدر منها كاف للضغط على الحكومة من ناحية ، وتنمية قوة الجماهير من جهة أخرى •

ان حركة عدم التعاون هذه حركة سلمية تماما ، ولكنها ليست كما يتصورها البعض مجرد « عدم مقاومة » • انها نوع صارم عنيف من المقاومة ، ولكنها مقاومة بغير عنف • انها ثورة سلمية ، وحرب هى أكثر أنواع الحروب تحضرا ، وسلاح

قادر على الحاق الضرر ببنيان الدولة الى أقصى الحدود . انهـا أسلوب فريد فى تحريك الجماهير الى العمل . وهى تجعلنا نحن الثائرين فى جانب حق واضح ، وتجعل خصومنا هم المعتدين. وقد خلقت فينا هذه المقاومة معرفة كيف نتخلص من الخوف الذى كان يملؤنا ، وجعلتنا ننظر الى الناس فى عيونهم كما لم نفعل قط ، ونقول كل مايدور فى رؤوسنا بصراحة لكأن كابوسا ثقيلا ارتفع عن عقولنا ! وكأن هذه الحرية الجديدة .. حرية الكلام والعمل، قد ملأتنا قوة وثقة ، وأخيرا ، فان هذا الأسلوب السلمى ، حال دون ظهور الحزازات الدينية والعنصرية التى كانت تظهر عندنا فى كل صراع .

فلم يكن غريبا اذا ، حين اقترن هذا البرنامج الجديد بشخصية غاندى الساحرة ، ان تتحمس الجماهير له وتمتلىء بالأمل . لقد انتشرت هذه الدعوة بسرعة وقضت على كل خوف قديم واجتذب المؤتمر فى صورته الجديدة كل العناصر الحيوية فى البلاد ، فأصبح أكثر نفوذا وأعظم قوة .

وفى نفس الوقت ، كان الانجليز يطبقون برنامج مونتاجو شلمسفورد للاصلاح ويكونون المجالس . وقد رحب المعتدلون الذين يسمون أنفسهم الآن « الاحرار » بهذه المجالس ، وأصبحوا وزراء وتولوا كثيرا من المناصب . أى أنهم انضموا فى الواقع الى جهاز الحكومة ولم يعد لهم أى وزن شعبى . أما المؤتمر فقد قاطع هذه المجالس التشريعية ، مما جعلها هزيلة تافهة ، لايهتم بها أحد .

لقد اتجهت كل الانظار الى الكفاح الحقيقى الذى أخذ ينتشر فى المدن والقرى . ولأول مرة فى تاريخ الهند ، ذهب كثيرون من العمال أعضاء المؤتمر الى القرى يكونون فيها « مؤتمرات صغيرة » لايقاظ الوعى السياسى بين الفلاحين .

وأخذت الاحداث تتطور بسرعة ، حتى وصلت الى ذروتها ، ووقع الصدام الذى لامفر منه ، فى ديسمبر سنة ١٩٢١ .. أما مناسبة هذا الصدام فقد كانت زيارة أمير ويلز ولى عهد انجلترا للهند ومقاطعة المؤتمر لها ، فقد ألقت الحكومة القبض

على الناس بالجملة في جميع أنحاء الهند حتى امتلأت السجون بالساسة .. واجتاز معظمنا أول تجربة له في داخل السجن . حتى الرئيس المنتخب للؤتمر ، وشباندو شيتا رانجان داس القى القبض عليه ، فشغل مكانه حكيم أجمل خان ، ولكن غاندى نفسه لم يقبض عليه . ونجحت الحركة ، وزاد عدد الذين تقدموا يريدون دخول السجن على عدد الذين سجنتهم الحكومة بالفعل ، وكلما قبضت الحكومة على أحد من الزعماء المعروفين حل محله زعيم غير معروف ، وفي بعض الأحيان غير مرغوب ، (من البوليس السرى مثلا) ، مما أدى الى تحويل الحركة في اتجاه الفوضى ، والعنف .. وفي أوائل عام ١٩٢٢ وقع صدام بين البوليس وجماهير من الفلاحين في « شورا شورى » انتهى باحراق الجماهير لمركز البوليس بما فيه من جنود ..

وقد أصيب غاندى بصدمة عنيفة من جراء هذا الحادث وغيره من الحوادث المشابهة ، التي دلت على أن الحركة بدأت تتسم بالعنف وعدم التنظيم ، وبناء على اقتراح منه ، أوقف المؤتمر العمل بالبند الخاص بحرق القوانين في برنامج عدم التعاون .. وبعد ذلك بقليل ألقى القبض على غاندى ، وقدم الى المحاكمة وحكم عليه بالسجن ست سنوات ، وبذلك انتهت المرحلة الأولى من مراحل حركة المقاطعة وعدم التعاون ..



الفاشية

٢١ يونيو سنة ١٩٣٣ :

رويت لك فى الخطابات السابقة كل شىء عن أوروبا حتى سنة ١٩٢٩ ، على أن هناك نقطة هامة أغفلتها عامدا ، كى أخصص لها هذه الرسالة • تلك هى قصة الاحداث التى جرت فى ايطاليا بعد الحرب العالمية ، وليست أهمية هذه الاحداث فى أنها جرت فى ايطاليا ، ولكن فى أنها نوع جديد من أنواع الصراع فى العالم كله • وعلى ذلك فسوف أحدثك فى هذا الخطاب عن الفاشية ، وعن موسولينى ، أحد الشخصيات البارزة فى عصرنا هذا •

كانت ايطاليا قبل أن تنشب الحرب العالمية (الأولى) فى حالة اقتصادية سيئة •

وقد اشتبكت مع تركيا فى حرب انتهت بانتصارها واستيلائها على ليبيا ، مما أرضى الاستعماريين فيها • على أن هذه الحرب الصغيرة لم تحل شيئا من مشاكلها الاقتصادية • بل لقد تفاقمت الحالة الاقتصادية فيها حتى بدت فى سنة ١٩١٤ ،

وكأنها على وشك ثورة عارمة : انتشرت الاضرابات الضخمةفي المصانع ، فلم يكن يمسك بزمام العمال ويخفف من حدتهـــم الا الزعماء الاشتراكيون المعتدلون الذين نجحوا في اخماد هذه الاضرابات ..

ثم جاءت الحرب ، ورفضت ايطاليا أن تنضم الى حليفتهــــا المانيا ، وحاولت أن تقف موقفا حياديا بغية الكسب من التعامل مع العسكريين .

ولا شك ان هذا الموقف الذى ينطوى على المســـاومة بين المعسكرين والانضمام لمن يدفع أكثر ، ليس بالموقف الشريف ، ولكن الدول تعودت أن تتجرد من الاخلاق التى يلتزم بهاالافراد وهى لذلك كثيرا ما تتصرفعلى نحو يخجلمنه الافراد العاديون وقد استطاعت انجلترا وفرنسا أن تدفعا رشوة أكبر ، وبذلك دخلت ايطاليا الحرب الى جانبهما فى مايو سنة ١٩١٥ ، وكان الثمن معاهدة سرية تعطى ايطاليا قطعة من الأرض فى آســيا الصغرى والبلقان ..

ولكن الثورة الروسية نشبت قبل أن تنفذ هذه الاتفاقية ، فضاعت الصفقة . وكان ضياع هذه الصفقة سببا فى سخط الايطاليين .

وقد ضاعف من سخطهم انهم خرجوا مغبونين من سوق المساومات في مؤتمرالصلح بفرساى ، بعد أن كانتالرأسمالية والبورجوازية الايطالية قد وضعت أملها فى المستعمرات التى سوف تظفر بها ، وتخفف ـ على حســـابها ـ حدة الأزمة فى ايطاليا ..

وساءت الأحوال فى ايطاليا بعد الحرب أكثر مما ساءت فى أى مكان آخر . وبدا ان النظام الاقتصادى يتداعى ، وانأنصار الشيوعيةوالاشتراكيةيتزايدون . وكان شبحالثورة الروسية ماثلا للعيان .

كان هناك من ناحية عمال المصانع الذين يقاســون قسوة الحياة ومن ناحية أخرى كان هناك الجنود المسرحون بعد الحرب بلا عمل .. وحاول زعماء الطبقة المتوسطة أن ينظموا هؤلاء الجنود ليقاوموا بهم قوة العمال النامية ..

وفى سنة ١٩٢٠ بدأت الأزمة . أعلن اتحاد عمال المعادن

الذى يضم نصف مليون عامل ، مطالبتـــه بزيادة الأجور . ورفض هذا الطلب ، فقرر العمال أن يضربوا واختـــاروا نوعا جديدا من الاضراب ، هو : أن يذهبوا الى المصـــانع دون أن يعملوا شيئا . وهو نوع من الاضراب ابتكره النقابيـــون في فرنسا قبل ذلك بزمن . ورد أصحاب المصانع على ذلك باغلاق مصانعهم . وهنا استولى العمال على المصانع وحاولوا أن يديروها على أسس اشتراكية ! ..

كان هذا العمل من العمال ثوريا تماما . ولو استمر لأدى اما الى ثورة اجتماعية واسعة ، واما الى كارثة شاملة .. اذ لم تعد هناك فرصة لأى حل وسط ..

وكان الحزب الاشتراكى فى ذلك الوقت قويا جدا فى ايطاليا فالى جانب سيطرته على نقابات العمال ، كان يسيطر على ٣٠٠٠ بلدية ومجلس محلى وكان له ١٥٠ نائبا فى البرلمان . والحزب اذا كان قويا ، شرعيا ، يمتلك مؤسسات كبيرة ، ويشـــغل مراكز هامة فى الدولة ، فانه من الصعب عليه جدا أن يكون ثوريا . ومع ذلك فان هذا الحزب ــ رغم كثرة عدد المعتدلين فيه أيد تصرف العمال . أيده ثم لم يصنع أى شىء آخر .

لم يشأ الحزب أن يتراجـــع ، ولـــكنه لم يجرؤ على المضى الى الامام . فاختار موقفا وسطا . وكما يحدث لكل من يتشكك ويتردد فى اتخاذ القرار الحاسم فى الوقت المناسب ، تعرض الحزب لهزيمة ساحقة واضطهاد بالغ . وبسبب هذا التردد من الزعماء ، فشلت حركة العمال فى الاستيلاء على المصانع ..

وقد شجع هذا الفشل أصحاب المصانع وكشف لهم عن أن تقديرهم لقوة العمال وزعمائهم كان مبالغا فيه ! فبدأوا يفكرون فى خطة للانتقام ، ولتحطيم الحركة العمالية والحزب الاشتراكى .

وكانت أول قوة فكروا فى الاستعانة بها ، جماعة المغامرين التى تكونت سنة ١٩١٩ ، من الجنود المسرحين ، بقيادة بنيتو موسولينى ، كانت تدعى «الفرق الفاشية » وهدفها انتهاز كل فرصة لمهاجمة الاشتراكيين ومؤسساتهم كأن يحطموا مطبعـــة احدى الصحف الاشتراكية ، أو يهاجموا مجلسا بلديا أو تعاونيا يسيطر عليه الاشتراكيون ، وأخذ كبار الرأسماليين وأبنـــاء الطبقة المتوسطة الكبيرة يمولون هـــذه الفرق الفاشستية ،

ويحاولون استخدامها في مقاومة الاشتراكية . حتى الحكومة كانت تشجعها من أجل تحطيم قوة الحزب الاشتراكي .

فمن هو بنيتو موسوليني ، الرجل الذى نظم هذه الفرق ؟ ..

كان فى ذلك الوقت شابا مغامرا . وكان أبوه اسكافيا اشتراكيا مما جعل موسوليني نفسه يشب وفى ذهنه كثير من الافكار الاشتراكية . وفى صباه أصبح مهيجا عنيفا ، وطرد أكثر من مرة من عدة مقاطعات سويسرية من أجل دعايته الثورية . وكان يهاجم الزعماء الاشتراكيين المعتدلين بشدة على اعتدالهم، وكان يدعو علنا الى استخدام القنابل وشتى وسائل العنف ضد الدولة .

وفى خلال حرب ايطاليا مع تركيا كان أكثر الزعماء الاشتراكيين يؤيدون الحرب . ولكن موسوليني لم يؤيدها . وألقى فى السجن عدة مرات لأنه استخدم وسائل عنيفة فى معارضتها .

وقد اشتد فى حملاته على الزعماء الاشتراكيين لتأييدهم هذه الحرب حتى نجح في اقناع الحزب بطردهم من حظيرته ، وأصبح هو رئيس تحرير الجريدة اليومية الاشتراكية « افانتي »، وكانت تصدر فى ميلان ، ومضى يكتب فيها داعيا العمال الى العنف وهى دعوة كانت تقابل بالمعارضة القوية من الاشتراكيين المعتدلين ..

ثم جاءت الحرب العالمية (الأولى) ولبضعة شهور ظل موسوليني يعارض اشتراك ايطاليا فى الحرب ويدعو الى الحياد. ولكنه فجأة غير آراؤه جميعا ، وأعلن انضمامه الى الحلفاء ، وترك الجريدة الاشتراكية ، وأصدر جريدة جديدة يدعو فيها الى سياسته الجديدة ، فطردوه من الحزب الاشتراكي . وبعد قليل تطوع فى الحرب كجندى عادى وحارب فى الجبهة الايطالية ، حتى سقط جريحا .

ولما انتهت الحرب ، لم يعد موسوليني يسمى نفسه اشتراكيا أصبح شخصا عائما لا يربطه شيء . لا يحبه الاشتراكيون ولا صلة له قط بالعمال . وبدأ يهاجم الاشتراكية بل والدولة البورجوازية أيضا . هاجم كل شكل من أشكال الدولة ، وسمى نفسه

« فرديا » ، ودعا الى الفوضوية • كتب ذلك فى مقالات صريحة • أعلن بعدها عن تكوين « الفاشية » ••

فى مارس سنة ١٩١٦ ، جند الجنود المسرحين فى فرق مقاتلة وكان أسلوب هـــذه الفرق هو العنف ، ولما كانت الحكومات تساعد هذه الفرق ولا تقاومها ، فقد زاد عدوانها وجرأتها ، وكثيرا ماكان العمـــال فى المدن يشـــتبكون مع هـــذه الفرق فى قتال منظم ويطردونها • ولكن الزعماء الاشتراكيين قاوموا فكرة مقابلة العنف بالعنف •• ودعوا العمال الى مقابلة الارهاب الفاشى بالسلم والهدوء ، أملا فى أن تتعب الفاشية وتسكن ، ولكن الفرق الفاشية على العكس تزايدت قوتها ، بفضل أموال الأغنياء وتغاضى الحكومه ، بينما فقد الرأى العام روح المقاومة التى كانت لديه ضد هذه الفرق ••

وقد اتجه الفاشست بزعامة موسلينى الى الخلط بين دعوتين متعارضتين • الأولى انهم أعداء الاشتراكية والشيوعية • وبذلك ضمنوا تأييد الطبقات الغنية • ولكن موسولينى كان اشتراكيا سابقا ، وسطوره مملوءه بالشعارات المعادية للرأسماليـــة ، مما كان يعجب الطبقات الفقيرة •• وهكذا أصبحت الفاشـــية مزيجا يمكن تفسيره بأكثر من معنى ! فهى حركة رأسماليـــة تصيح بهتافات معادية للرأسمالية • أما العمود الفقرى لهـــا فكان من الطبقة المتوسطة ، خصوصا الصغيرة منها • كذلك جذبت هذه الحركة العمال العاطلين والذين تنتظمهم نقابات • وبما أنه لاشىء ينجح مثل النجاح ، كما حدث عندما استطاع الفاشست أن يرغموا التجار بالقوة مثلا على تخفيض الاسعار ، فكسبوا عطف رجل الشارع ، فقد انضم الى الحركة كل المغامرين وان ظلت بالرغم من ذلك لاتمثل من الناس الا أقلية بسيطة •

وهكذا ، بينما كان القادة الاشتراكيين يتشككون ويترددون ويتنازعون فيما بينهم ، وتقع الانقسامات فى حزبهم ، نمت قوة الفاشية •• وقد كان عجيبا أن يجمع موسلينى فى حزبه كل هذه المتناقضات ، وأن يقنع كل فئة بأن الحركة الفاشية هى حركتها •• الاغنياء يرون فيه المدافع عن أملاكهم ، ويعتبرون كلماته وشعاراته المعادية للرأسمالية مجرد ســـطور جوفاء لخداع الجماهير ! والفقراء يعتقدون انها حركة ضد الرأسمالية ،

وإن الباقي ضحك على ذقون الأغنياء !

وهكذا مضى موسوليني يتكلم للفقراء يوما ، وللاغنياء يوما آخر ، وان كان في حقيقته صنيعة للطبقة الغنيـــة التي تموله والتي تستخدمه لتحطيم قوة الاشتراكية التي باتت تهـــدد مصالحهم ..

وأخيرا ، في أكتوبر سنة ١٩٢٢ ، زحفت الفرق الفاشستية على روما . وحاول رئيس الوزراء ـ الذي كان يعطف على هذه الفرق ـ أن يعلن الاحكام العرفية ، ولكن الملك نفسه كان قد أصبح في صف موسليني .. فرفض التوقيع على قرار إعلان الاحكام العرفية ، وقبـل اسـتقالة رئيس الوزارة .. ودعا موسليني الى تشكيل الوزارة الجديدة ..

ووصل الجيش الفاشيستي الى روما في ٣٠ أكتوبر سنة ١٩٢٢ وفي نفس اليوم وصل موسوليني من ميلانو بالقطار ، ليصبح رئيسا للوزارة .

انتصرت الفاشية اذا ، واستولى موسوليني على الحكم . لكن لأية غاية ؟ وما هو برنامجه وسياسته ؟ ان الحركات الـكبرى لابد أن تقوم على أساس مذهب واضح ينمو ويتبلور حول مبادىء ثابتة وأهداف ينتظمها برنامج محدد . ولكن الفاشية تتفرد بأنه ليس لها مذهب تدين به ولا فلسفة تقف خلفها .. اللهم الا اذا كان مجرد مقاومة الاشتراكية والحرية يمكن أن تـكون فلسفة !!

لقد أعلن موسوليني سنة ١٩٢٠ ـ بعد عام واحد من تكوين المنظمات الفاشستية : « ان الفاشيين ، وان كانوا غير مرتبطين بمبادىء معينة ، الا أنهم يسعون باستمرار نحو هدف واحد ، ذلك هو رخاء الشعب الايطالي ! » وواضح أن هذا الهدف لايعتبر سياسة معينة . فانه من السهل على أى مخلوق أن يقول أنه يسعى الى رخاء شعبه . وفي سنة ١٩٢٢ ، وقبـل الزحف على روما بشهر واحد قال موسوليني : ان برنامجنا بسيط جدا . اننا نريد أن نحكم ايطاليا !

وقد أوضح موسوليني هذه الحقيقة مرة أخرى في مقال كتبه في « الانسكليوبيديا الايطالية » عن أصل الفاشية .. فقد قال أنه لم تكن لديه خطط معينة للمستقبل عندما قرروا الزحف على

روما ! ولكنه فقط قرر استغلال الأزمة للقيــام بمغامرته متأثرا فى ذلك بما تعلمه أيام كان اشتراكيا ..

والفاشية ، وان لم يكن لها أى مبدأ أو عقيدة الا أن لهـــا أسلوبا أكيدا فى العنف والارهاب وأنه ليكفى أن نعرف نظرتها الى التاريخ حتى نفهمها على حقيقتها .

أما رمزها فقد أخذوه من رمز قديم كان يحمـــله الاباطرة الرومان القدامى وهو عبارة عن حزمة من العصى فى وسطها بلطة ، وهذه الحزمة اسمها اللاتينى « فاسش » ومن هنا جاء اسم الفاشستية . أما المنظمات الفاشستية فقد أخذ نظامهــــا أيضا من التشكيلات الحربية فى روما القديمة .

والسلام الفاشستى هو نفس السلام الذى كان مستعملا فى روما القديمة برفع الذراع مبسوطا على الامام .

اذا فقد كان الفاشيست ينظرون الى أمبراطورية روماالقديمة ويستلهمونها ! أى أن نظرتهم استعمارية ، وقد كان شعارهم « لامناقشة بل طاعة فقط ! » وهو شعار قد يناسب الجيــوش المحاربة ولكنه قطعا لايناسب الشعوب ! . وكان اسم قائدهم موسولينى « الدوتشى » وهى الترجمة الايطالية لكلمة«دكتاتور» وكان زيهم الرسمى عبارة عن قميص اسود ومن أجل ذلك عرفوا باسم « القمصان السود » .

ولما كان برنامج الفاشيست الوحيد هو الحصول على السلطة فقد تحقق لهم هذا البرنامج فعلا بتعيين موسولينى رئيســـا للوزارة ، وبعد ذلك بدأ موسولينى على الفور يدعم مركزه عن طريق تحطيم المعارضة وتدمير الخصوم . وبدأت موجة عاتيــة من العنف والارهاب تجتاح ايطاليا . وقد استعمل العنف فى التاريخ كثيرا ، ولكنه كان يستعمل دائما مصحوبا بالاعــذار والمبررات ، باعتبارأنه ضرورة مؤلمة . أما الفاشية فأنها لاتقف من هذا العنف موقف الاعتذار . ان الفاشيين يدعون الى العنف ويشيدون به علنا . وهم يمارسونه ، حتى ولو لم توجد أى مقاومة .

لقد لجأ موسولينى الى ارهاب أعضاء البرلمان عن طريق الاعتداء عليهم بالضرب المبرح ، فأرغمهم بهذا الاسلوب على اقرار قانون انتخابى . كان بمثابة الغاء للدستور . وحصل موسولينى على

هذا الاقرار بأغلبية كبيرة !

وقد كان غريبا حقا أن يستمر الفاشيون فى أعمال العنف غير المشروعة حتى بعد أن أصبحوا فى الحكم ، يسيطرون على البوليس وشتى أجهزة الدولة .

نعم لقد ظلوا يزاولون العنف غير المشروع بعد أن أصبح من حقهم أن يمنعوا البوليس من التدخل . لقد ارتكبوا جرائم القتل والتعذيب والضرب وتدمير الممتلكات . وكان هناك أسلوب فريد تميزوا به هو ارغام المعارضين على تعاطى كميات فظيعة من المسهلات !

وفى سنة ١٩٢٤ اهتزت أوروبا كلها بحادث اغتيال « جياكومو ماتيوتى » عضو البرلمان الايطالى، والزعيم الاشتراكى الكبير . لقد وقف فى البرلمان وهاجم الاساليب الفاشية خلال الانتخابات التى أجريت فى ذلك الوقت . وبعد خطبته هذه بأيام قليلة تم اغتياله . وحوكم القتلة محاكمة صورية ، انتهت بتركهم دون عقاب . كذلك مات زعيم من زعماء الاحرار اسمه « امندولان » نتيجة للضرب المبرح ، واستطاع رئيس وزارة سابق اسمه « نيتى » أن يفر من ايطاليا . وهذا كله غير الوسائل الشرعية للكبت والقهر . ولم يكن الارهاب ارهابا جماهيريا ، بل ارهابا حكوميا منظما لم يقتصر على الشيوعيين أو الاشتراكيين وحدهم ، بل لقد شمل الاحرار المعتدلين أيضا

كانت تعليمات موسولينى لاتباعه هى : أن يجعلوا حياة المعارضين صعبة ومستحيلة .

وقد نفذ الاتباع هذه التعليمات بأمانة . فكل شىء يجب أن يكون فاشيا .. وكل الوظائف يجب أن يشغلها الفاشيون ..

أصبح موسولينى الحاكم المطلق فى ايطاليا . ولم يكن رئيس الوزارة فحسب بل ووزير الخارجية والداخلية والمستعمرات والحرب ، والبحرية والطيران والعمل !

كان فى الواقع مجلس وزراء بأكمله - أما البرلمان فقد تحطمت اختصاصاته شيئا فشيئا حتى صار شبحا . كان المجلس الفاشيستى الأعلى يحكم الدولة وموسولينى يحكم المجلس الفاشيستى الأعلى !

وقد لفتت الانظار فى أوروبا الخطب الأولى التى ألقاها

موسوليني عن السياسة الخارجية . كانت خطبا غريبة انفجارية تهديدية ، لاتمت بصلة الى خطب الساسة والدبلوماسيين ورؤساء الدول . كان يبدو دائما متحديا طالبا للنزال ! كان يتحدث عن الامبراطورية التي ستبنيها ايطاليا ، والطائرات الايطالية التي سوف تملأ الجو ! وكثيرا ماهدد جارته فرنسا . بغير مناسبة . وكانت فرنسا بالطبع أقوى بكثير جدا من ايطاليا ، ولكن لاأحد في فرنسا كان مستعدا للحرب ، وعلى ذلك فقد أهملوا خطب موسوليني وتركوه يتكلم . وأصبحت عصبة الأمم هدفا رئيسيا لهجوم موسوليني وتنديده واحتقاره ، بالرغم من أن ايطاليا كانت عضوا فيها . ومع ذلك فقد سكتت العصبة والأمم المشتركة فيها على هذا العدوان ..

وقد تغير الكثير في ايطاليا خلال هذه الفترة . وأصبح السائح يعجب بما يراه من مظاهر النظام في كل شيء . وأصبحت روما من أجمل البلاد بما أدخل عليها من منشآت وبات حلم الامبراطورية الرومانية يتهادى أمام أعين موسوليني !

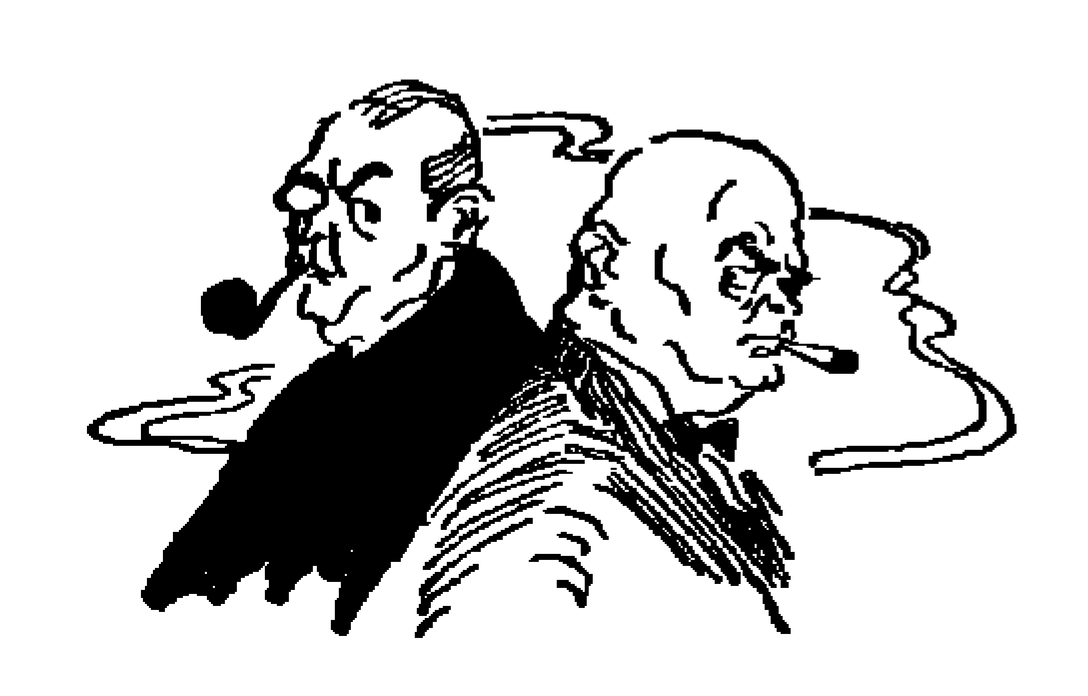
وقد استمر هذا الارهاب حتى سنة ١٩٢٦ ، وفي هذه السنة أصدر موسوليني عدة قوانين استثنائية ، أعطت الدولة سلطات هائلة للقضاء على المعارضة ، فأصبح هذا الارهاب لالزوم له . وفي ظل هذه القوانين الاستثنائية كان الناس يسجنون ويعاقبون ويطردون من بلادهم بالمئات . والاحصاءات الرسمية تقول ان عدد الذين حوكموا طبقا لهذه القوانين في الفترة بين سنتي ١٩٢٦ و١٩٣٢ بلغ ١٠٫٠٤٤ شخصا . وخصصت ثلاثة جزر قريبة من ايطاليا لنفي غير المرغوب منهم ، هي جزر بونزا وفنتولين وترميتي ، كانت أحوال المعيشة فيها فظيعة .

وقد استمر الضغط والاعتقالات حتى النهاية وعلى نطاق واسع . ومعنى ذلك ان المقاومة السرية والثورية ظلت ملتهبة في تلك البلاد ، رغم كل المحاولات التي بذلك لاخمادها .

وفي خلال ذلك كله تزايدت الاعباء المالية في الدولة .. وساءت الأحوال الاقتصادية الى حد قارب الانهيار (١)

---

(١) كتب هذا الفصل قبل انهيار نظام موسوليني بسنوات .



العالم الرأسمالي يفشل في الاتحاد

٢٨ يوليو ١٩٣٣ ..

ما أطول القصة التى رويتها لك عن التنافس والتآمر المالى ! انى لأخشى أن يكون شكرك لى عليها قليلا ! انها أكثر نواحى الصراع الدولى تعقيدا ، الأمر الذى يجعل الخروج منها أكثر صعوبة من الدخول فيها ! ومع ذلك فاننى لم أقدم لك الا محصول لمحة سريعة على السطح فحسب ، ذلك أن أكثر مايحدث فى هذا الميدان من ميادين الصراع يبقى خافيا ، لا يخرج الى السطح أبدا ولا يرى وضح النهار .

ان رجال المال والبنوك يلعبون فى هذا العالم الحديث دورا بالغ الأهمية ، حتى ملوك الصناعة ، ذهبت أيامهم ، وأصبح رجل المال الكبير هو الذى يحكم الصناعة والزراعة والنقل ، وكل شىء ، حتى الحكومات نفسها ! ذلك أن الصناعة والتجارة مع تقدمها وازدهارها أصبحت تحتاج الى مزيد من النقد ، والبنوك هى التى تمول الصناعة والتجارة بهذا النقد . فأغلب الاعمال الصناعية والتجارية فى العالم تتم الآن بواسطة الاقتراض ،

والبنوك الكبيرة هي التي تتوسع في الاقراض أو تقلل منه ، وتسيطر عليه في جميع الاحوال . رجل الصناعةورجل الزراعة على السواء ، كل منهما مضطر للذهاب الى البنك كي يقترض منه ما يستطيع أن يواصل به عمله ..

ولا يأتي ربح البنوك من فوائد هذه القروض فحسب ، بل من ازدياد سيطرتها تبعا لذلك على الصناعة والزراعة ، فالبنك يستطيع أن يدمر رجل الأعمال ، ويستطيع أن يرغمه على قبول الشروطالتي يمليها عليه ، بمجرد امتناعهعناقراضه ، أوبمطالبته - في لحظة حرجة - بردماعليه! وهذا النوع من الضغط يقع في الحياة الداخلية لكل بلد وفي الحياة الدولية أيضا ، فالبنوك المركزية الكبيرة تقرض كثيرا من الحكومات في بلاد مختلفة كما تقرض الافراد تماما . وبهذا الأسلوب يسيطر رجال البنوك في نيويورك على كثيرمن حكومات أمريكا الوسطى والجنوبية .

ومن أبرز خصائص هذه البنوك الكبيرة ، انها تكسب في حالات الرواج والكساد على السواء ، فهي في حالات الرواج تشارك في الرخاء العام ، وتكسب من حركة النقود ، ومن اقراض المشروعات نظير فوائد مجزية . وهي في حالاتالازمة والكساد تقبض يدها على أموالها ولا تخاطر بها(وبذلكتضاعف حدة الازمة ، لأن الاعمال لاتستطيع الاستمرار بغير الاقتراض) ولكنها تكسب من ناحية أخرى : ففي فترات الازمة تهبطأسعار كل شيء .. الأراضي والمصانع على السواء .. وتفلس كثير من المنشآت .

وهنا يستطيع البنك أن يتقدم ويشترى كل شيء ، برخص التراب ! اذا فمن مصلحة رجال البنوك أن تكون ثمة دورات متتابعة ، من الرواج والكساد !

وفي خلال الأزمة العالمية التي حدثتك عنها ، ظلت البنوك الكبيرة ناجحة ، توزع أرباحا كبيرة . حقا ، قد أفلست كثير من البنوك في أمريكا والنمسا والمانيا ، ولكن البنوك التي أفلست في أمريكا هي البنوك الصغيرة . والظاهر أن نظام البنوك في أمريكا كان يعاني من نقص معين . أما انجلترا فلم يتأثر فيها أي بنك ..

رجال البنوك اذا هم السادة في العالم الرأسمالي اليوم . الأمر الذي حدا بكثير من الناس أن يطلقوا على هذا العصر اسم « العصر المالي » ، تمييزا له عن العصر الصناعي الذي سبقه

وقد رأينا كيف أن الصراع على الزعامة المالية بين انجلترا وأمريكا قد انتهى – حتى الآن – بفوز مدينة لندن . ولكن ماذا كانت ثمرة هذا النصر ؟ ان ثمرة هذا النصر التي استغرق الصراع من أجلها سنوات ، تتلاشى شيئا فشيئا . لقد هبطت تجارة انجلترا الدولية ، وهبطت معها الأرباح التي تدعم هذه الزعامة المالية !

وفي مارس سنة ١٩٣٣ تعرضت أمريكا لأزمة مالية أخرى . وقد دفعت هذه الأزمة أمريكا الى أن تتخلى عن قاعدة الذهب وتخفض قيمة الدولار ، بالرغم من أن أمريكا تملك من الذهب أكثر من أي دولة أخرى في العالم . وقد كان هذا التخفيض بقصد تخفيف العبء عن الصناعة والزراعة ، وتحسين حالة المدينين على حساب البنوك الدائنة .

وفي يونيو سنة ١٩٣٣ ، بذل العالم الرأسمالي محاولةأخرى للتعاون على حل المشاكل التي تواجهه . وعقد مؤتمر اقتصادى دولي في لندن ، تحدث المندوبون فيه عن « الرعب الذي يغمر العالم » وحذروا من أن فشل هذا المؤتمر قد يؤدى الى تداعى البناء الرأسمالي كله .

وبالرغم من كل هذه الأخطار والتحذيرات، فقد عجزت القوى الكبرى عن التعاون ، وظلت كل واحدة منها تحاول أن تشق طريقها الخاص بها . وبذلك فشل المؤتمر ، وأخذت كل دولة تواصل سياستها الاقتصادية الوطنية ..

كان من المستحيل – مثلا – بالنسبة لانجلترا أن تكفي نفسها ، مادامت لاتنتج الطعام اللازم لها ، ومادامت الخامات اللازمة لصناعتها تأتيها من الخارج . ومن أجل ذلك عمدت انجلترا الى الأخذ بسياسة اقتصادية وطنية على أساس يشمل الامبراطورية كلها ، بقصد جعل الامبراطورية البريطانية وحدة اقتصادية واحدة ، أو كتلة استرلينية واحدة . وبهذه الفكرة ، عقدت انجلترا مؤتمرا اقتصاديا للامبراطوريةفي أوتاوا . ولكنه حتى في هذا المؤتمر ثارت الصعوبات . فان كندا واستراليا

وجنوب أفريقيا لم تكن مستعدة لكي تفرط في أي مصلحة لها من أجل انجلترا • بل لقد كان على انجلترا أن ترضخ لبعض طلبات هذه الدول • وقد جعلت انجلترا الهند ـ رسميا فقط ـ توافق على معاملة البضائع الانجليزية معاملة خاصة ، بالرغم من المعارضة الشعبية الواسعة لهذا الوضع •

وفي نفس الوقت ، ظهرت بوادر خطر آخر يهدد صناعات الامبراطورية البريطانية وأسواقها • لقد بدأت المنتجات اليابانية الرخيصة تتدفق في كل مكان ، وكانت رخيصة بحيث ان أي رسوم جمركية لم تكن كافية للحد من انتشارها • وهذا الرخص يرجع الى هبوط قيمة الـ « ين » ، والى تفاهة الأجور التي تدفع للفتيات العاملات في المصانع اليابانية ، والى ان شركات النقل البحري اليابانية لاتأخذ الا أجورا بسيطة •

واذ فشلت الرسوم الجمركية في درء منافسة البضائع اليابانية ، عمدت انجلترا الى اغلاق بعض الاسواق اغلاقا محكما في وجه هذه البضائع ، أو الى عدم السماح لها بالدخول الا بكميات محددة •

ولكن ، اذا تم طرد البضائع اليابانية من الاسواق بهذه الطريقة ، فماذا يصيب صناعة اليابان الضخمة ؟ اما أن يتحطم كيانها الاقتصادي كله ، واما أن تعمد الى خلق أسواق لها بالقوة •• وبذلك تنشب الحروب !

وتلك هي المراحل التي لامفر منها •• في عالم المنافسات الرأسمالية !



رسالة ختام

٩ أغسطس ١٩٣٣ ..

هانحن ، ياعزيزتى ، قد وصلنا الى ختام القصة . وليس لدى الآن ما أقوله ، ولكن رغبتى فى أن انهى خطاباتى اليك بنوع من التفاؤل ، هى التى تدفعنى الى كتابه هذا الخطاب ـ آخر خطاب ! .

وقد انتهيت من كتابة هذه الخطابات فى الوقت المناسب ، ذلك ان مدة السجن المحكوم بها على ـ وهى سنتان ـ قد قاربت الانتهاء . فبعد ثلاثة وثلاثين يوما سوف يفرج عنى ، هذا اذا لم يفرج عنى قبل ذلك .. كما يهددنى السجان أحيـــانا ! والسنتان اللتان حكم بهما على لم ينته أجلهما بعد ، فقد خصموا من مدة سجنى ثلاثة أشهر ونصف ، كما يصنعون مع المسجونين الذين يسلكون فى السجن سلوكا حسنا ، وهم يعتبروننى من بين المسجونين المؤدبين ، بالرغم من أنى لم أصنع شيئا أستحق عليه هذا اللقب ! ..

هكذا ينتهى السجن السادس لى ، وبعده أخرج الى العالم الواسع

ولكن لأية غاية ؟ ان معظم أصـــدقائي وزملائي موزعون بين السجون ، وبلادي كلها تبدو وكأنها سجن كبير !

ما أكثر كمية الخطابات التي كتبتها ! وما أكثر ما استهلكت من الحبر والورق ، المصنوع صناعة وطنية ! ترى ، هـــل يستحق هذا كله شيئا ؟ هل وجدت في كل ماحمله اليك كل هذا الحبر والورق شيئا يهمك ؟ ستقولين نعم بغير شك ، لأنك تعرفين ان أي اجابة أخرى قد تؤلمني • وانت تحابينني بحيث لايمكن أن تقدمي على هذه المخاطرة • ولكن ، سواء أعجبـــك ما كتبته لك أم لم يعجبك •• فانك لن تبخلي علي بالســـعادة التي كنت أشعر بها وأنا أكتب هذه الخطابات ، يوما بعـــد يوم ، خلال عامين طويلين ••

لقد جئت الى هنا في الشتاء • ثم لم يلبث الشتاء ان أخلى مكانه لربيعنا القصير الذي سرعان ما اختنق في حرارةالصيف• ولما جفت الأرض وتشققت ، وأصبح الناس والحيـــوانات عـلى السواء يلهثون بحثا عن نسمة هواء يستنشقونها ، جاء موسم المطر ، بمياهه الباردة المنعشة • وبعـــد ذلك جاء الخريف ، وأصبحت السماء زرقاء صافية ، والليـــالي جميلة رائعـــة • وهكذا انتهت دورة العام ، لكي تبدأمنجديد : الشتاء ثمالربيع ثم الصيف ثم فصل الأمطار •• كل هذا وأنا جالس هنـــا ، أكتب اليك ، وأفكر فيك ، وأرقب الفصول تمر ، واستمع الى حبات المطر وهي تطرق سطح الثكنة التي أقيم فيها ••

« ما أجمل صوت المطر ••
« على الأرض وفوق السقوف ••
« ما أجمل غناء المطر ••
« للقلب الحزين الأسيف » ! ••

لقد كتب بنيامين دزرائيلي ، رجل الدولة الانجليزي الشهير في القرن التاسع عشر « ان الرجل العادي اذا حكم عليه بالنفي أو الأسر ، ضاع لبه • أما رجل الأدب ، فانه يعتبرأيامالسجن أسعد أيام حياته ! » •• قال دزرائيلي هذا الكلام وهو يكتب عن « هوجو جروشيوس » ، وهو قاض وفيلســـوف هولندي

---

(١) ابيات من الشعر الفرنسي ••

شهير ، عاش فى القرن السابع عشر ، وحكم عليه بالسجن مدى الحياة ، ولكنه فر من سجنه بعد سنتين • وقد قضى هاتين السنتين فى كتابة أعمال أدبيةوفلسفية هى التىخلدتذكره • والتاريخ يذكر لنا كثيرا من البلابل التى غردت وراء قضبان السجون ، مثل الاسبانى سرفانتس مؤلف « دون كيشوت » ، والانجليزى « جون بنيان » • •

ولكننى لست من رجال الأدب ، ولا أنا أزعم ان السنوات الكثيرة التى قضيتها فى السجن كانت أسعد أيام حياتى ،ولكن الذى يجب أن اعترف به هو أنالقراءة والكتابة قد ساعدتنى مساعدة رائعة على اجتياز هذه السنين ، نعم ، اننى لست أديبا ولا مؤرخا •• اذا ، فمن أنا ؟ ما أصعب الاجابة على هذا السؤال لقد جربت أشياء كثيرة • بدأت بدراسة العلم فى الكلية ، ثم اتجهت الى القانون ، وبعد ان مررت بمهن كثيرة فى الحياة ، اتجهت الى المهنة الشعبية الواسعة الانتشار فى الهند ، وهى التردد على السجن !! ••

واياك أن تأخذى شيئامما حدثتك به فى هذه الخطابات علىأنه قضية مسلمة ، أو على أنه كلام خبير •• أن رجل السياسة فى العادة يحب الادلاء برأيه فى كل موضوع ، وهو عادة يتظاهر بمعرفة أكثر مما يعرف فعلا ! •• ولذلك فانه يجب مراقبته بدقة ! ••

وهذه الخطابات التى بعثت بها اليك ليست سوى خطوط أولية يربط بينها خيط رفيع ••

وفى رحلتى هذه حول العالم ، كنت أقفز أحيانا على قرون واحداثبالغةالأهمية ، فاذا وصلتالىحادثيهمنىنصبتخيمتى وأقمت عنده زمنا طويلا - وسوف تلاحظين ان هذه الرسائل تدل بوضوح على ما أكره وما أحب ، كما تدل أحيانا على تغير حالتى النفسية فى السجن •

ولست أحب أن تأخذى ماحدثتك به هنا قضية مسلما بها ، فقد يكون ثمة خطأ كبير فى بعض حسابى •• هذا الى أن السجن — حيث لاتوجد مكتبات ولا مراجع فى متناول اليد ، ليس المكان الملائم للكتابة فى الموضوعات التاريخية ، فكان على أن أعتمد الى حد كبير على الملاحظات التى تعودت أن أدونها

منذ اثنتي عشرة سنة مضت ، حين بدأت أتردد على السجون ..
وقد استطعت ان أقرأ هنا كتبا كثيرة . ولكن هذه الكتب كانت تجيء وتذهب ، اذ كان من المستحيل على أن اقتنى مكتبة فى هذا المكان . وقد أخذت من هذه الكتب ، وبلا تحرج ، الكثير من المعلومات والأفكار ، فليس فيما كتبت شيء من ابتكاري .

وقد تجدين صعوبة فى متابعة بعض رسائلى .. فدعيها جانبا ، ولا تهتمي بها ..

انني لم أقدم لك فى هذه الرسائل تاريخا . بل مجرد خطوط فاذا أعجبتك دراسة التاريخ ، اذا وجدت فى قراءته بعض المتعة ، فسوف تجدين بغيتك فى كتب التاريخ الكثيرة التى تساعدك على فهم العصور الغابرة ..

ولكن قراءة الكتب وحدها لاتكفى . فلكى تعرفى الماضى يجب أن تنظرى اليه فى مشاركة وفهم .. لكى تفهمى انسانا عاش منذ زمن يجب أن تفهمى البيئة التى أحاطت به ، والظروف التى عاش فيها ، والأفكار التى كانت تملأ رأسه . فأنه لمن السخف أن نحكم على الذين عاشوا قبلنا كما لو كانوا يعيشون فى عالمنا ويفكرون كما نفكر .

ففى عصرنا هذا مثلا لانجد مخلوقا واحدا يدافع عن الرق . ومع ذلك فان مفكرا عظيما مثل أفلاطون كان يعتبر وجود الرق ضروريا ..

وقد يتفق الجميع على أنه من المستحيل أن نحكم على الماضى بالمعايير الحاضرة . ولكننا نجد من لايعترف بسخف الجانب المقابل ، وهو الحكم على الحاضر بالمعايير الماضية ..

فاذا نظرت الى التاريخ القديم بعين العطف ، فسوف تجدين ان العظام الجافة فى كيانه قد أصبحت جسدا حيا نابضا من اللحم والدم .. سوف ترين موكبا باهرا من الأحياء رجالا ونساء وأطفالا ، من جميع الأعمار والأجواء ، يختلفون عنا ولكنهم يشبهوننا تماما .. فى كل مايتميز به الانسان من قوة وضعف !

ان رؤوسنا لتزدحم بالصور المعلقة فى أبهاء التاريخ ! .. مصر ـ بابل ـ نينوى ـ الحضارات الهندية القديمة ـ قدوم الآريين الى الهند وانتشارهم فى أوروبا وآسيا ـ الثقافة

الصينية الرائعة ـ الاغريق ـ امبراطورية روما وبيزنطة ـ الغزو العربى الظافر عبر قارتين ـ الحضارة الازتكية المجهولة فى أمريكا ـ فتوحات المغول الواسعة ـ العصور الوسطى فى أوروبا وكتدرائياتها القوطية الباهرة ـ قدوم الاسلام الى الهند والامبراطورية المغولية ـ النهضة الفنية والعلمية فى غرب أوروبا ـ اكتشاف أمريكا والطرق البحرية الى الشرق ـ الغزو الغربى للبلاد الشرقية ـ ظهور الآلات الكبيرة ونمو الرأسمالية ـ انتشار الصناعة وسيطرة الرأسمالية الاوروبية ـ وكل عجائب العلم فى العالم الحديث ٠

كثير من الامبراطوريات قامت وسقطت ونسيها الانسان آلافا من السنين ، قبل أن يعثر عالم صبور مرة أخرى على حفرياتها المطمورة فى الرمال ٠٠ وكثير من المبادىء والأحلام عاشت ، وأثبتت أنها أقوى وأثبت من أى امبراطورية ٠

« لقد سقطت حضارة مصر ٠٠
وسقط اليونان ، ومدينة طروادة ٠٠
وفقدت روما تيجانها ٠٠
وفقدت فينسيا كبرياءها ٠٠
ولكن الأحلام التى طافت باطفالها ٠٠
العابرة ، الوهمية ، النابضة ٠٠
هى التى بقيت » ٠٠
هذا تغنى مارى كولردج ٠٠

حقا ان الماضى ليمنحنا الكثير ٠ فكل مالدينا الآن من ثقافة وحضارة وعلم ، هبات ماض بعيد أو قريب ٠٠ فمن الحق اذا أن نعترف بديننا نحو هذا الماضى ٠٠

ولكن الماضى لايجب أن يستغرق عرفناها ٠ فان فى اعناقنا نحو المستقبل واجبا لا يقل ، بل لعله يزيد ، عما ندين به لهذا الماضى ٠٠ فما فات قد مضى ٠٠ ومن المستحيل أن نغيره ٠٠ أما المستقبل فانه لم يأت بعد ، ولعلنا نستطيع أن نشارك فى تشكيلة ٠٠ فاذا كان الماضى قد أعطانا جزءا من الحقيقة ، فان المستقبل يخفى جوانب أخرى منها ويدعونا الى البحث عنها ٠٠ ولكن الماضى يغار دائما من المستقبل ، وهو يمسك بنا دائما بقبضته القوية ، وعلينا نحن أن نصارعه حتى نتحرر ونواجه

المستقبل ، ونتقدم اليه ..

ومن الأقوال المألوفة أن التاريخ يعلمنا دروسا كثيرة .. ومن الأقوال المألوفة أيضا أن التاريخ لا يعيد نفسه أبدا .. وكلا القولين صحيح .. ذلك أننا لن نتعلم منه شيئا بمجرد النقل عنه ، أو بتوقعنا منه أن يعيد نفسه .. ولكننا نستطيع أن نتعلم منه بالاسترشاد به وبمحاولة اكتشاف القوى التي تحركه ، وحتى في هذا الصدد ، لانظفر عادة باجابات مستقيمة! وقد قال كارل ماركس : أن التاريخ يجيب على الأسئلة القديمة بطرح أسئلة جديدة ! ..

كانت الأيام الخالية أيام ثقة عمياء ، لا تساؤل فيها ولا تشكك .. هذه المعابد والمساجد والكاتدرائيات القديمة الباهرة ، كان من المستحيل أن تبنى بغير الايمان الفياض في نفوس المهندسين والبنائين والناس أجمعين .. والأحجار التي كانوا يضعونها حجرا فوق حجر ، أو يحفرون عليها الرسومات الجميلة تنبئنا بهذا الايمان ، وحتى الآن ، نجد أبراج المعابد ، ومآذن المساجد ، والكاتدرائيات بارتفاعها الشاهق الى السماء ، في اخلاص ، كأنها ترفع الى السماء صلاة صامتة من الحجارة والمرمر ، ما زالت تؤثر فينا الى الآن ، حتى ولو كان ينقصنا ذلك الايمان الذى أقامها ، ولكن أيام هذا الايمان قد ذهبت ، وذهبت معها تلك الروح التي كانت تسحر الحجر .. آلاف من المعابد والمساجد والكاتدرائيات ما زالت تبنى الى اليوم ، ولكنها تفتقر الى تلك الروح التي كفلت للآثار القديمة هذا البقاء .. ان المعابد هذه الأيام لا تختلف كثيرا عن بناء المؤسسات التجارية ، التي تمثل عصرنا الراهن خير تمثيل

ان عصرنا الراهن هذا عصر لا وهم فيه .. انه عصر الشك والتردد والسؤال .. ونحن أبناء هذا العصر لم نعد نقبل الكثير من المعتقدات القديمة ، لم نعد نؤمن بها ، سواء لما في آسيا أو أوروبا أو أمريكا .. ولهذا فنحن نبحث عن طرق جديدة ، عن جوانب أخرى للحقيقة ، تكون أكثر ملاءمة لما يحيط بنا من ظروف .. نحن لا نكف عن توجيه الأسئلة ، أو عن المناقشة والصراع والخوض في عديد من الآراء والفلسفات نحن الآن نعيش في عصر يشبه عصر سقراط ، عصر تساؤل

مستمر . ولكن تساؤلنا ليس قاصرا على مدينة واحدة [illegible] بل أنه يشمل العالم بأسره ..

وانه ليحدث كثيرا أن يضغط على عقولنا ما نراه فى العالم من ظلم ، وتعاسة ، ووحشية ، فتسود الدنيا فى عيوننا ولا نرى طريقا للخلاص .. ونشعر أنه لا أمل فى هذا العالم على الاطلاق ..

ومع ذلك . فان الاستسلام لهذه النظرة القاتمة ، معنـــاه أننا لم نفهم درس الحياة والتاريخ فهما صحيحا ..

ان التاريخ يعلمنا التقدم والنمو ، وامكان تطور الانسان الى الأحسن ، والحيـــاة عنيفة حافلة ، فقد يكون عليهـــا كثير من الطين والماء الآسن والمستنقعات ، ولكن هناك أيضا البحار العظيمة ، والجبال والثلج ، وضوء النجوم الباهر فى حلكة الليل (خصوصا فى داخل السجن !) .. وهناك الحب .. حب الأهـل والأصـدقاء ، وزمالة العاملـــين لأجـل غاية واحدة ، وهناك الموسيقى ، والكتب ، وعالم الأفكار بأسره ..

وانه لمن السهل دائما أن يحب الانسان ما فى هذا الكون من جمال ، وأن يعيش هائما فى عالم الفكر والخيال .. ولكن الفرار ــ بهذه الطريقة ــ من شقاء الآخرين ، وعدم الاهتمـام بما يصيبهم ، ليس من علامات الشجاعة .. فالفـكر لـكى يحقق نفسه ، يجب أن يقود صاحبه الى العمل. وقد قال رومان رولاند « أن العمل هو نتيجة الفكر .. وكل فكر لا يؤدى الى العمل يعد خيانة » ..

والناس يتجنبون العمل عادة ، خوفا من العواقب ، لأن العمل معناه المخاطرة .. والخطر يبدو من بعيد شيئا رهيبا حقا ، ولكنك لو نظرت اليه عن قرب فلن تجديه مفزعا الى هذا الحد .. بل انه كثيرا ما يكون زميلا رائعا ، يضاعف متعة الحياة

ان الحياة الرتيبة العادية كثيرا ماتصبح مملة ، تأخذ فيهـا الأشياء ، على أنها أمور طبيعية لاتستوجب الفرح ، ولـكن ، ما أعظم ما نقدر هذه الأشياء ونحبها عندما نحيا بدونها قليلا من الوقت ! .. ان كثيرا من الناس يتسلقون الجبال ويخاطرون بحياتهم بحثا عن المتعة التى يجدونها فىهذا التسلق ، والنشوة التى يمنحها أياهم اقتحام الخطروالتغلب على الصعاب ، والفرحة

بالحياة المثيرة المعلقة بخيط رفيع ! ••

وكل واحد منا يستطيع أن يختار بين الحياة فى الوديان المنخفضة ، بما فيها من ضباب غير صحى ، لأنها تمنحنا نوعا من السلامة ، وبين سكنى الجبال العاليه بما فيها من مخاطر من أجل استنشاق الهواء الطلق ، وتأمل المناظر البعيدة واستقبال الشمس المشرقة ••

وقد لاحظت اننى نقلت لك فى هذا الفصل كثيرا من مقتطفات الشعر ، ولكننى أحب أن أختم خطابى هذا بأبيات أخيرة ، من قصيدة ، أو صلاة ، كتبها رابندرانات طاغور :

حيث العقل لا يخاف والرأس مرفوعة عالية ••
حيث المعرفة حرة ••
حيث العالم لم تمزقه جدران التعصب ••
حيث تخرج الكلمات من أعماق الحقيقة ••
حيث تجد المحاولة التى لا تمد ذراعيها الى الكمال ••
حيث لا يفقد جدول العقل مجراه فى صحراء التقاليد الميتة •
حيث العقل فى تقدم دائم نحو ساحات أفسح من الفكر والعمل ••
فى هذه السماء من الحرية ، يا أبت ، دع وطنى يصحو ! •

لقد انهيت قصتى ، وهذا هو خطابى الأخير ••

خطابى الأخير ؟ •• كلا •• فسوف أكتب لك المزيد •• فهذه السلسلة وحدها هى التى انتهت ••

الفهرس

صفحة

العــدد السابع

مارس سنة ١٩٥٥

يصدر عن دار « روز اليوسف »

١٨ شارع محمد سعيد ـ القاهرة

الاشـــتراكات

١٢٠ قرشـا عن ســـنة داخـل القطر ..

٦٠ قرشا عن نصف سنة داخل القطر ..

١٨٠ قرشـا عن ســـنة خارج القــطر ..

٩٠ قرشا عن نصف سنة خارج القطر ..

رئيس التحرير المسئول : فاطمة اليوسف

جميع المكاتبات والرسائل ترسل باسم « روز اليوسف »
«كتابروزاليوسف» بريد البرلمان ـ شارع محمدسعيدباشا
تليفون : ٢٠٨٨٥ ـ ٢٠٨٨٦ ـ ٢٠٨٨٧ ـ ٢٠٨٨٨

« طبع بمطابع روز اليوسف »


كتاب روز اليوسف
مدرسة السياسة


الثمن ١٠ قروش

